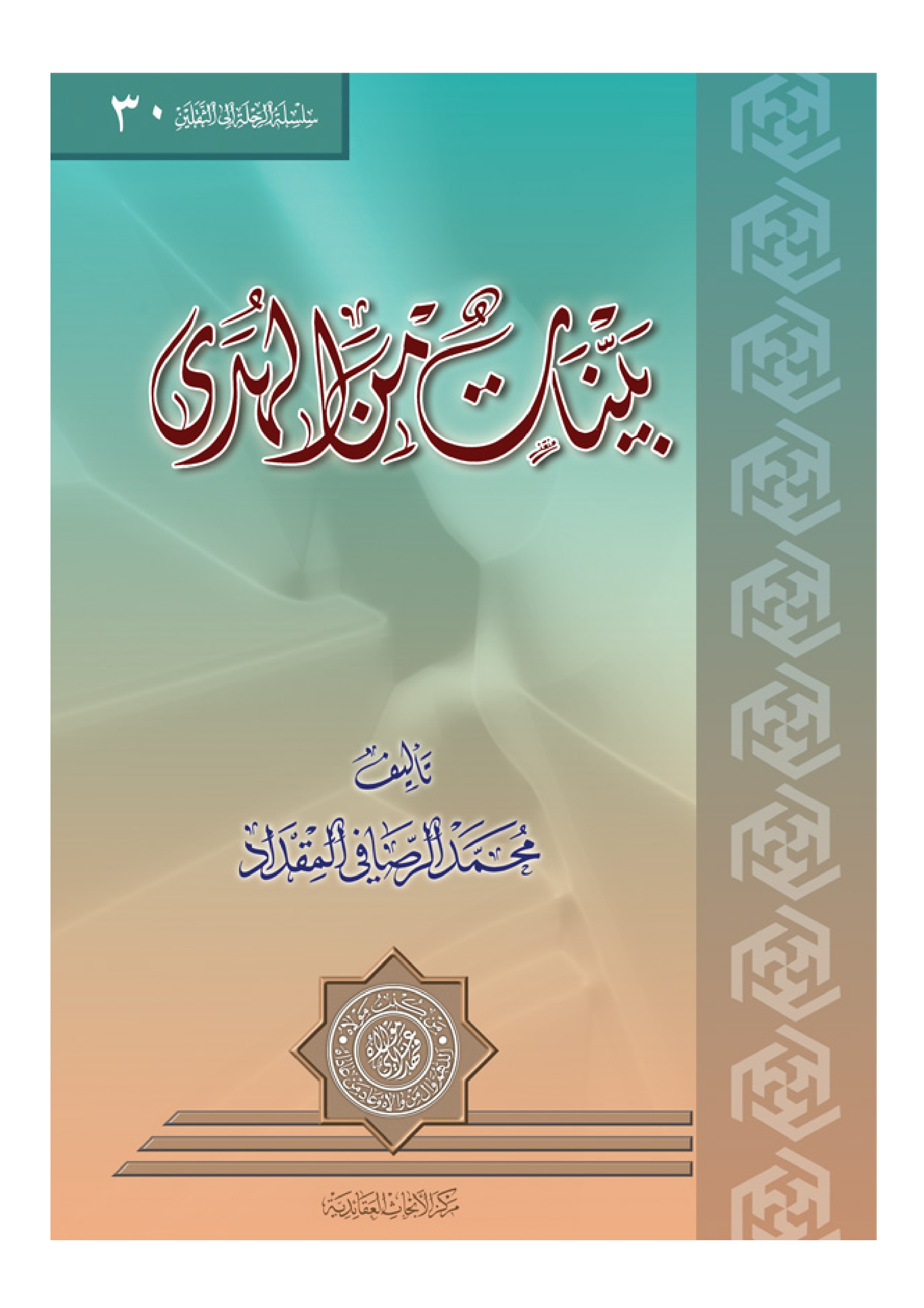
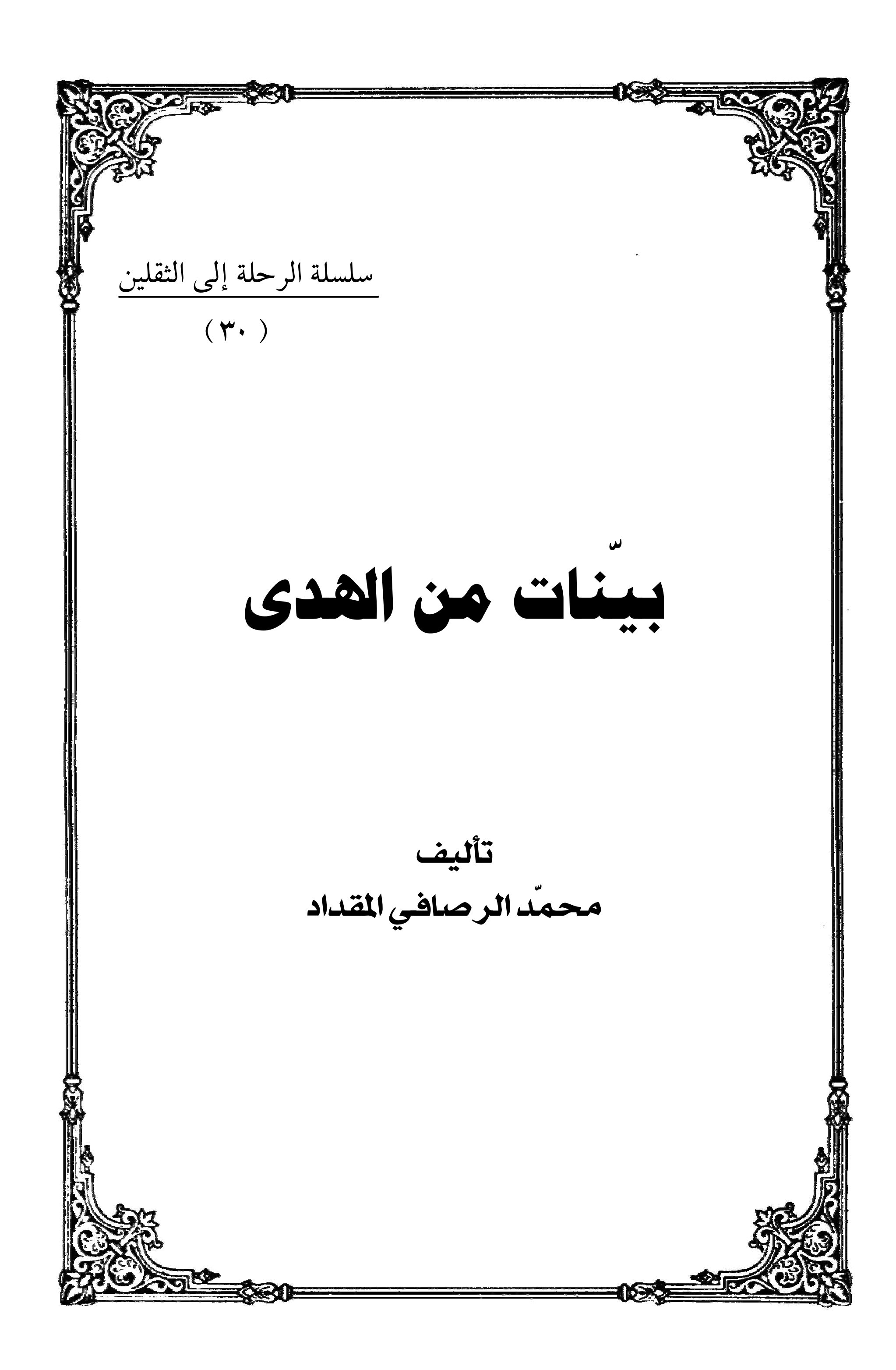

سلسلة الرحلة إلى الثقلين ٣٠
بينات من الهدى
تأليف
محمد الرضا في المقداد
مركز الأبحاث العقائدية



سلسلة الرحلة إلى الثقلين

(٣٠)

بيّنات من الهدى

تأليف

محمّد الرصافي المقداد

هوية الكتاب

مركز الأبحاث العقائدية

إيران ـ قم المقدّسة ـ صفائية ـ ممتاز ـ رقم ٣٤

ص . ب : ٣٣٣١ / ٣٧١٨٥

هاتف : ٧٧٤٠٠٨٨ (٢٥١) (٠٠٩٨)

فاكس : ٧٧٤٢٠٥٦ (٢٥١) (٠٠٩٨)

البريد الالكتروني: info@aqaed.com

الموقع على الانترنت: WWW.aqaed.com

شابِك (ردمك) :

بيّنات من الهدى

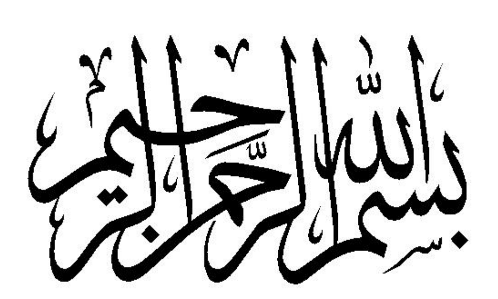
تأليف

محمّد الرصافي المقداد

الطبعة الأولى ـ ٢٠٠٠ نسخة

سنة الطبع: ١٤٢٩هـ

المطبعة : ستارة


بسم الله الرحمن الرحيم

دليل الكتاب

مقدّمة المركز:

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة على خاتم
المرسلين محمّد وآله الغرّ الميامين

من الثوابت المسلّمة في عملية البناء الحضاري القويم، استناد الأُمّة إلى قيمها السليمة ومبادئها الأصيلة، الأمر الذي يمنحها الإرادة الصلبة والعزم الأكيد في التصدّي لمختلف التحدّيات والتهديدات التي تروم نخر كيانها وزلزلة وجودها عبر سلسلة من الأفكار المنحرفة والآثار الضالة باستخدام أرقى وسائل التقنية الحديثة.

وإن أنصفنا المقام حقّه بعد مزيد من الدقّة والتأمّل، نلحظ أنّ المرجعية الدينية المباركة كانت ولا زالت هي المنبع الأصيل والملاذ المطمئن لقاصدي الحقيقة ومراتبها الرفيعة، كيف؟! وهي التي تعكس تعاليم الدين الحنيف وقيمه المقدّسة المستقاة من مدرسة آل العصمة والطهارة عليهم السلام بأبهى صورها وأجلى مصاديقها.

هذا، وكانت مرجعية سماحة آية اللّه العظمى السيّد علي الحسيني السيستاني ـ مدّ ظلّه ـ هي السبّاقة دوماً في مضمار الذبّ عن حمى العقيدة ومفاهيمها الرصينة، فخطت بذلك خطوات مؤثّرة والتزمت برامج ومشاريع قطفت وستقطف أينع الثمار بحول اللّه تعالى.

ومركز الأبحاث العقائدية هو واحد من المشاريع المباركة الذي أُسس لأجل نصرة مذهب أهل البيت عليهم السلام وتعاليمه الرفيعة.

ولهذا المركز قسم خاص يهتم بمعتنقي مذهب أهل البيت عليهم السلام على مختلف الجهات، التي منها ترجمة ما تجود به أقلامهم وأفكارهم من نتاجات وآثار - حيث تحكي بوضوح عظمة نعمة الولاء التي مَنّ اللّه سبحانه وتعالى بهم عليهم - إلى مطبوعات توزّع في شتى أرجاء العالم .

وهذا المؤلَّف - « بيّنات من الهدى» - الذي يصدر ضمن «سلسلة الرحلة إلى الثقلين» مصداق حيّ وأثر عملي بارز يؤكّد صحة هذا المدعى.

على أنّ الجهود مستمرة في تقديم يد العون والدعم قدر المكنة لكلّ معتنقي المذهب الحقّ بشتى الطرق والأساليب، مضافاً إلى استقراء واستقصاء سيرة الماضين منهم والمعاصرين وتدوينها في «موسوعة من حياة المستبصرين» التي طبع منها عدّة مجلّدات لحدّ الآن، والباقي تحت الطبع وقيد المراجعة والتأليف، سائلين المولى تبارك وتعالى أن يتقبّل هذا القليل بوافر لطفه وعنايته.

ختاماً نتقدّم بجزيل الشكر والتقدير إلى كلّ من ساهم في إخراج هذا الكتاب، ونخصّ بالذكر فضيلة الشيخ المحقّق لؤي المنصوري الذي قام بمراجعة هذا الكتاب وتصحيحه ومراجعة كافة استخراجات مصادره، والحمد لله ربّ العالمين .

محمّد الحسّون
مركز الأبحاث العقائدية
٢٢ ربيع الآخر ١٤٢٨هـ
الصفحة على الانترنت: WWW.aqaed.com
البريد الالكتروني: infoaqaed.com

ترجمة المؤلّف

ولد الأخ محمّد الرصافي المقداد في ٢٣ / ٨ / ١٩٥٣م في فطناسة ولاية قَبلى بدولة تونس، وترعرع في أُسرة ملتزمة تعتنق المذهب المالكي.

يقول الأخ محمّد الرصافي حول التعليم الذي تلقّاه منذ الصغر: أدخلني والدي في كتاتيب القرآن، فحفظت منه ما أمكنني حفظه، ثُمّ التحقت بالتعليم الحكومي، مواصلاً دراستي إلاّ أنّني ولعوامل عدة انقطعت عنها دون الحصول على شهادة ختم الدروس الثانوية، ولعلّ أهمّ تلك العوامل انصراف كُلّ اهتمامي بالعربية والتي كنت متفوّقاً فيها مُنذ الصف الابتدائي، فما تَركتُ لبقية المواد التي كانت تدرّس بالفرنسية شيئاً، وكنت دائم المطالعة ومنها حصلتُ على ثقافة عامّة لا بأس بها.

بداية اندفاعه للبحث عن التشيّع :

يقول الأخ محمّد حول بلورة النواة الأُولى التي دفعته للتعرّف والبحث عن مذهب أهل البيت عليهم السلام: بدأت قصة استبصاري عندما انتقلت عام ١٩٨٠م من شمال تونس وبالتحديد من مدينة "بنزرت" - حيث لا يزال والديّ وإخوتي - هناك، إلى مدينة قابس، للعمل في شركة للصناعات المعدنية . وكنت أعلم قبل ذلك أنّ ابن عمٍّ لي يُدعى الشيخ (مبارك بعداش)، يقطن منطقة سيدي أبي لبابة بنفس المدينة، فكان ذلك مدعاة لي بأن آنس بنقلي إليها وأتأقلم مع أجوائها.

ويضيف الأخ محمّد: وكان الشيخ (مبارك بعداش) أحد المؤسسين لحركة الاتجاه الإسلامي، أي إنّه كان سنّياً متعصّباً، لكنّني لمّا زرته بعد استقراري لاحظت انخفاض تعصّبه عمّا كان عليه، فأيقنت أنّ الشيخ قد طرأ على تفكيره تغيير، فاقتربت ذات يوم من مجلسه مسلّماً عليه، فرأيت بين يديه كتابين، الأوّل: كتاب (المراجعات) للسيّد عبد الحسين شرف الدين - قدس سره الشريف -، والثاني: كتاب (فضائل أمير المؤمنين عليه السلام) للشيخ المظفر - طيّب الله ثراه -، فالتفتُ إليه بعد أن ردّ عليّ السلام واستفسرت منه الأمر، فذكر لي أنّه في رحلته إلى مدينة قفصة وهو في طريق بحثه عن الحق بعد الخلاف الذي حصل له مع جماعة النهضة، التقى بالدكتور محمّد التيجاني السماوي، وتباحث معه حول مذهب أهل البيت عليهم السلام، ودارت بينهما عدّة مناقشاتٍ من دون أن تسفر عن اقتناع الشيخ التامّ بمذهب أهل البيت عليهم السلام، ثُمّ ذكَرَ أنّ الدكتور التيجاني زوّدهُ بهذين الكتابين.

دراسة كتاب المراجعات:

من هذا المنطلق أحبَّ الأخ محمّد أن يشارك الشيخ مبارك بعداش في بحثه، لأنّه وَجد أنّ هذه الفرصة ثمينة للوصول إلى القناعات العقائدية المزودة بالأدلّة والبراهين، فأعلن استعداده للشيخ لمشاركته في البحث من أجل التعرّف على أُصول عقيدة الإسلام النقيّة من كُلّ درن.

ويضيف الأخ محمّد: كان الشيخ آنذاك محاصراً من قبل جماعة حركة الاتجاه الإسلامي، وكانوا قد روّجوا عنه جملة من دعايات مغرضة وأقاويل لا ترقى إلى الحقيقة بشيء، فاستطعت بفضل الله تعالى كسر ذلك الطوق عنه

باستقدام عدد من الأُخوة إليه فعقدنا جلسات للبحث، ولاسيّما من أجل تسليط الأضواء على كتاب المراجعات.

ثمرة البحث في نهاية المطاف:

يقول الأخ محمّد: راجعنا بعد ذلك المصادر المنصوص عليها في كتاب المراجعات، فتأكّدنا أنّ صاحبه ينطِق صدقاً وعدلاً، غير متحيّز ولا متحرّف، وأنّ ديدنه الحقّ وكشف مواطن الصدق، وتبيّن لنا أنّ إقرار الشيخ سليم البشري على أحقيّة أهل البيت عليهم السلام ليس إلاّ دليلاً على قوّة البراهين التي أوردها السيد شرف الدين، فأصغت لذلك أفئدتنا وعقولنا، وانغرست باكورة أفكاره في وجداننا، وانصاعت إليه طباعنا، ومن هذا المنطلق قرّرنا جميعاً الالتحاق بمذهب أهل البيت عليهم السلام، وبالفعل أعلنا ذلك أمام الجميع.

تحمّل مسؤولية الدعوة:

يقول الأخ محمّد: انهالت علينا الأسئلة والاستفسارات من كُلّ حدبٍ وصوب، وكان الجميع يرغب في التعرّف على الأسباب التي دفعتنا لتبنّي فكر مذهب أهل البيت عليهم السلام، فكنّا نُجيب على الأسئلة التي نواجهها حسب معلوماتنا، وكنّا نُعاني من قلّة الكتب، فكانت إجابتنا بسيطة ومقتصرة على المعلومات التي اختزنتها عقولنا.

ثُمّ سافرت بعد ذلك إلى معرض الكتاب في دورته الثانية عام ١٩٨١، فاشتريت منه كتاب الغدير للشيخ الأميني - رضوان الله تعالى عليه -، ثُمّ واصلت جلساتي مع الشيخ مبارك، فكان ذلك دافعاً إلى المزيد من التعليم والبحث، وبدخول كتاب الغدير في حلقة الدرس توسّعت معارفنا، وقوُيت

حجّتنا، فكان ذلك حافزاً على المزيد من العمل من أجل نشر فكر أهل البيت عليهم السلام.

ويضيف الأخ محمّد: ثُمّ صحبت الشيخ في رحلاته إلى قفصة وغيرها، وبعدها أصبح الشيخ يكلّفني بالسفر للتبليغ أو الاتصال بالأُخوة، وسرعان ما آتى ذلك النشاط أُكُله، وأينعت ثماره، فاستبصر كُلّ مَنْ طهرت سريرته وانطوى مكنونه على بارقة خير، فتشكّلت منهم نواة اقتحمت أسوار الجامعة، وانتشرت دعوتهم في البلاد طُولاً وعرضاً وشمالاً وجنوباً حتّى لم يعد هناك مدينة إلاّ وفيها مؤمنون مستبصرون على منهاج المعصومين عليهم السلام قلباً وقالباً.

المضايقات بعد الاستبصار:

يقول الأخ محمّد حول المصاعب والمضايقات التي واجهها بعد اعتناقه لمذهب أهل البيت عليهم السلام: لم يخلُ طريقي من بعض العراقيل والأشواك، فقد اعتقلت في ٧ أوت ١٩٨٥م وحقّق معي بشأن تشيّعي وأُطلق سراحي بعد ١٤ يوماً، ثُمّ وقع طردي من العمل في ٤ جانفي ١٩٨٦م، ثُمّ اعتقلت مرة أخرى في ٢١ أوت ١٩٨٦ ولم يُطلق سراحي إلاّ في ١٩ سبتمبر من نفس السنة، ثُمّ وقع إعادتي إلى العمل بعد انقلاب السابع من نوفمبر تهدئة للأجواء في البلاد، ثُمّ اعتقلت سنة ١٩٩١م ثلاثة أيّام، تعرّضت خلالها للتعذيب ظلماً وعدواناً، ثُمّ تعرّضت للطرد من عملي هذه المرّة نهائياً سنة ١٩٩٢، ثُمّ اعتقلت سنة ١٩٩٤ خمسة أيّام وأُطلق سراحي.

ففكّرت بعد ذلك بالهجرة إلى جمهورية إيران الإسلامية، لكن القدر حال دون ما أُريد، فصبرت محتسباً، ثُمّ بعد مضي فترة فكّرت في السفر من جديد إلى دولة أُخرى، فقد انقطعت سُبل العيش في بلدي، ولم يعدّ بإمكاني أن

استمر على تلك الوتيرة، مسلوب الحريّة مضيّقاً على لُقمة عيشي، ولا علاج لذلك سوى اللجوء إلى إحدى الدول التي تتوفّر فيها بعض الحرية وإمكان العيش الكريم، كما قال تعالى: ﴿ .. **قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا** .. ﴾[1].

ويضيف الأخ محمّد: اللّهم إنّي نويت الهجرة إليك، فيسّر لي فيما نويت، وسخّر لي ما أنت أعلم به منّي، وافتح عليَّ مِن رحمتك، وبلّغني رضاك، وإجعل ما بقي من عمري خيراً ممّا مضى منه، وهب لي من لدنك ولياً، وهب لي من لدنك نصيراً، برحمتك يا أرحم الراحمين.

هذا الكتاب:

هو عبارة عن عدّة مقالاتٍ، كتبها المؤلّف في أوقاتٍ مختلفة، وبطلب من المركز أعاد النظر فيها وصحّحها، لتخرج في كتاب سمّاه: (بيّنات مِن الهُدى).

وهو يحتوي عدّة مقالات عقائديّة توضّح عقائد الشيعة، وتتبع ما ورد عن أهل بيت العصمة عليهم السلام، ويقارن في بعضها بين ما اعتقده اتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام، وهو الإسلام الحق وبين ما اعتقدته اتباع المذاهبُ الأُخرى التي جمعت بين الغثّ والسمين، وقد رأينا هنا – طلباً للاختصار والانسجام – التعريف بأهمّ ما أوردَه في مقال التوحيد.

أهمية التوحيد في العقيدة الإسلامية:

يبين الكاتب أهميّة التوحيد، فيقول: يمثّل التوحيد في العقيدة الإسلامية

---

(١) النساء: ٩٧.

رأسها ودَعامتها، ومِن دون توحيد سليم قائمٍ على معرفة صحيحة لا يكون البناء العقائدي قويّاً وثابتاً لدى الفرد المسلم، لذلك حثّ المولى سبحانه وتعالى مخلوقاته العاقلة على الأخذ بأسباب العلم لبلوغ الغاية من المعرفة في التوحيد، وفي سائر العقائد الإسلامية الأُخرى، فقال في محكم تنزيله: ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾[1] وقال أيضاً: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَائماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾[2] فالآيتان تشيران إلى أنّ العلم هو الطريق الوحيد، والمسلك الرشيد لبلوغ أركان العقيدة، وأعلى مراتب التوحيد، لذلك لم يجز على كُلّ مسلم أن يكون مقلّداً في التوحيد وفي سائر العقائد، ووجب عليه أن يسلك من أجل تحصيل العلم بذلك سبيل البحث والتأمل، تثبيتاً لدعائم الإيمان وتزكية للفطرة التي فطر الخالق سبحانه وتعالى الناس عليها.

أدلّة التوحيد عند أهل البيت عليهم السلام :

يوضّح الكاتب بعض ما قاله أهل البيت عليهم السلام بشأن التوحيد فيقول:

إنّ المتأمّل في أُمّهات كتب الإماميّة الاثنى عشريّة، يلاحظ اهتماماً بالغاً ما انفك يولّيه أئمّة أهل البيت عليهم السلام لكُلّ ما يتعلّق بالدين؛ عقيدة وشريعة. ولقد جاء من آثارهم ما أظهر تصدّيهم لكُلِّ دخيلةٍ عن الدين أو مارقة منه، حتّى إنّهم كانوا يتحسّسون مواضع الداء قبل استفحاله، ففي يوم الجمل مثلا وقف أمير المؤمنين عليه السلام يرد على رجلٍ من جنده عندما سأله قائلاً: « أتقول: إن الله واحد؟

---

(١) محمّد: ١٩.
(٢) آل عمران: ١٨.

فحمل الناس عليه وقالوا: يا أعرابي، أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسّم القلب؟

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: دعوهُ فإنّ الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم.

قال: يا أعرابي، إنّ القول أنّ الله واحدٌ على أربعة أقسام؛ فوجهان منهما لا يجوزان على الله عزّ وجلّ ووجهان يثبتان فيه.

فأمّا اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل: واحد، يقصد به باب الأعداد، فهذا ما لا يجوز لأنّ ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، أما ترى أنّه كفر من قال: ثالث ثلاثة، وقول القائل: هو واحد مِن الناس يريد به النوع مِن الجنس فهذا ما لا يجوز عليه، لأنّه تشبيه، وجلّ ربّنا عن ذلك وتعالى .

أمّا الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل: هو واحد ليس له في الأشياء شبيه كذلك ربّنا عزّ وجلّ، وقول القائل : إنّه ربّنا عزّ وجلّ، أحدي المعنى، يعني أنّه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم كذلك ربّنا عزّ وجلّ »[١].

ومن هذا النصّ نستشف أنّ أمير المؤمنين سلام الله عليه لم يكن في حُروبه الثلاثة التي أُلجيء إليها مدافعاً عن مركزه كإمام المسلمين أو عن سلطته كولي أمورهم، وإنّما خرج ليدفع عن الدين ما بدا يعتريه من دخيل عليه وغريب عنه، فقوله عليه السلام: « دعوه فإنّ الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم» دليل على أنّ وقائع الجمل وصفين والنهروان كانت كُلّها حروب تصحيحية، مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله.

---

(١) كتاب التوحيد: ٨٣، كتاب الخصال: ٢.

فقيل: مَنْ يا رسول الله؟

فقال: خاصف النعل في الحجرة، وكان علي بن أبي طالب يخصف نعل رسول الله في حِجرته» [1].

ومثلما سلك الإمام عليه السلام في الاستدلال على الخالق والتعريف به، بحيث لا يتطرق إلى أقواله تحريف أو تأويل سلك الأئمة الهداة من بنيه عليهم السلام في الذب عن أركان الدين، كُلّما سنحت لهم بذلك الفرصة، فكانوا على مرّ العصور حماة الدين، ورعاة آثار وتراث الرسول صلى الله عليه وآله، المبلّغ عن ربّ العالمين، بما استودعوه من علوم صحيحة وأفكار متطابقة صريحة، سأقتصر منها - على قلّة المراجع التي بحوزتي - ما طالته يدي من مأثور أقوالهم ومستصفى آرائهم التي هي امتداد من مركز النبوّة، وهدي من نور الإمامة، فهذا أبو عبد الله الحسين بن علي سيد الشهداء عليه السلام يقول في دعائه الشهير في عرفة، الذي أرهفت له آذان السامعين، وتحيّرت له عقول الحاضرين، وهزّ نياط قلوب المؤمنين بما حواه من سبحات القدس، ولواعج الأنس:

« كيف يستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟!

أيكون لغيرك من الظُهُور ما ليس لك حتّى يكون هو المظهر لك؟!

متى غبت حتّى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟!

ومتى بعدت حتّى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟!

عميت عينٌ لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيباً..» [2].

---

(١) مسند أحمد ٣: ٣٣، سنن الترمذي ٥: ٢٩٨، مجمع الزوائد ٥: ١٨٦، صحيح ابن حبان ١٥: ٣٨٥ وغيرها من المصادر .

(٢) بحار الأنوار ٩٥: ٢٢٦ .

قوله عليه السلام : « عميت عين لا تراك ... » إشارة لطيفة إلى بصيرة النفس لا إلى بصر العين ؛ لاستحالة رؤية المولى سبحانه وتعالى بالعين.

وتعدّدت أدلّة الأئمة من أهل بيت النبوة عليهم السلام في إثبات وجود الخالق وبيان معنى صفاته، فجاءت متنوّعة ومتفاوتة المعاني على مقدار عقول السائلين.

جاء رجل إلى الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام فقال له: « دلّني على معبودي.

فقال له: إجلس، وإذا غُلام له صغير وفي كفّه بيضة يلعب بها، فقال عليه السلام: ناولني يا غلام البيضة، فناوله إيّاها فقال: يا ديصاني هذا حصن مكنون، له جلد غليظ، وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق، وتحت الجلد الرقيق ذهبة مائعة، وفضة ذائبة، فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضة الذائبة، ولا الفضة الذائبة تختلط بالذهبة المائعة، فهي على حالها لم يخرج منها خارج مصلح فيُخبر عن صلاحها، ولا دخل فيها داخل مفسد فيخبر عن فسادها، لا يدرى أللذكر خلقت أم للأنثى، تنفلق عن مثل ألوان الطواويس. أترى لها مدبراً؟

قال : فأطرق مليّاً ثُمّ قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله، وإنّك إمام حُجّة من الله على خلقه وأنا تائب ممّا كنت فيه»[1].

وقيل للإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام : « يا بن رسول الله، ما الدليل على حدوث العالم؟ فقال له عليه السلام: إنّك لم تكن ثُمّ كنت، وقد علمت أنّك لم تكوّن نفسك، ولا كوّنك من هو مثلك »[2].

---

(١) أصول الكافي ١: ٨٠.
(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام للشيخ الصدوق ٢: ١٢٢.

وسُئل أمير المؤمنين عليه السلام: « بماذا عرفت ربّك؟ قال : بفسخ العزائم ونقض الهمم، لمّا هممت فحيل بيني وبين همّي، وعزمت فخالف القضاء والقدر عزمي علمت أنّ المدبر غيري» [1].

وعن إثبات الصانع قال عليه السلام: « البعرة تدل على البعير، والروثة تدل على الحمير، وأثر القدم تدلّ على المسير، فهيكل علوي بهذه اللطافة، ومركز سفلي بهذه الكثافة، لا يدلان على اللطيف الخبير» [2].

وتفرّد الأئمة من أهل بيت النبوة عليهم السلام في الاستدلات العقلية والأجوبة المنطقية في التوحيد وغيره من عقيدة الإسلام، مضافاً إلى سبرهم لأغوار الوحي ونيلهم العلوم الإلهيّة ما فاض على اتباعهم معارف وحقائق جعلتهم على بصيرة مِن أمرهم، وجعلت غيرهم من المتنكبين عنهم في حيرة يعبدون الله على حرف أو دونه.

كلام الإمام الرضا عليه السلام في التوحيد:

للإمام عليّ بن موسى الرضا ثامن أئمة أهل البيت عليهم السلام مناظرات واحتجاجات، ودروس ومحاضرات في شتّى العلوم الإلهية، فيها من الأجوبة الشافية والردود الكافية ما قصم به ظهر الباطل وأعاد الحق إلى نصابه، فقد جاء عنه عليه السلام في التوحيد: عن محمّد بن عبد الله الخراساني خادم الرضا عليه السلام قال: « دخل رجل من الزنادقة على الرضا عليه السلام وعنده جماعة فقال لأبي الحسن عليه السلام: أرأيت إن كان القول قولُكم وليس هو كما تقولون ألسنا وإيّاكم شرع سواء، ولا يضرنا ما صلينا وصمنا وزكّينا وأقررنا، فسكت .

---

(١) الخصال : ٣٣، التوحيد : ٢٨٨ .

(٢) روضة الواعظين : ٣١، بحار الأنوار ٣:٥٥ .

فقال أبو الحسن عليه السلام: وإن يكن القول قولنا، وهو قولنا وكما نقول ألستم قد هلكتم ونجونا؟

قال: رحمك الله فأوجدني كيف هو ؟ وأين هو؟

قال: ويلك إنّ الذي ذهبت إليه غلط، وهو أيّن الأين وكان ولا أين، وكيّف الكيف وكان ولا كيف، فلا يعرف بكيفوفيّة ولا بأينونيّة، ولا يدرك بحاسّة ولا يقاس بشيء.

قال الرجل: فإذاً إنّه لا شيء إذا لم يُدرك بحاسّة من الحواس.

فقال أبو الحسن عليه السلام: ويلك لمّا عجزت حواسك عن إدراكه أنكرت ربوبيته، ونحن إذا عجزَت حواسنا عن إدراكه أيقنّا أنّه ربّنا وأنّه شيء بخلاف الأشياء .

قال الرجل: فأخبرني متى كان؟

قال أبو الحسن عليه السلام: فأخبرني متى لم يكن فأخبرك متى كان؟

قال الرجل: فما الدليل عليه؟

قال أبو الحسن: إنّي لمّا نظرت إلى جسدي فلم يمكّني زيادة ولا نقصان في العرض والطول ودفع المكاره عنه وجرّ المنفعة إليه علمت أنّ لهذا البنيان بانياً، فأقررت به مع ما أرى من دوران الفُلك بقدرته، وإنشاء السحاب وتصريف الرياح ومجرى الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من الآيات العجيبات المتقنات ؛ علمت أنّ لهذا مقدّراً ومنشأً .

قال الرجل: فَلِمَ احتجب؟

قال أبو الحسن: إنّ الحجاب على الخلق لكثرة ذنوبهم، فأمّا هو فلا يخفى عليه خافية في أناء الليل والنهار.

قال: فَلِمَ لا تدركه حاسّة الأبصار؟

قال: للفرق بينه وبين خلقه الذين تحركهم حاسّة الأبصار منهم ومن غيرهم، ثُمّ مَن أجلّ مِن أن يدركه بصر أو يحيط به وهم أو يضبطه عقل .

قال: فحدّه لي.

قال: لا حدّ له .

قال: ولِمَ؟

قال: لأنّ كُلّ محدود متناه إلى حدّ، وإذا احتمل التحديد احتمل الزيادة، وإذا احتمل الزيادة احتمل النقصان، فهو غير محدود ولا متزايد، ولا متناقص ولا متجزّئ، ولا متوهم..» [1] إلى آخر الحديث.

حدّثنا علي بن الحسن بن الفضال عن أبيه قال: سألت الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في قوله الله عزّ وجلّ: ﴿ **كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذ لَّمَحْجُوبُونَ** ﴾ [2] فقال: إنّ الله تعالى لا يوصف بمكان يحلّ فيه فيحجب عنه فيه عباده، ولكنّه يعني أنّهم عن ثواب ربّهم محجوبون .

قال : وسألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿ **وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً** ﴾ [3] ؟

فقال: إنّ الله تعالى لا يوصف بالمجيء والذهاب، تعالى عن الانتقال، إنّما عنى بذلك: وجاء أمر ربّك والملك صفّاً صفّاً.

قال: وسألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿ **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ** ﴾ [4].

---

(١) التوحيد : ٢٥٠.
(٢) المطففين: ١٥.
(٣) الفجر : ٢٢
(٤) البقرة : ٢١٠ .

قال: يقول: هل ينظرون إلاّ أن يأتيهم الله بالملائكة في ظُلل من الغمام.

قال: وسألته عن قوله تعالى: ﴿ **سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ** ﴾[1] ، وعن قوله: ﴿ **اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ** ﴾[2]، وعن قوله ﴿ **وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ** ﴾[3]، وعن قوله: ﴿ **يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ** ﴾[4] فقال إن الله تعالى لا يسخر ولا يستهزئ ولا يمكر ولا يخادع ولكنه يجازيهم جزاء السخرية وجزاء الاستهزاء وجزاء المكر والخديعة تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً »[5] .

عن الحسن بن سعيد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿ **يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاق وَ يُدْعَوْنَ إلى السُّجُودِ**﴾[6] قال حجاب من نور يكشف فيقع المؤمنين سجداً. وتدمج أصلاب المنافقين لا يستطيعون السجود »[7].

منها قول القائل: كشفت الحرب عن ساق أي أظهرت نتيجتها.

عن محمّد بن عبيدة قال: سألت الرضا عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ لإبليس: ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾[8] قال عليه السلام: يعني بقدرتي وقوتي»[9].

عن الحسين بن خالد قال: « قلت للرضا عليه السلام: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله إنّ الناس يروون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إنّ الله عزّ وجلّ خلق آدم على صورته؟

فقال: قاتلهم الله لقد حذفوا أوّل الحديث! إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مرّ برجلين

---

(١) التوبة: ٧٩.
(٢) البقرة: ١٥.
(٣) آل عمران: ٥٤ .
(٤) النساء: ١٤٢.
(٥) معاني الأخبار: ١٣.
(٦) القلم: ٤٢.
(٧) التوحيد: ١٥٤.
(٨) ص: ٧٥.
(٩) التوحيد: ١٥٤، بحار الأنوار ٤: ١٠.

يتسابان، فسمع أحدهما يقول لصاحبه: قبّح الله وجهك ووجه من يشبهك.

فقال ﷺ: يا عبد الله لا تقل هذا لأخيك ؛ فإنّ الله عزّ وجلّ خلق آدم على صورته»[1].

فيكون الضمير عائداً على الرجل الذي وقع عليه السبّ.

عن الحسين بن خالد قال قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: « يا ابن رسول الله إنّ قوماً يقولون: لم يزل الله عالماً بعلم، قادراً بقدرة، حياً بحياة، قديماً بقدم، سميعاً بسمع، بصيراً ببصر؟

قال عليه السلام: من قال ذلك ودان به فقد اتّخذ مع الله آلهة أُخرى، وليس من ولايتنا على شيء، ثُمّ قال عليه السلام: لم يزل عزّ وجلّ عليماً قديراً حياً سميعاً بصيراً لذاته، تعالى عمّا يقول المشركون والمشبّهون علواً كبيراً»[2].

التوحيد عند غير أهل البيت عليهم السلام :

لا يمكننا إظهار صحّة ما نحن عليه من توحيد سليم إلاّ بعرض ما يعتقده غيرنا من المسلمين. فنقول: أمّا المنحرفون عن ولاية الأئمة من أهل البيت عليهم السلام فقد ذهبت بهم مذاهبهم إلى تبنّي معتقدات أساسها الكذب على الله تعالى وعلى رسوله الأكرم ﷺ، بما ابتدعه لهم علماؤهم وفقهاؤهم، وما زكاه حكامهم لهم من أباطيل، لو ثابوا إلى رشدهم منها لبكوا على ما فرطوا في جنب الله تعالى، ولضحكوا على تفاهة عقول مبتدعيها ومنتحليها، وأيّ بناء لا يكون أساسه سليماً مآله السقوط. والعقيدة التي اختلط فيها الغثّ بالسمين

---

(١) التوحيد : ١٥٣، عيون أخبار الرضا عليه السلام للشيخ الصدوق ٢ : ١١٠.

(٢) التوحيد : ١٤٠، روضة الواعظين : ٣٧ .

والسقيم بالسليم لا يمكن أن تفرز بُعداً غيبياً وتواصلاً إلهيّاً، وهي أقرب إلى الجهالة منها إلى المعرفة. وإلى النفرة منها إلى الحب.

والمتتبع لجملة الأحاديث التي أوردها هؤلاء في إثبات جسمانية الخالق وتفاصيل أجزائه وجلوسه ونزوله وتنكره وضحكه ورؤية المؤمنين له يوم القيامة يلاحظ إصراراً غريباً من حفاظهم على نقل تلك المفتريات المتعارضة مع القرآن، ومع غيرها من الروايات والتي لا يقبلها عقل سليم لم يصب بلوثة التجسيم والرؤية.

ثُمّ تراهم يحثّون اتباعهم على التديّن بها حثّاً، ويحرّمون عليهم معارضتها أو حتّى مجرّد التشكيك في مدى صحّتها، فلم ينشأ بينهم غير التعصب الأعمى والتدين الأعرج، وتولدّت فيهم جراء تلك الروايات الفاسدة عقيدة عقيمة وتوحيد أقرب للوثنية وآلهة الإغريق القدامى منه إلى توحيد الحق تعالى، وحلّت الخرافة في الدين محل العلوم الإلهيّة، والقصاصون محل العلماء، حتّى عجت كتبهم بها، ومع ذلك لا يتحرجّون ولا يتأثّمون منها طالما أنّهم يعتقدونها من أقوال رسول الله ﷺ وبما إنّني أتحدث عن مقام واحدً منها فتعرضت لذكر ما هو متعلّق بالتوحيد فقط، على أن يكون لكلِّ بابٍ من بقيتها مقام ومقال:

أخرج البخاري ومسلم وغيرهم من حفاظ العامة ما يلي:

١ - عن صهيب عن النبيّ ﷺ قال: « إذا أُدخل أهل الجنة الجنّة يقول الله تبارك وتعالى تريدون شيئاً أزيدكم؟

فيقولون : ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنّا من النار؟

قال فيكشف الحجاب فما أُعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عزّ وجلّ»[1].

٢ – عن أبي هريرة أخبر أنّ أُناساً قالوا لرسول الله ﷺ: « يا رسول الله، هل نرى ربّنا يوم القيامة؟

فقال رسول الله ﷺ : هل تضّارون في رؤية القمر ليلة البدر؟

قالوا: لا يا رسول الله.

قال: هل تضّارون في الشمس ليس دونها سحاب؟

قالوا: لا يا رسول الله.

قال: فإنّكم ترونه كذلك »[2].

٣ – عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « يد الله ملآى لا يغيضها نفقةُ سحّاء الليل والنهار .

وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خلَق اللهُ السماواتِ والأرضَ فإنّه لم يغضِ ما في يده.

وقال: وعرشه على الماء وبيده الأُخرى الميزان يخفض ويرفع»[3].

٤ – عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: « يتنزّل ربّنا تبارك وتعالى كُلّ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الأخير من الليل فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فاغفر له؟»[4].

---

(١) صحيح مسلم ١: ١١٢، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربّهم سبحانه وتعالى .

(٢) صحيح مسلم ١: ١١٤، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربّهم سبحانه وتعالى .

(٣) صحيح البخاري ٥: ٢١٣، كتاب التفسير، تفسير سورة هود .

(٤) صحيح البخاري ٧: ١٤٩، كتاب الدعاء، باب الدعاء نصف الليل .

٥ - في حديث طويل عن ابن مسعود جاء فيه: « قالوا: ممّ تضحك يا رسول الله؟

قال: من ضحك ربِّ العالمين »[١] .

٦ - وعن جابر بن عبد الله في حديث طويل: « ثُمّ يأتي ربّنا بعد ذلك فيقول: من تنتظرون ؟ فيقولون: ننتظر ربّنا .

فيقول: أنا ربّكم.

فيقولون: حتّى ننظر إليك، فيتجلّى لهم يضحك .

قال: فينطلق بهم ويتبعونه »[٢] .

٧ - عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: « خلق الله عزّ وجلّ آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً...» [٣] .

هذه الروايات وغيرها تؤيد الرأي العام المتداول عند تلك الطائفة في أنّ الخالق - تعالى عن ذلك - جسماً وجعلوا له صفات وقالوا بأنّها غير ذاته، وأنّ له أعضاء كاليدين، والوجه، والعينين، والرجل، وأنّه ينزل، ويأتي، ويضحك، ويتنكّر إلى غير ذلك من السفسطات والسخافات.

توحيد الأدعياء:

قد سلك الجاحدون للإمامة الشرعية والمنحرفون عن الأئمة الهداة عليهم وعلى جدّهم أزكى السلام وأفضل الصلاة وهم: الوهابيّة اتباع محمّد بن عبد الوهاب، فقد سلكوا مسلك أحمد بن تيميّة وتلميذه ابن القيم واتباعهم حينما

---

(١) صحيح مسلم ١: ١٢٠، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنّة منزلة .
(٢) صحيح مسلم ١: ١٢٢، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنّة منزلة.
(٣) صحيح البخاري ٧: ١٢٥، كتاب الاستئذان، باب بدء السلام .

إدّعـوا بـأنّهم هـم الموحـدون حقـاً وغيـرهم مـن المـسلمين مـشركون، وأنّ توحيدهم لله هو التوحيد الصحيح الذي تنبني عليه عقيدة الإسلام، والمتصفح لكتـبهم ككتـاب التوحيـد لابـن عبـد الوهـاب، والعقيـدة الحمويّـة والواسـطيّة وغيرها - وهي رسائل لابن تيميّة - يقف على مدى بطلان عقيدتهم، وفساد رأيهـم، وتفاهـة عقـولهم، فـإنّ الـذي يثبـت لله تعـالى جهـة الفـوق والنـزول، والمجيء، والقرب، والوجه، واليدين، والأصابع، والعينين، بمعانيها الحقيقية دون تأويل، مختل الاعتقاد وفاسد التوحيد.

ولـم يقفـوا عنـد ذلـك الحدِّ في تطاولهم السخيف، بـل راحـوا يستنكرون ويشنعون على كُلِّ من قال بتنزيه المولى عن كُلّ نقص، ولم تكن إرهاصاتهم ولا شطحاتهم تلك وليدة استنتاج علمي أو بحث فكري، حتّى تصنف في دائرة الاجتهاد، وإنّما هو دليل يخرج به كُلّ ذي بصيرة بعد إطلاعه عليها يعبّر عـن سـطحيّة وضـحالة علـوم كُـلّ مـن تبنّـى عقيـدة هـؤلاء الـذين أطلـق علـيهم طواغيـت العـصور الغـابرة (أهـل الـسنّة والجماعـة) وهـم للبدعـة أقـرب وأولـى بالتسمية.

فعن أيّ سنّة يتحدثون؟

إن كانت سنّة رسول الله ﷺ فأهل بيته الذين أذهب عنهم المولى سبحانه وتعالى الرجس وطهّرهم تطهيراً، وقرنهم جدّهم بالكتاب العزيز أولى عقلاً ونقلاً. وسيرهم تنبّئك عن حالهم، ولو ردّ هؤلاء إليهم ما التبس من دينهم لوجدوا عندهم ما يُشفي صدورهم ويجعلهم على بصيرة من أمرهم، وإن كانت سنّة أُخرى كالذي أدخله بنو أُميّة في الدين فإنّها لا تغني عن الحق شيئاً.

طريقان لا ثالث لهما:

يوجه الكاتب خطابه إلى المسلمين، فيقول:

أخي المسلم لا شكّ أنّ الدين قد مرّ قبل وصوله إلينا بقنوات مشبوهة كان لها أثر كبير في تحريف ما وصل إلينا منه، وقد تضررت عقيدة السواد الأعظم من المسلمين بما علق بها من أكاذيب وتآويل خاطئة، وقد حان الوقت لنستأصلها ونُعيد الحق إلى نصابه، والدرّ إلى معدنه بالعود إلى المستحفظين على كتاب الله والناطقين عنه وثقله، كما أحالنا رسول الله ﷺ من قبل بقوله: «تركت فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً ؛ كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[1] .

والمعتصم بهم آمن من الزيغ والانحراف بمنئا التناحر والاختلاف، محفوظاً في كنف المولى من الانصراف إلى أئمة النار، وحزب الشرّ والأشرار، اتباع الشيطان وأوليائه، من الدعاة إلى التعبد بالشكّ والظنّ.

والآن ليس أمامك غير طريقين لا ثالث لهما فإمّا أن تعبد الله الحق، إله الأنبياء والمرسلين .. إله محمّد وآله الطاهرين الذي لا يتجزّأ، ولا يتحيّز، ليس كمثله شيء، ولا يُرى في الدنيا والآخرة، ذو الصفات التي لا تُحصى وهي عين ذاته المقدّسة، أو أن تعبد هذا الذي يعرضه عليك هؤلاء والذي هو على صورة آدم، وإن قالوا بلا كيف فقد كيّفوا نتيجة انصرافهم عن آل طه

---

(١) الحديث من الأحاديث الصحيحة والثابتة عند الشيعة والسنّة، ويمكن الرجوع إليه في المصادر التالية: مسند أحمد ٣: ١٤ و ١٧ و ٢٦ و ٥٩، سنن الترمذي ٥: ٣٢٨، مجمع الزوائد ٩: ١٦٣ و ١٦٥، كتاب السنّة: ٣٣٧، سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤: ٣٥٥.

وانحرافهم عن الراسخين في العلم.

نسأل الله تعالى ختاماً أن يلزمنا كلمة التقوى، ولا يحيد بنا عن صراطه المستقيم، ولا يباعد بيننا وبين أوليائه الذين أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، ويهدي أُمّة الإسلام بالرجوع إليهم بعد قرون التيه والضياع، إنّه سميع مجيب والحمد لله ربّ العالمين.

قسم المستبصرين
في مركز الأبحاث العقائدية

الإهداء

إلى كُلّ مسلم أسكن في لبّه وازع الخير، فتذكّر فإذا هو مبصر ﴿ **وَما يَذَّكَّرُ إلاَّ أُولُوا الألبابِ** ﴾[1].

إلى كُلّ من ضمَّ بين جوانحه المضغة الصالحة التي تألف الخير وتسكن إليه، والتي أشار إليها النبيّ ﷺ بقوله: « ألا وإنّ في الجسد لمضغة، إن صَلُحت صلح الجسد كُلّه، وإن فسدت فسد الجسد كله»[2].

إلى كُلّ أولئك الذين تملكتهم أحاسيس الرحمة، وأخذت بمجامع قلوبهم مشاعر اللطف، فانبروا إلى خالقهم مجردين من ملكات الاستكبار، ودواعي التطاول على الحضرة القدسية، يريدون وجهه وركنه وعروته وحبله المتين.

إلى الذين لم يشربوا عباداتهم بترانيم النفس الأمّارة بالسوء، ولم يقترفوا وهم في سعيهم نحو المعرفة سيئة الاستعلاء، قد وطّنوا أنفسهم في طريق الهجرة إلى الله، على محاربة النفس لا محاربة الناس، وفاضت أرواحهم على الناس خدمة وتواضعاً.

إلى الذين نسوا أنفسهم في جنب الله، وحسبوا له حساباً ولم يحسبوا لها حساباً، فقرّبهم وأدناهم وباركهم.

---

(١) البقرة: ٢٦٩.

(٢) بحار الأنوار ٥٨: ٢٣، صحيح البخاري ١: ١٩، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه.

إلى عشّاق الحقوق المهضومة، والمتيّمون بحبّ المستضعفين.

إلى أعداء الاستكبار أينما كان وحيثما كان، وكيفما كان.

إلى الذين ﴿ **إذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإذا هُمْ مُبْصِرُونَ** ﴾[1].

إلى كُلّ الذين أدبّوا أنفسهم قبل تأديب غيرهم، وجهّزوا أمتعتهم لسفر طويل وشاق لا مفرّ منه، وهم يحملون على أكفّ الضراعة الثقة التامة بالله تعالى.

إلى كُلّ الذين لم تراودهم عقلية التطاول على الخلق، والوصاية على الدين.

إليكم جميعاً إخوتي وأخواتي في الله تعالى، أضع بين أيدي الجميع هذه البيّنات، لعلّها تكون أثراً موصلاً إلى الهداية، ودافعاً قوياً للبحث عن سبيل الولاية؛ لأنّه السبيل الوحيد والصراط الرشيد، لإدراك حقيقة الدين كما أُنزل على النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

أملي الأخير في أن تعي الشعوب الإسلاميّة ما يحاك ضدّها، ويعمل من أجل بقائها مشتتة ضعيفة، وأن تعمل بواسطة طلائعها المؤمنة، من أجل يوم تكون فيه كلمة واحدة، وأُمّة واحدة، وحكومة إلهية واحدة، ولن يكون ذلك إلاّ بالبحث عن تفاصيل هذا الدين العظيم، وسط ركام كبير اختلط فيه الحابل بالنابل، والغثّ بالسمين، والسقيم بالسليم، والله ولي التوفيق.

---

(١) الأعراف: ٢٠١.

تقديم

تشكو المجتمعات الإسلامية عموماً من نقيصة سيّئة ظلّت ترافقها منذ زمن طويل، وهي شدّة اهتمامها بالمحسوسات، وإهمالها للغيبيات، وبمعنى أدقّ انجذابها للدنيا وتباعدها عن دينها.

ففي أكثر نواحي حياة أفرادها نجدهم يولون اهتماماً مفرطاً إلى البهرج والزينة، يتحسسون فيهما أنجح الصفقات، وأقوم المكسب، وأجود المتاع، وألذ المأكل، قد يقضي هؤلاء أكثر أوقاتهم من أجل تحصيل شيء زائل، وفي كسب مطلب لا يستحق كُلّ ذلك الجهد والاهتمام والوقت، لكنّك إذا التفت إلى علاقاتهم بدينهم وأسباب بلوغ رضوان الله تعالى في الآخرة، لا تجد منهم نفس الاهتمام والرغبة واللهفة والجهد، بل لا تكاد تجد شيئاً من ذلك كلّه عند أكثر أفراد الأمة، ولا دليل أسوقه هنا أوضح من انصراف أكثر الصحابة عن رسول الله ﷺ وهو يخطب في صلاة الجمعة، ليجتمعوا بدحية الكلبي وما أتى به معه من تجارة.

ولئن عبّرت تلك الحادثة عن سطحية عقيدة المنفضين عن الله تعالى، إلاّ أنّها في نفس الوقت أشارت إلى أنّ الدنيا يبقى لها أثر لا ينمحي من أكثر النفوس حتى ولو كانت متصلة بأفضل الأنبياء والمرسلين ﷺ.

ويبقى عامل الدنيا هو المؤثر في عموم الناس، ولكن يمكن تغييره ليكون في صالح الدين ... .

وهي قلة المطالعة، وانصراف همّة أفرادها عن تحصيل المعلومة، إلى

درجة الاتكال على الغير في أخذها وتلقّفها.

وهذه الظاهرة ليست وليدة العصر الحديث بقدر ما هي قديمة قدم مؤسسيها من القصاصين والوعّاظ والرواة من اليهود، قرّبتهم الأنظمة آنذاك، ووسعت لهم في مجالسهم؛ ككعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام، الذين وجدوا أمامهم مجالاً لتمرير أفكارهم المسمومة وعقائدهم المحرّفة، ولولا حزب النفاق الذي كان المؤسس الأوّل لوظيفة القاصّ لما كان لهؤلاء وجود داخل منظومتنا الخاتمة، ولا كان لهم أثر سلبي على جانب من الروايات التي تمسّ بجوهر الدين وعقيدته، وكان الوضع الاجتماعي والعلمي للأُمّة في ذلك الوقت دافعاً إلى تلك النتيجة، بحكم قلّة الكتب، وانعدام توفّرها، وتعسّر وصول طالبي العلم إليها، لأنّها نسخ معدودة بعدد أصحابها، الأمر الذي أوجد في أفراد الأُمّة عقليّة التواكل، والعزوف عن تحصيل المعلومة لضنين مواردها، وفسح المجال من جهة أُخرى إلى الطغاة والظالمين ليمرروا سياساتهم الهدّامة، وأفكارهم المريضة إلى عقول الأمة بعناوين إسلامية.

وعوض أن يتفطن الناس إلى ما دُبّر لهم من تضليل وتجهيل إلتفّوا حول أولئك الذين اشتروا آخرتهم بدنيا زائلة لا محالة، فأعطوهم نوافذ عقولهم وأفئدتهم، وأصغوا إليهم بجوارحهم إصغاء الأبله المريض، بينما كان القصاصون من الجهة المقابلة يدسّون السمّ في الدسم، وينشرون ما يقوي الظالمين، ويشدّ أزر سلطانهم، فلم ينتبه إلى الحق إلاّ القليل، ومضي الأمر على ذلك النسق زمناً طويلاً، تربّت فيه الأجيال على ثقافة مشوشة بالكذب والبهتان والزور، وجاء عصر التدوين، فكتب حق وباطل، وأثبت بعد ذلك، ثُمّ وصف

بالصحة، ونودي عليه بالسلامة والنقاوة، وسُمّي سنّة نبويّة، ولو علم الناس انقطاعه عن زمن النبيّ ﷺ لما أخذوه وعملوا به.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أستحضر مقالة للإمام علي عليه السلام، تحدّث فيها عن أصناف رواة السنّة النبويّة المطهّرة، استكمالاً للفائدة المرجوّة من وراء ذلك إذ يقول عليه السلام:

«إنّ في أيدي الناس حقاً وباطلاً، وصدقاً وكذباً، وناسخاً ومنسوخاً، وعاماً وخاصاً، ومحكماً ومتشابهاً، وحفظاً ووهماً، ولقد كُذب على رسول الله ﷺ على عهده حتى قام خطيباً فقال: من كذّب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، وإنّما أتاك بالحديث أربعة رجال ليس لهم خامس:

رجل منافق مظهر للإيمان، متصنع بالإسلام، لا يتأثّم ولا يتحرّج، يكذّب على رسول الله ﷺ متعمداً، فلو علم الناس أنّه منافق كاذب، لم يقبلوا منه ولم يصدقوا قوله، ولكنهم قالوا صاحب رسول الله ﷺ، سمع منه ولقف عنه، فيأخذون بقوله، وقد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبرك، ووصفهم بما وصفهم به لك، ثُمّ بقوا بعده – عليه وآله السلام – ، فتقربوا إلى أئمّة الضلالة، والدعاة إلى النار بالزور والبهتان، فولوهم الأعمال، وجعلوهم حكاماً على رقاب الناس، وأكلوا بهم الدنيا، وإنّما الناس مع الملوك والدنيا إلاّ من عصم الله، فهو أحد الأربعة.

ورجل سمع من رسول الله ﷺ شيئاً لم يحفظه على وجهه فوهم فيه، ولم يتعمّد كذباً فهو في يديه يرويه ويعمل به ويقول: أنا سمعته من رسول الله ﷺ، فلو علم المسلمون أنّه وهم فيه لم يقبلوا منه، ولو علم هو أنّه كذلك لرفضه.

ورجل ثالث سمع من رسول الله ﷺ شيئاً يأمر به، ثُمّ نهى عنه وهو لا يعلم،

أو سمعه ينهى عن شيء ثُمّ أمر به وهو لا يعلم، فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ، فلو علم أنّه منسوخ لرفضه، ولو علم الناس إذ سمعوه أنّه منسوخ لرفضوه.

وآخر رابع لم يكذب على الله ولا على رسوله، مبغض للكذب خوفاً من الله، وتعظيماً لرسول الله ﷺ ولم يهم، بل حَفظ ما سمع على وجهه، فجاء به على ما سمعه، لم يزد فيه ولم ينقص منه، فحفظ الناسخ فعمل به، وحفظ المنسوخ فجنب عنه، وعرف الخاصّ والعامّ، فوضع كُلّ شيء موضعه، وعرف المتشابه ومحكمه...» (1)

لقد كان للعامل السياسي في تفشي ظاهرة الكذب في دين الله تعالى الأثر الأكبر، مضافاً إلى ذلك الإجراء الظالم في منع تدوين الأحاديث النبوية، والذي استمر أكثر من قرن ونيف، حتى إجازة التدوين - التي صدرت من عمر بن عبد العزيز، وبوشر العمل بها بعده - كانت مقيدة ومخصوصة، بحيث لم تشمل جميع من له صلة بالرواية والفقه، وإنّما تعلّق الأمر بالمقرّبين من البلاط الأموي، بينما أُقصي غيرهم باعتبارهم مناوئين للسلطة.

وإذا نحن استعرضنا من جانب آخر تشجيع الأمويين - وعلى رأسهم مؤسّس سلطانهم معاوية بن أبي سفيان الطليق - بعض الصحابة كأبي هريرة، والمغيرة بن شعبة، وسمرة بن جندب، وعمرو بن العاص، وإغرائهم بالأموال والأعمال، للكذب على رسول الله ﷺ، في عصر ما زال التدوين فيه بعيداً عن الحصول؛ تكونت لدينا فكرة ثابتة وصحيحة، عن الظروف والأوضاع التي مرّت بها السنّة النبوية التي هي بين أيدينا الآن، أخصّ بالذكر منها ما هو متعلق

---

(1) شرح نهج البلاغة للشيخ محمّد عبده 2: 188-190.

بما يُسمّى بـ(الصحاح) والمسانيد، وبقية الكتب الروائية عند بني مذهبي الذين كنت منهم.

وعلى ذلك حصل لدينا يقين بأنّ الله تعالى الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض لا يمكنه أن لا يكون إلاّ حكيماً دائماً، ومكمّلاً دائماً، ومتمّاً دائماً ومحسنا دائماً، فقد جعل لمسألة حفظ دينه بعد النبيّ ﷺ، مستحفظاً يذب عنه تحريف الضالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وهو الإمام المبين، ومن عنده علم الكتاب، باب مدينة علم الرسول ﷺ والهادي إلى سبيل الله تعالى من بعده، وثقل القرآن وعدله، الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي لو تأمّلت سيرته، بما فيها من تضحيات في سبيل الحق، وبذل للمهجة من أجل إعلاء كلمة الله تعالى ونوره المبين، وتتبعت كلامه الذي قال عنه جهابذة اللغة وأرباب البلاغة: «إنّه دون كلام الله تعالى وفوق كلام البشر»، واستقصيت دعاءه الذي لم يشهد له الناقلون مثيلاً من حيث العمق المعنوي، والقوّة البلاغيّة، والتناسق الفكري، والبناء العقائدي، ونظرت إلى من كان حوله من أصحابه واتباعه، والتفت إلى من ناوءه وظلَمه وحارَبه وهضم حقه؛ تأكّدت أنّ الحق أبلج كالنور، وأعلى كالقمم الشماء، فليس بعد الحق إلاّ الضلال المبين.

إنّ الإسلام دين خاتم جاء ليصحح ما حرّف من رسالات سابقة، وليقوّم اعوجاج مسار البشريّة، ويوجهها جميعاً إلى التوحيد الخالص الذي لا شرك فيه، وأعني بذلك فصل الدين عن الحياة، واعتبار أنّ الدين شيء والسياسة شيء آخر.

لقد شرّع المولى تعالى دينه الخاتم ليشكل به خلاصة الرسالات السابقة،

فهو مجموعة من الأحكام التي تتعلّق بعلاقة الفرد مع خالقه ومع غيره من البشر والكائنات، وهذه المنظومة تحتاج لاستمرارها إلى أداة تنفيذ وحفظ تكون من جنس التشريع، والقول بغير هذا كلام غير مبني على أساس، ولا يستند على دليل منطقي.

نقطة الخلاف الأساسي بين المسلمين اليوم - بصرف النظر عن بعض الخلافات في التوحيد والنبوة - هي نظام الحكم في الإسلام، علينا أن نبحث بما توفّر لدينا من نصوص عن أصحاب الرأي الأصح، والحجة الأقوى؛ لنكون معهم يداً واحدة بها يتجدّد الدين، ويقوم أساسه الأول وهو (الإمامة).

عليك أيّها المسلم الرشيد أن تعيد حساباتك جيداً، وتبحث بين ذلك الركام الذي وصلنا عبر قرون طويلة، استطال فيها الظلم والبغي، حتى أصبح ديناً يتعبّد به الناس، فتخير سبيل الرشاد، وانظر لنفسك من ستقدم، يوم يدعو الله تعالى كُلّ أناس بإمامهم، وأسأل الله تعالى العون على ذلك، مخلصاً له في كُلّ حركة تقوم بها، وتأكد أنّه لن يتركك سدى.

على طريق الهدى

نشأت في عائلة متديّنة ومحافظة على هويتها رغم محاولات المسخ التي أضفيت على المجتمعات العربية تحت عناوين متعددة، وكان والدي - أبقاه الله تعالى، ومتعه بالصحة والعافية، وثبته على منهاج الحق الذي هداه الله تعالى إليه - مالكي المذهب، حريصاً على أن تتأصّل كُلّ تلك المفاهيم في شخصيتي وتتشبّع بها روحي، فتتشكل كما كان يصبو إليه إنساناً مستقيماً، ومؤمناً صادقاً في كنف المولى تعالى وعلى عينه عزّ وجلّ، لتقرّ بي عينه.

إلاّ أنّني، وإنّ لم أتمكن من تحقيق مبتغاه في أن يكون لي مركز مرموق عند الناس، وفي مجتمع لا يعترف إلاّ بالمناصب والشهادات، دون الالتفات إلى القيم والثوابت التي لا غنىً للبشرية عنها، وهي إن نزعت منها، أو تباعدت عنها، فإنّها مناطة في كُلّ الأحوال بها، لا يستقيم شيء بدونها، لأنّها المقياس الحقيقي، والمجس الذي لا يكذب، والبذرة التي تعطي خيراً.

إلاّ أنّني وفيت حقي لديه، وبلغت أمله في أن أكون رجلاً بالمعنى الإنساني للكلمة، في عصرٍ بدأ فيه النوع ينقرض، وغدا البحث عن المُثل الذي تجسدّ في شخصي غير مجد في كثير من الأحوال.

كانت أمي - أبقاها الله تعالى - المدرسة الأولى التي نحتت شخصيتي وأعطتني من مثالها أخلاقاً وحناناً وعطفاً وحساً مرهفاً، رضعته من ثديها، وتلقفته أذناي من كلماتها الحكيمة، في حين كان والدي - دام ظله - المرشد

والـولي الـذي كـان يحـوطني باهتمـام بـالغ، وكنـت فـوق ذلـك كُلّـه مـأخوذاً بشخصه، محتمياً بظله، مستشعراً منه مثال الرجل الشجاع، ونموذج الإنسان الأبـيّ الـذي لا تغيـره الخطـوب، ولا تـؤثر فيـه سـلباً هـزائم المجتمـع وخيباتـه، استنسخت من شخصيته الشجاعة والكرم والإباء، وكان الركن الأكثر إضاءة بالنسبة لي في حياته الكريمة، يوم حمل يافعاً السلاح من أجل استقلال البلاد، فقدّم نفسه فداء للوطن، ولم ينتظر من أحد أن يرشده إلى ذلك أو أن يشكره على ما قدّم، فكنت والحق يقال فخوراً به إلى درجة الإفراط.

كان دائب الاهتمام بشعائره، وكان يحثّني على الطهارة والصلاة منذ أن بدأت أعي، وقبل أن أبلغ سنّ التكليف، فانطبعت تلك القيم والمفاهيم في نفسي، وكان لها الأثر الأكبر على هدايتي فيما بعد.

وفوق ذلك كنت متميزاً بحضور الذهن، وسرعة البديهة، ورهف الحس. كانـت أوقـات فراغـي دائمـاً مقسّمة بـين مطالعـة كتـاب، أو تأمّـل طبيعـة، أو استماع موسيقى، أو ممارسة رياضة، وكانت صحبتي لأقراني مبنيّة على ذلك الأساس.

كما كنت مجبولاً على التلقائية والتطوّع لخدمة الناس، ومنذ أن بدأت ألقف من والديّ كان الظلم بالنسبة لي عدواً بغيضاً، معتبراً أنّ السكوت على الظالمين جريمة كبرى.

لست من الذين يلقون الورود على أنفسهم، لكنّني في هذه الحال ناقل لانطباع كُلّ من عرفني عن قرب، فأحمد الله تعالى على كُلّ ذلك.

أذكر أنّه كانت تستهويني صورة معبرة عن الإمام علي عليه السلام وهو يقاتل عمرو بن ودّ الباهلي، في بيت أحد رفاق المدرسة الابتدائية، فكنت أقف

أمامها مراراً وتكراراً، حتى ترسّخت في عقلي وروحي من خلال حصص المشاهدة تلك، ودون إدراك ولا تفسير واضح يعلل وقوفي في كُلّ مرّة أمام تلك الصورة، فانطبعت محبّة ذلك الرجل في نفسي، بحيث لم يبق في قلبي ووجداني ذكر وحبّ لغير الأصول الثلاثة التي عليها مدار الدين كُلّه عقيدة وشريعة وهي: توحيد الله تعالى، والإقرار بنبوة خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ مع الإقرار بإمامة أمير المؤمنين وسيد الوصيين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وإن كنت في سنٍ لا تسمح لي بالتمييز فإنّ فطرتي كانت بالنقاوة والصفاء المطلوبين لانطباع تلك الأصول في داخلي، وهو ما فسّر لي فيما بعد تلقائية تقبلي لخط أهل البيت عليهم السلام، واستيعابي السريع لمنظومتهم التي هي أصل الإسلام وروحه وجوهره.

ولمّا كبرت قرأت في التاريخ الإسلامي كُلّ الأحداث والوقائع بالرواية المذهبية المميّعة للقضيّة، والمحذّرة من مغبّة تناولها، فلم ألتفت إلى حقيقة أهل البيت عليهم السلام إلاّ عندما انتصرت الثورة الإسلامية في إيران، على يد ملهمها آية الله العظمى سيدي ومولاي روح الله الموسوي الخميني - قدس الله تعالى سره وطيب ثراه - ، ذلك الرجل الذي دوّخ العالم وحيّره، وجاء بالإسلام ليجعله طريقة وأسلوب حكم، ونظرية ولاية فقيه مثلى لقيادة الأمّة، وحلّ لجميع مشاكل البشرية، جاء الإمام بالإسلام من جديد ووضعه على بساط الفعل وموقع التأثير، تصديقا لقول رسول الله ﷺ: « لو كان العلم متعلّقا بالثريا لتناوله رجال من فارس »[1]. كان شغله الشاغل عودة الدين القيّم إلى فاعليّته

---

(١) قرب الإسناد للحميري: ١١٠، بحار الأنوار ٣٠: ٢٢٤، وغيرها من المصادر الشيعية والسنيّة.

وشموليّته وعالميّته، كان خطابه موجهاً إلى جميع الناس، مختزلاً الثقافة الثورية الجديدة، ومبيناً معاني الاستضعاف والاستكبار، وموضحاً لحقائق الأحكام ومعاني الحكم في الإسلام العظيم، فكنت مشدوداً إليه، مأخوذاً إلى شخصه، بحيث جاءت صورته الحاضرة لتلتصق بصورة الإمام علي عليه السلام التي كنت شاهدتها في صغري وانطبعت في ذاكرتي.

تساءلت يوم رأيت أول مرة صورة الإمام القائد - قدس سره الشريف -: أيمكن أن يكون رجل بهذه الملامح، وذلك السرّ، وتلك الشخصيّة، وذلك النور في هذا العصر الذي كِدنا نفقد فيه كُلّ أمل في الرجولة ومثلها العليا؟

في يومها كنت منتسباً إلى حركة الاتجاه الإسلامي، معتقداً بأنّ الإسلام لا بدّ أن يقود الحياة رغم أُنوف من يأبى ذلك، وحملت على عاتقي مسؤولية الظهور بمظهر الاستقامة، وتمثيل الأخلاق والمبادئ الإسلامية تمثيلاً صحيحاً وصادقاً، فموضعي من المجتمع لا يحتمل التواني، ولا إعطاء الانطباع المعاكس والسيئ لتجربة ما تزال في بداياتها، وتبحث لها في المجتمع عن موقع صلب لا تزحزحه الخطوب.

أولى مقارناتي جاءت من صورة الإمام الراحل تساءلت عن ذلك المحيا الملكوتي: لماذا لا يوجد لدينا ما يشبهه في مجتمعاتنا السنيّة، والحال أنّ تسميتنا بالسنّة معناها أنّنا أقرب إلى النبيّ صلى الله عليه وآله من غيرنا؟

وتعجّبت من العمامة السوداء التي وضعها الإمام على رأسه وطريقة لفها، وقلت في نفسي: لماذا لبس ذلك الرجل الوقور عمامة سوداء؟ ولماذا لفّها بذلك الشكل على خلاف علماء أهل السنّة والجماعة؟

ألا يكون اللون الأبيض أقرب للدين من غيره من الألوان؟

لماذا يخيم الحزن على ملامح هؤلاء؟

وفهمت بعدها أنّ النبيّ ﷺ كانت له عمامة سوداء، وكان يلبسها في حروبه وأسفاره، اسمها (السحاب)، أعطاها لأخيه بالمؤاخاتين الإمام علي بن أبي طالب، فلم تفارقه حتى استشهد، وتوارثت ذريته الطاهرة ذلك الرمز الذي به يعرف علماؤهم إلى العصر الحاضر.

محيا الإمام الخميني قدس سره أخذ مجامع قلبي، وشدّني إلى ذلك الرجل الذي غيّر التاريخ، وطوّع دوران عجلته إلى حيث إرادة قائد وشعب ترسخت فيهم تقاليد العشق الإلهي، فكان الدافع الخفي نحو البحث في تفاصيل الثورة وأصولها، وزانهم حب وولاء أهل البيت عليهم السلام، فاكتملت شخصيّة المؤمن عندهم، وخطت ملامحها حقيقة التوحيد والولاية.

وباعتباري أنتمي إلى مجتمع سنّي منغلق على نفسه، شديد الحساسيّة في مقاربة غيره، موالياً منذ نشأته للحكام بمختلف تصانيفهم؛ لأنّ تلك المذاهب جاءت بتزكية وتثبيت منه، والتاريخ يشهد على ذلك، فقد كانت الأخبار التي تروج على الإمام الراحل وثورته والجمهورية الإسلاميّة في إيران زائفة في معظمها، موجهة من طرف الاستكبار العالمي الذي تقوده أمريكا المهزومة والمجروحة، بعد هزيمة عميلها الشاه، واقتحام وكر التجسس في طهران من قبل شباب الثورة، التواق إلى لقاء الله تعالى بلا أدنى خوف أو وجل من أيّ كان، وتفاقم الأمر عند العدوان البعثي الصدامي التكريتي - عليهم لعائن الله جميعاً - بحيث أصبح المرء يواجه تركيبة من الأبواق الدعائية الكاذبة لتغطية العدوان، والإعفاء عن الجريمة النكراء التي تقترف ضدّ الإسلام والشعب الإيراني المسلم الذي لبّى نداء الإمام في أن ينخرط في التجربة الإسلامية

الجديدة، وتحت غطاء القومية العربية كانت صحافتنا وأخص بالذكر منها الشروق والصباح اللتين كانتا من النافخين في صورة صدام وعصابته المجرمة إلى أن أصبح بطلاً عند العامّة في شمال أفريقيا.

كيف لا! وهو الذي ضرب الكيان الصهيوني في عقر داره!! لم يدر في خلدهم وقتها وقد أسكرتهم نشوة تلك التمثيلية المفضوحة أن الصواريخ التي أطلقها صدام لم تكن تحتوى على أية حشوة، وأن اتفاقاً كان يقضي بحفظ ماء وجهه من الهزيمة التي تلقاها فيما بعد، ودعماً للكيان الغاصب للقدس بالأموال التي اتفق على أن تعطيها العراق من عائداتها النفطية، وإلاّ إن كان هناك عدل وإنصاف، لماذا لم يطبل هؤلاء المهرجون لانتصار الثلّة المؤمنة من حزب الله في جنوب لبنان البطل على كيان مازال يدوّخ أكثر من عشرين دولة عربية؟

من أجل ذلك الخيار وقف الجميع ضد الإمام الراحل والثورة الفتية، وحوربت بكل الأشكال التي يتصورها عاقل، حتى ذوي الميولات الإسلامية، وأصحاب الأفكار التي تعتمد طرح الدين كبديل لإنقاذ المجتمعات الإسلامية من التفسخ وفقدان الهوية، سقطوا في فخّ الدعاية، ووقفوا موقفاً سلبياً من الإمام والثورة على اعتبارها طائفية لا تلبي طموحاتهم، ولا تستوعب ما عداها من أفكار إسلامية.

في ذلك الإطار أذكر أنّه قد نشر مقال صغير عن الثورة الإسلامية تحت عنوان: « الرسول ينتخب إيران للقيادة » على صفحات مجلة المعرفة التابعة لحركة الاتجاه الإسلامي في تونس .

أثار فيه صاحبه بأنّ الثورة بقياداتها وتفاصيلها هي من نبوءات القرآن الكريم، وتوضيحات النبيّ الأكرم ﷺ، فقد اعترف كاتب المقال السنّي

المذهب بما أخرجه المفسّرون والحفّاظ من أسباب نزول الآية التي في سورة الجمعة وهي قوله تعالى: (وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[1]. عندما أخرج أنّ النبيّ ﷺ سُئل عن الذين لما يلحقوا بهم؟ فقال مشيراً إلى سلمان الفارسي: « هم من قوم هذا والله لو كان الدين في الثريا لأنزله رجال من فارس»[2] .

غير أنّ توجه التأييد والاعتراف بإسلامية الثورة تقلّص سريعاً تحت ضربات الاستكبار، وتزايد نفوذ داء الوهابيّة الذي استغلته أمريكا لقضاء مأربين:

الأوّل: جندت ما أمكنها تجنيده من المسلمين التواقين إلى الجهاد والشهادة من عرب إفريقيا والشرق الأوسط من ذوي الأصول الأشعرية، على يدي أسامة بن لادن في بيشاور الباكستانية، وفي مكتبه الذي كان يستقبل الوافدين عليه، على الحدود الأفغانية في محاولة لهزم الاتحاد السوفييتي الغازي لأفغانستان، لحماية نظام حكم نجيب الله اليساري الموالي للمعسكر الشرقي، أثناء الحرب الباردة بين المعسكرين الغربي بقيادة أمريكا، والشرقي بقيادة السوفييت.

والثاني: لمّا تأكّدت نخب الحركة من التوجّه الفكري للثورة الإسلامية في إيران سارعت إلى الوقوف على رابية أبي هريرة، بل فيها من باشر محاربة الثورة وركوب ظهر الدعاية المغرضة ضدّها.

---

(١) الجمعة: ٣.

(٢) زاد المسير لابن القيّم ٧: ١٥٧، جامع البيان للطبري ٢٦: ٨٦، الدر المنثور للسيوطي ٦: ٦٧، تفسير الآلوسي ٢٦: ٢، فتح القدير للشوكاني ٥: ٤٣، تفسير ابن أبي حاتم الرازي: ٣٢٩٩.

لقد كان لانتقالي من مدينة بنزرت - حيث يقطن إلى الآن والداي وإخوتي - إلى مدينة قابس للعمل بأحد مصانعها، الأثر الأكبر في استبصاري ومعرفتي لطريق الحق، وهي السفرة التي غيّرت مجرى حياتي، وجعلت منّي إنساناً مفكراً وباحثاً عن الحقيقة في البداية وكاتباً لما وقفت عليه من قناعات بعد ذلك.

وصلت إلى مدينة قابس فوجدت ابن عمي الشيخ مبارك بعداش في وضع لا يحسد عليه، بعد الخلاف الذي دبّ بينه وبين حركة الاتجاه الإسلامي والتي عرفت فيما بعد بحركة النهضة، وكان أحد مؤسسيها وقائداً من قياداتها، محاصراً في منطقته بشتى الدعايات التي حيكت ضدّه لتنفير الناس منه، فكان عليَّ أن أسعى بما أمكنني إلى فكّ ذلك الحصار من جهة، والدفاع عنه برد الدعايات على أصحابها من جهة أُخرى.

كنت أذهب إليه بعد العصر وفي المساء، بعد ما ألفت جلساته ومسامراته، حتى أصبحت لا أطيق فراقه والابتعاد عن مجلسه.

في أحد الأيام جئت إليه فوجدت بين يديه كتابين، سألته عنهما؟ فقال لي: إنّهما جاءاه من طريق شخص ألحّ على أن يقرأهما، ويبدي رأيه في محتواهما، لم يخف الشيخ عدم تحمّسه للفكرة، لكنّه كان في النهاية مقتنعاً بأنّه لا بدّ من الاطلاع على تصورات وأفكار وعقائد فريق من المسلمين، ظلّت طروحاته مغيّبة قرون طويلة بدافع عصبية الأطراف المقابلة.

الكتاب الأول هو: كتاب (المراجعات) للسيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي، والثاني هو: كتاب (دلائل الصدق) للشيخ المظفر طيّب الله ثراهما. فاستحسنت الفكرة، سيّما وشغفي بالمطالعة لازال يلازمني كظلّي، واتّفقت مع الشيخ أن نبدأ بكتاب المراجعات، فاستأذنته في أن آتي معي ببعض الأصدقاء،

ممّن يروم جلسات الحوار وتبادل الأفكار والنقاش العلمي في المسائل التي لها علاقة بالدين.

ومن الغد جئت ومعي مرافقان، وبدأ المجلس الأول بالمراجعة الأولى، ثُمّ الثانية، ثُمّ الثالثة حسمت بالنسبة لي مسألة الاتباع والأحقية، باعتبار أنّه لا دليل على رجحان المذاهب في مقابل خط الإسلام الصحيح الذي يمثله أهل البيت عليهم السلام، لا من حيث تقليد الناس لهم؛ لتأخره عن القرون الثلاثة الأولى التي عاش فيها أئمة أهل البيت عليهم السلام، ودلّ أخذ مالك وأبا حنيفة العلوم عن الإمامين (محمّد بن علي بن الحسين بن أبي طالب الملقب بباقر العلوم وابنه الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليهما السلام)، على أنّ الناس كان توجههم إلى الأئمة الهداة بلا فصل، ممّا دفع بالأنظمة الحاكمة في رقاب المسلمين ظلماً وعدواناً إلى اتخاذ إجراءات النفي والسجن في خصوص الأئمة عليهم السلام واتباعهم.

وإن كنّا قد ثبّتنا النصوص الخاصّة التي جاءت في الأئمة الهداة عليهم السلام فإنّ النصوص العامّة التي تحدّثت عن انقسام الأمة، والنصّ الذي قال فيه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تزال طائفة من أُمتي ظاهرين على الحقّ لا يضرّهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله»[1]. واضح الدلالة على أنّ الطائفة هي: (شيعة محمّد وآله الأطهار صلى الله عليهم)، لأنّه لم يثبت في غيرها حقيقة الإسلام الصافي النقي، وجلاء النصوص، وتميّز الخط بالعلم والحياة، والتضحية والفداء، والتقوى، بينما لم تأت بقية الخطوط بغير التنازع والاختلاف، ولم تقدّم عن الإسلام صورة واضحة ونظيفة .

---

(١) صحيح مسلم ٦: ٥٣، كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وآله وسلم: لا تزال طائفة من أُمّتي، المستدرك للحاكم ٤: ٤٤٩، السنن الكبرى للبيهقي ٩: ٢٢٦، فتح الباري لابن حجر العسقلاني ١٣: ٧٤، وغيرها من المصادر الأُخرى الكثيرة .

وتوالت الجلسات والمراجعات إلى أن حصلت لدي قناعة بأنّ الحقّ لا يمكنه أن يحيد عن أهل بيت النبيّ ﷺ؛ لما توفر من نصوص حاسمة وواضحة وجلية لمن ألقي السمع وهو شهيد .

ولم يمرّ عليَّ يوم وتطوي الظلمة فيه سدولها إلاّ وقد ازددت يقيناً بأحقية هؤلاء الأطهار في قيادة الأمّة الإسلاميّة، وتحقيقاً للنصوص التي كان السيّد المجاهد عبد الحسين شرف الدين الموسوي يقدّمها للشيخ سليم البشري، شيخ جامع الأزهر في ذلك الوقت، كنت أعود إلى مراجعة تلك الأحاديث بما توفّر لديّ من مراجع كفتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني وجامع الأحاديث لمسلم النيسابوري، وزيادة للاطمئنان كنت أذهب إلى المكتبة العامّة بالمدينة عند فقد المراجع التي لا توجد عند الشيخ مبارك.

ولعلّ هذا أبلغ ما يمكن أن يحتج به: أن يأتي صاحب الاحتجاج بحجته من كتب الطرف الآخر، ولا أرى من وصلته الحجة فبقي في مستنقعه إلاّ لئيماً خبيثاً أو جاهلاً لا يعي شيئاً.

ومن خلال قراءتنا للمراجعات كانت تتوارد علينا من حين لآخر أسئلة واستنتاجات على هامش الموضوع المتناول، ففي السيرة مثلاً وبعد النظر في أبوابها تبيّن لنا أنّ هناك سياسة متبعة في تدوين السيرة، تعتمد على تجاهل الأحداث المتصلة بأهل البيت عليهم السلام، وإن مرّ حافظ منهم على شيء من ذلك فمرور الكرام، وإلاّ لماذا يقع تجاهل مبيت الإمام علي عليه السلام على فراش النبيّ ﷺ؟ ولا يُعطى المسألة حقّها الذي تستحق، بينما تقرع طبول التضخيم لصاحب الغار؟!

ولماذا تعفى هجرة علي عليه السلام بالفواطم كأنّما الحادثة في منتهى البساطة، والحال أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مكث في قبا ثلاثة أيام ولم يدخل يثرب؟

ولماذا تعفى علاقة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بعلي عليه السلام قبل البعثة وأثناء البعثة، وطيلة عمره الشريف، فلا نقرأ غير جاء النبيّ ومعه أبو بكر وعمر، والحقيقة غير ذلك تماماً، لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ليس له وزير ولا أخ ولا صاحب لم تتغير علاقته به إلى أن مات غير علي عليه السلام.

لماذا تمرّ بطولات علي عليه السلام وأعماله العظيمة للإسلام من الباب الصغير، بينما تبنى الصروح لأوهام ما كان لها أن تجد طريقاً إلى الكتب الإسلامية لولا سياسة المكر والدهاء التي مورست على المسلمين دهراً طويلاً.

لا زلت أستشعر تلك الفرحة التي تملكتني، وأنا أقف على أعتاب علي وفاطمة - عليهما الصلاة والسلام - مدفوعاً بوصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التي قال فيها: « إنّي تارك فيكم ما إن تمسّكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً؛ كتاب الله وعترتي أهل بيتي»[1]. لا الحديث المحرَّف الذي كان مالكاً أوّل ناقليه:

---

(١) حديث الثقلين من الأحاديث الصحيحة، بل المتواترة التي اتفقت عليها الأمّة الإسلامية جمعاء، وقد ورد بصيغ وألفاظ مختلفة، وإن كانت النتيجة التي يحملها في خياته واحدة وهي: اتباع الكتاب وأهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، والذين حددهم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بحديث الكساء والاثنى عشر، وارجع لحديث الثقلين في المصادر التالية: صحيح مسلم ٧: ١٢٣، كتاب الفضائل، باب فضائل علي رضي الله عنه، السنن الكبرى للبيهقي ٢: ١٤٨ و ٧: ٣١، مجمع الزوائد للهيثمي ٥: ٢٢٠، صحيح الجامع الصغير للألباني ١: ٤٨٥، مسند أحمد ١٦: ٢٨ تحقيق أحمد حمزة الزين، المستدرك للحاكم ٣: ١٠٩ وقال: »هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يحرجاه بطوله ، البداية والنهاية لابن كثير ٥: ٢٢٨، وقال: »قال شيخنا أبو عبد الله الذهبي صحيح ، سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ٤: ٣٥٧، وقد ذكر الكتب والمصادر التي أوردت الحديث وصححته.

« كتاب الله وسنّتي »[1]، لأنّ الخلاف ليس في السنّة وإنّما فيمن ينقل عنه، ولعل عدم اطمئنان مالك لصحّة سنده جعله ينقله بلاغاً. وقوله ﷺ أيضا: « إنّما مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق»[2]. بحيث لم يترك هذا المثل الذي ضربه النبيّ ﷺ على ذي وجهة وجهته، فالحالة التي وصفها النبيّ ﷺ والتي ألمّت بالأمة هي طوفان كطوفان نوح، وحيث لا جبل يعصم من الماء غير سفينة أهل البيت عليهم السلام، فمن ركب السفينة فقد نجا من الغرق في متلاطم الفتن، وغياهب التحريف والضلالة، ومن أحجم عن الركوب ذهبت به مذاهبه في أبحر الغي والجهل كما يقول الشافعي.

يومها فقط فهمت أنّ السنّة التي هي بيان لكتاب الله تعالى لا يمكن أن تترك للناس يفعلون بها ما يشاؤون، وفهمت أنّ الإمامة ليست حكراً على الصلاة فقط، بل إنّ منصبها جسيم وخطير؛ لأنّها في الحقيقة تجسيد للدين، ومثال حي لكل ما جاء به الرسول ﷺ، وحاجة الناس على اختلاف عقولهم وتباين أفئدتهم في أن يكون لهم مثال ونموذج يهتدون به ويقتدون بشخصه.

لم يكن للوقت الذي نقضيه في جلساتنا وزن ولا قيمة، طالما أنّه يحمل إلينا في كُلّ جلسة هدياً جديداً وعلماً حقيقياً لا غبار عليه ولا تزوير فيه، كانت كُلّ النصوص التي استدل بها السيد صاحب (المراجعات) من كتبنا ومن صحاحنا، فلم نستطع ردّها، ولا أمكن مجارات التستر على مضامينها، على طريقة سدّ عين الشمس بالغربال المعتمدة عند وعاظ السلاطين الذين

---

(١) راجع ميزان الاعتدال للذهبي ٢: ٣٠٢.

(٢) فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٢: ٧٨٥، المصنّف لابن أبي شيبة ٧: ٥٠٣، استجلاب ارتقاء الغرف للسخاوي ٢: ٤٨٤.

نهلنا من مائهم الآسن دهراً، فلم نجن منهم غير الخيبة والبعد عن الله تعالى، واتباع مسالك الظلم والظالمين الذين عملوا طويلاً في منظومتنا الإسلامية تحت مظلة التسامح وغطاء الطاعة العمياء، ولكن هيهات أن يستمر مسلك الشيطان في غواية من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

حتى أشباه المشايخ والعلماء الذين كان يقصدهم البعض تثبيتاً لما وصل إليه من أدلة عقلية ونقلية، لم يكن في حوزتهم ما يدرؤون به عن مذاهبهم، ولا تركوا انطباعاً حسناً لمن قصد مجالسهم، وأذكر في هذا الخصوص أنّ إمام مسجد الصحابي أبي لبابة الأنصاري بمدينة قابس كان يلقي درساً بعد صلاة المغرب حتى صلاة العشاء (ساعة ونصف بين الصلاتين) في الفقه، سأله أحد الحاضرين عن الذين يمسحون أرجلهم في الوضوء، فثارت ثائرة الرجل، وتوعد من الغد أنّ يأتي بالدليل على أن حكم الرجلين هو الغسل في الوضوء.

لم أكن حاضراً ذلك اليوم، لكنّني علمت عشيّة اليوم التالي من الشيخ مبارك الذي أعطاني الجزء الأول من كتاب فقه الإمام جعفر الصادق عليه السلام للشيخ محمّد جواد مغنية، وطلب منّي أن أذهب لحضور الدرس ومناقشة إمام الجمعة بخصوص حكم الأرجل في الوضوء، دفاعاً عن الحق، وتقوية لوضع الإخوة المستبصرين الجدد، فما كان منّي إلاّ أن قصدت المسجد المذكور، فصلّيت فيه المغرب، وجلست أنتظر قدوم الإمام، لم يدم انتظاري طويلاً إذ جاء الرجل يحمل قفة من الكتب، وما أن وصل إلى المكان الذي يلقي منه درسه حتى وضع القفة وجلس، ثُمّ انطلق يقرأ حكم غسل الرجلين من كتب التفسير التي جاء بها معه في القفة، كان يردّد بعد كُلّ كتاب تناوله: هذا ما قاله الطبري في تفسيره، هذا ما قاله الرازي في تفسيره، هذا ما قاله القرطبي في

تفسيره، هذا ما قاله ابن كثير في تفسيره...

وما إن انتهى الرجل من استعراضه للحجج القائلة بالغسل، رفعت يدي طلباً للكلام، حتى انبرى قائلاً: أقم الصلاة، فصلّيت وراءه مع من صلّى، ولمّا فرغنا من الصلاة والتعقيب، تقدمت إليه وهو يستعد للخروج، ولا مفرّ له من أن يستمع إليّ وهو محاط بكوكبة من المصلّين، فقدمت له الكتاب، فلم يتمالك من التأخر خطوة إلى الوراء قائلاً: أنا مكتف بما عندي.

فقلت له: سبحان الله، إنّ الذي قدّمته لك كتاب فقه لإمام من أئمة أهل البيت عليهم السلام أقرّ له الجميع بالفضل والأعلمية، ودرس من درس على يديه علوم الدين، منهم الإمام مالك بن أنس صاحب مذهبك وأبو حنيفة وغيرهم مما لا يتسع المقام لذكرهم.

ولما أصرّ الرجل على موقفه وامتنع من تناول الكتاب حضرني سؤال على البداهة فقلت: أتسمح لي بسؤال؟

فقال: تفضل.

فقلت له: باعتبار أنّ مذهبكم والذي كنت منتمياً إليه يجوز المسح على الخفين والجوارب حال السفر، فهل يجوز لي أن أمسح على القفاز في إحدى يدي؟

لم يكن إمام المسجد ينتظر سؤالاً كالذي ألقيته عليه، لذلك لم يتمالك من القول بأنّه لا يدري ما يقوله لي.

فقلت له: أنا أقول لك إنّه لا يجوز؛ لأنّ حكم اليدين هو الغسل، فلا يمكن مسحهما، وجوز فقهاءك المسح على الحائل في الرجلين باعتبار أنّ الحكم الأصلي هو المسح لا الغسل، كما إنّني ألومك - أيّها الشيخ - لأنّك لم تقرأ

للناس أقوال العلماء بخصوص مسح الرجلين في الوضوء من نفس الكتب التي قرأت منها.

تحرّج الرجل من كلامي فأنهى الحوار الغير متكافئ بقوله: إن كنت مقتنعاً بالمسح فإمسح.

وكان ردّي قاسياً ودون إرادة منّي: لست محتاجاً إلى تزكيتك ورأيك حتى أستمر في منهجي التعبدي .

ليلتها خرجت من المسجد وأنا في قمة الرضا وفي تمام اليقين بأنّ الإسلام الحقّ ليس له مكان ولا وجهة غير البيت الذي أذهب الله تعالى عنه الرجس وطهّره تطهيراً.

إمام من أئمة أهل السنّة في المنطقة يكتم الحقّ ويتستر على أقوال من أجل نصرة الرأي الذي تبناه طيلة حياته، كأنّما يرفض الإذعان للحق، وقد عرف الرجل فيما بعد بموالاته للوهابية، ذلك لأنّ ابن عمّه الدكتور كان من الذين تفسحوا في الحجاز وجمعوا البيترودولار ما شاء لهم أن يجمعوا.

وأذكر أيضاً أنّ أحد أقارب الرجل قد اقتنع بأحقية أهل البيت في إمامة الأمة، فأراد أن يكشف جزءاً من الحقيقة للإمام والمسألة التي أثارها هي رزية الخميس، مستدلاً بها من البخاري، فاستنجد الإمام بالدكتور ابن عمّه، وكانت المفاجئة في أنّ الدكتور أنكر وجود الرواية في البخاري (في الحقيقة أخرج البخاري أكثر من طريق لتلك الحادثة الأليمة).

ولمّا قدم إليه المحتج البخاري وقرأ الرواية لم يتمالك من القول: وأنت أصبحت منهم؟

وانطلقت مع الشيخ في حملة دعوية رغم قلّة الكتب والمصادر، وبإمكاناتنا

الخاصّة وبعون الله تعالى انتشر التشيع في ربوع تونس من الشمال إلى الجنوب بعد أن كان محصوراً في مدينة قفصة فقط، وبين عدد لم يتجاوز العشرة أفراد .

لمّا التقيت بهم مع الشيخ مبارك في بيت أحد الفضلاء – حفظه الله تعالى ورعاه – وفي فترة وجيزة تمكنّا من إيصال التشيّع إلى الجامعة، ومنها انطلق يحشد الموالين للحقّ وأهله، لم يكن لنا التأثير الذي تركته الثورة الإسلامية المباركة في إيران، فكلّنا كان يحتمي بإشعاعها ويقدمها على أنّها العنوان المادي الذي يؤكّد صحّة الدعوى التي أطلقناها، كما كان حزب الله في لبنان وانتصار ثلّته المؤمنة على العدو الصهيوني، وقناة المنار الفضائية وقناة سحر معها، المادة التي بها توسع التشيع في تونس، ذلك أنّ الناس ملت الوعود الفارغة، وسئمت من أصحاب المنابر الجوفاء، بحيث لم يعد لهم متسع من الوقت ليستغرقوا في أحلام لا يسفر ليلها عن صبح الحقيقة وبلوغ الغاية التي يصبو إليها كُلّ مسلم غيور على دينه، فرأى المتكلّمون منهم والمتحيرون ومن بداخلهم حمية لا تطفأ على الدين وأهله أنّ النموذج الحقّ والمثال الصادق حل بأفقهم، فبادروا إلى الإقرار به، والالتزام بمنظومته، والسعي قدر الإمكان إلى نشره بين المسلمين ولم يبق لنا من عمل، غير التوجيه والإرشاد والإجابة على بعض الإشكالات التي كانت تطرح من حين لآخر هنا وهناك.

لم تجد قيادات حركة النهضة بداً من محاربة ذلك المد العقلاني في صفوف المتدينين في تونس، فسعت بما توصّلت إليه من إمداد وهابي إلى محاربة تلك الظاهرة الفتية، فروّج قياداتها كتاب الثورة البائسة لموسى الموسوي وكتب إحسان الهي ظهير (الشيعة والقرآن) وغيرها من الإصدارات

التي لا تحمل بين طياتها غير السراب والكذب والبهتان والدعاية المغرضة، ورغم أنّ كُلّ تلك الإصدارات قد وقع الردّ عليها من طرف العلماء الأجلاء - رضوان الله تعالى عليهم - ولم تكن بحوزتنا، فقد كنّا متيقنين من ثبات موقفنا وسلامة طريقنا، لأنّه طريق الطاهرين من آل محمّد - صلى الله عليهم جميعاً - ، فلم تحرّكنا تلك الشطحات، بل زادت من عزيمتنا في المضي قدماً من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه من أفراد هذه الأمة المستخف بها.

وجاءت كلمة زعيم حركة النهضة إجابة على سؤال طرح عليه بخصوص ظاهرة التشيع في تونس فقال: لقد أعلمنا السلطة بحقيقة الشيعة، ولا بدّ من التصدي لهذه الظاهرة، لأنّه ليس لها مكان في شمال أفريقيا!

والكلام مسجل على الرجل في شريط منذ أن نطق به .

لقد كان يرى أنّ الشيعة والتشيّع قد قضي عليهما في مجازر جماعية في أواسط القرن الخامس على يدي من أسموهم بقادة حركة الإصلاح وزعماء الاعتدال، وما هم في الحقيقة غير عصابة من المجرمين المنفذين لرغائب أعداء الله تعالى، وقتلة الأنفس المحترمة بغير وجه حق، وعليه فلا عودة للتشيّع بعد الإبادة .

كأنّما يريد القول بأنّ تلك الظاهرة قد ماتت ولفتها بطون كتب التاريخ بدون ذكر ولا إشارة إلى خطورة ذلك الجرم المقترف في حقّ أصحاب رأي هم أحرار في النهاية بتبنيه والاعتقاد به، وعليه فإنّ عودة التشيّع من جديد إلى هذه الربوع يعتبر شذوذاً يجب التصدّي له، فدعا الرجل إلى قمع الفكرة من وضع القمع الذي هو مسلط عليه، فهل في ذلك عقل وتعقّل؟

أمّا تصوّره بأن التشيّع لن ينجح في تونس، باعتباره حالة غريبة عن تقاليد

البلاد، مقايساً صعوبة نقل السنّي المالكي من التقليد الأعمى المنغلق إلى الانفتاح على الأفكار ومجاراة العصر، فالحاصل الآن يفند قراءته، ويؤكد أنّ الفكرة الصائبة تنمو في كُلّ مكان حتى لو كان جدباً.

أمّا ادعاؤه بأنّ عقائد الشيعة فاسدة، فإنّ الكلام ليس كلامه وإنّما هو متبع في ذلك لأقوال من سبقوه كابن تيمية وابن الجوزية. آثر إتيان البيوت من ظهورها، فضل وأضلّ.

لم تكن مسألة الإمامة التي عليها مدار الخلاف الجوهري بين الفريقين لتحجب عنا بقية العقائد وخصوصاً التوحيد والنبوة، فكان كتاب دلائل الصدق الموسوعة التي أعطتنا التصور الصحيح لمعاني التوحيد، بعيداً عن شرك بقية الفرق في اعتقاد أنّ صفات الله تعالى هي غير ذاته، وتجسيم المولى بالادعاء عليه بأنّ له أعضاء وجوارح، ونزوله إلى السماء الدنيا، ووضع رجليه في النار، ورؤيته يوم القيامة، والاعتقاد بقدم القرآن .. وغير ذلك من الشطحات التي لا تقف على دليل سليم.

كما في نبوة النبيّ الأكرم ﷺ خلاف، فمن ينتسبون لسنته يعتقدون بعدم عصمته في ما عدا الوحي، بينما يعتقد أئمّة أهل البيت عليهم السلام ومن ورائهم شيعتهم بعصمة النبيّ ﷺ مطلقاً ودون تخصيص، ذلك أنّ حياة المصطفى كلّها تشريع ووحي، وهي بالتالي محكومة بملكة العصمة التي لا مناص منها لتحقيق الثقة والتسليم لدى الناس في تلقيهم من النبيّ ﷺ.

أذكر كذلك في بداية تشيعنا أننا وفي إطار حملتنا الدعوية قد فتحنا باب الحوار والنقاش مع كُلّ الشرائح الإسلامية المتواجدة على الساحة الداخلية، غير أنّ أطرف ما يمكن ذكره هنا أنّ أحد قيادات حركة النهضة قد استنجد

بأحد عناصر حزب التحرير لمواجهتنا وإفحامنا، وقد كنّا ناقشنا قبل ذلك قياداته، أذكر منهم: الأستاذ (محمّد سعيد) الذي كان منغلقاً جداً على كتابات شيخه تقي الدين النبهاني، أعطيناه كتاب الغدير للشيخ الأميني فلم يقرأه، وإن بحث فيه فعن سابق نيّة بعدم قبول شيء منه؛ لأنّه بعد ذلك جاء ليستنكر وجود نجمة سداسية بين صدر وعجز الأبيات الشعرية في الكتاب، ولسان حاله يردد أنّ اليهود يقفون وراء هذه الكتب!!

فقلت له هذا ما وجدت من عيب في الكتاب، وهو ممّا لا يعاب عليه الكاتب! ثُمّ إنّ النجمة الخماسية والسداسية والسباعية والثمانية وغيرها أشكال هندسية لا علاقة لها بالعقيدة، وإن نسبت السداسية للنبي داود عليه السلام فليس فيها ما يعيب كاتباً ولا كتاباً ولا مطبعة.

كانت المناظرات مع ذلك الرجل رتيبة ثقيلة، لأنّه لم يترك لنا مجالاً لمقارعة الحجّة بالحجّة، والدليل بالدليل، والبرهان بالبرهان، ليس لديه غير ما قاله النبهاني، حتّى أنّه تجرّأ ورد حديث الغدير واعتبره موضوعاً وأنّ الحادثة من اختلاق الشيعة، لأنّ علياً عليه السلام كان باليمن ولم يلحق بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى الحج!!

وهو من خلال كلامه ذلك ناقل لما كتبه النبهاني في كتابه (الشخصية الإسلامية)، باب (الشرع لم يعين خليفة).

وكانت إجابتنا أن أصحاب السير والتاريخ كُلّهم قد أجمعوا على وقوع الحادثة وصدور الحديث من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وموافاة علي عليه السلام للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في حجّة الوداع، وحجّه لتلك الحجّة قارناً كحجّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بينما حج بقيّة الناس حج تمتع، وذلك القرآن يفيد معانٍ عدّة منها: أنّ النبوة والإمامة مقامين مقدسين في الأمّة يجب وضعهما موضع الطاعة المطلقة والولاء الذي لا

يخالطه شك في ارتباطهما ببعضهما من حيث التكليف الإلهي المتمثل في الحفظ والتطبيق.

ولما جابهنا الأستاذ بحجج حضور علي عليه السلام لحجّة الوداع، وظهر كذب النبهاني، تظاهر بتسجيل تلك المعلومة، لمزيد البحث ولا أراه فعل ذلك.

وقد وجدت في إحدى المكتبات المحسوبة على حركة النهضة بمدينة قابس عدداً من الكتب التي تتهجّم على التشيّع وعلى الثورة الإسلامية في إيران، فما كان منّي إلاّ أن توجّهت باللوم إلى أحد القيادات المعروفة، وكان متواجداً في تلك اللحظة، فما كان منه إلاّ أن أمر البائع بسحب الكتب، لكنّني لما عدت في اليوم التالي وجدتها معروضة من جديد .

أجمل الذكريات التي لا تزال عالقة بذاكرتي - ولن تنمحي يوما - إنّني في بداية تشيّعي سنة ١٩٨١ رأيت في منامي أنّ في يدي رسالة من الإمام علي عليه السلام أحملها وأنا داخل إلى بيت الله الحرام لأسلّمها إلى صاحب الزمان الإمام المهدي — عليه السلام وعجّل الله تعالى فرجه وسهل مخرجه - جعلني الله وإيّاكم من جنده وأنصاره وأعوانه والمستشهدين بين يديه.

فكانت تلك الرؤيا دافعا كبيراً وحافزاً على مزيد العمل والبذل من أجل إعلاء كلمة الله تعالى.

وإنّني إن نسيت شيئاً فإنّني لن أنسى أخي وحبيبي ورفيق دربي عبد الله السويلمي الذي كان رجلاً قلّ أن التقيت بمثله في حياتي، الذي سهّل عليَّ استبصاره، هو انقياده لفطرته وعيشه في الحياة بدون أدنى زينة .. كان تلقائياً بما في الكلمة من بعد، وكان إنساناً بما في اللفظ من معنى، تعرّفت عليه في عملي، فلم أتمالك من الاقتراب منه والتودد إليه، وكانت استجابته أسرع،

فاتخذته صديقاً وأخاً، أردت منذ البداية أن أعرّفه بإسلام أهل البيت ﷺ، فوجدت في داخله مخزوناً خاماً لروح التشيّع، ومكمناً في ثنايا وجدانه لمعانيه السامية، وجدت ذلك كله لديه ولكن بلا مسميات ولا عناوين، ممّا سهّل عليَّ عملية إخراج ما يختزله من قيم ومعانٍ، وإعطائها العنوان الذي تقبله بكل فرح وسرور، ومن اليوم الذي حدثته فيه عن أهل البيت ﷺ، كانت رؤاه وأحلامه تصب في إطار واحد، لقد كان عبد الله يعيش جزءاً من ليله مع أعداد كبيرة من أصحاب العمائم السود والبيض، وفي اليوم التالي يأتيني منشرحاً ليحكي لي حلمه الجميل والرائع.

رجل حمل الصدق في قلبه وانطلق في هذه الدنيا غريباً يبحث عن رفيق يقاسمه الصحبة والطريق، لم يجد غيري في وحشته على هذه الحياة الفانية، ولم أجد غيره مؤمناً خالصاً لله تعالى، وكان له الأثر البالغ في تشيّع ثلة مؤمنة بإحدى جهات الجنوب الغربي التونسي، أسأل الله تعالى له ولكُلّ مؤمن الفرج وقبول الأعمال ومرافقة محمّد وآل محمّد دنياً وآخرة.

لعلّ أطرف ما يمكن ذكره هنا: أنّني في إحدى سفراتي إلى إحدى مدن الجنوب التونسي، مرفوقاً بالشيخ أو وحدي، حصلت نادرة وجب ذكرها للإخوة، تمثّلت في أن الشخص الذي كنا نذهب إليه لدعوته كان يقبل منّا الحديث والكتب، ويظهر إصغاء يعبر عن قناعة تامة بكُلّ ما نحدّثه به، والأخ الكريم وإن لم يحصل لديه في واقع الأمر يقين كامل بصحة كُلّ ما ننقله إليه، فإنّه كان مقتنعاً ببعضه على الأقل، الأمر الذي جعله يفاتح أحد أقاربه من كبار السن، ذلك الرجل لم ينم ليلته تلك وبات متقلباً على فراشه إلى أن قارب الفجر عندها أحسّ بيد توقظه، وصوت يناديه قائلا: « قم فإنّ أهل السنّة على باطل » .

وما إن انبلجت تباشير الصباح حتى هرع الشيخ إلى قريبه، راوياً له ما وقع الليلة السابقة، مختتماً قوله: علّمني الآن فقه أهل البيت عليهم السلام في الوضوء والصلاة، لتكون عبادتي صحيحة، وموالاتي لهم تامّة، فكان ذلك الدافع والحافز لتشيّع الأخ الثاني.

وكان الابتلاء أسرع إليّ من أيّ شيء تصديقاً لقول الإمام علي عليه السلام عندما جاءه رجل فقال له: إني أحبك يا أمير المؤمنين .

فقال له: « استعد للبلاء جلباباً ».

فقد تمّ اعتقالي ثلاثة مرات تحت عناوين مختلفة، ووقعت مداهمة بيتي بحجّة التفتيش والتثبت، وأخرجت من عملي بدعوى إعادة هيكلة المؤسسة، والحقيقة تقول غير ذلك، فأحمده تعالى على السرّاء والضرّاء وأفوّض إليه أمري، وألجئ ظهري، وأسأله تعالى أن يلهمني في مواقف الشدّة والبلاء صبراً، إنّه سميع مجيب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلّي العظيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

التوحيد بين تنزيه أهل البيت عليهم السلام

وتشبيه غيرهم

المقدّمة

يمثّل التوحيد في العقيدة الإسلامية رأسها ودعامتها، ومن دون توحيد سليم قائم على معرفة صحيحة لا يكون البناء العقائدي قوياً وثابتاً لدى الفرد المسلم، لذلك حثّ المولى سبحانه وتعالى مخلوقاته العاقلة على الأخذ بأسباب العلم، لبلوغ الغاية من المعرفة في التوحيد وفي سائر العقائد الإسلامية الأُخرى، فقال في محكم تنزيله: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾[1]، وقال ـ أيضاً ـ: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَائماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[2].

فالآيتين تشيران إلى أنّ العلم هو الطريق الوحيد والمسلك الرشيد لبلوغ أركان العقيدة وأعلى مراتب التوحيد، لذلك لم يجز على المسلم أن يكون مقلّداً في التوحيد وفي سائر العقائد، ووجب عليه أن يسلك من أجل تحصيل العلم بذلك سبيل البحث والتأمّل، تثبيتاً لدعائم الإيمان، وتزكية للفطرة التي فطر الخلق تعالى الناس عليها.

وطبيعي أن ينتهج الناس في قناعاتهم وانتماءاتهم العقائدية كُلّ طريق

---

(١) محمّد: ١٩.
(٢) آل عمران: ١٨.

ممكن، تبعاً لما ألزموا به أنفسهم، ووطنوا عليه عقولهم وأفئدتهم، لذلك فإنّك قد لا تجد مخلوقين متساويين في المعرفة - عموماً - وفي إدراك كنه الخالق - خصوصاً - وتوحيده، كما جاء في الأثر: « الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق »[1]. على أنّ هنالك حداً أدنى لا تستقيم العبادة إلاّ به، ولا يقبل المولى تعالى إلاّ ببلوغه، وهو أن لا تطرأ على الفطرة التي فطر الناس عليها شيء من التبعيّة أو التقليد السقيم الذي ابتليت به الأمّة.

وحسب قراءتي للحقبة الأولى من تاريخ الإسلام فإنّه لم تنشأ في المسلمين فرقة تبنت رأيا شاذاً عن المسار العام للعقيدة، إلاّ ما صدر من تساؤل حول القضاء والقدر، والذي أوجد الإرجاء المزكى من طرف حكومات بني أميّة، التي مارست الظلم والقهر في أبشع مظاهره، ثُمّ كتبرير لتلك المظالم نسبتها إلى الله تعالى، أرجأت بذلك محاسبة مقترفيها إلى يوم القيامة.

نعم، قد كان هناك خلاف حول مسألة الإمامة الكبرى هل: هي من مشمولات الباري تعالى كالنبوة أم أنّها تخص الناس، لهم وحدهم الحقّ في اختيار من يحكمهم بعيداً عن الوحي وأحكامه؟

وقد أثّر ذلك الخلاف في وحدة المسلمين وتماسكهم، فانقسموا، وظهرت عليهم أعراض الضعف والوهن، وخرجت من بينهم فرق إسلامية المظهر، منحرفة الجوهر.

وزاد في تعميق الانحراف وتأصيل الاختلاف إصرار أنظمة الظلم والجور على التمادي في تغريب الأئمّة الشرعيين والقادة الهداة الربانيين عن الأمّة، وفصلهم عن دورهم بالسجن والإقامة الجبرية، وقتلهم صبراً أو دسّ السُّم لهم

---

(١) مقولة ذكرها الحكماء، راجع شرح الأسماء الحسنى للسبزواري: ٢٤٥.

غيلة وغدراً، ومقابل ذلك سعت إلى تشجيع أشباه علماء وفقهاء بلاطاتها، فخرجوا للناس بتصورات بعيدة عن الدين، تخدم مصالحها وتشد ازر سلطانها، محرمة الخروج عليها وملزمة الناس باتباعها، فأخذها العامّة وعملوا بها، والناس على دين ملوكهم.

وكان أشد للدين ضرراً من ذلك المنحى الجانب العقائدي، وباعتبار أنّ صحّة الدين متعلّقة بصحّة المعتقد، فقد كان توجه المناوئين للدين والدخلاء عليه للإيقاع به من ذلك الباب، فنجحوا في التمويه على جم غفير من المسلمين بوضع أحاديث نسبوها إلى رسول الله ﷺ، واختلاق تأويلات غريبة لكثير من الآيات القرآنية، فأخذ جانب من المسلمين تلك المرويات أخذ المسلم بصحة صدورها عن رسول الله ﷺ، فتعبدوا بها، وتقربوا بها إلى الله زلفى، وهم يعتقدون صدورها عن الوحي والنبيّ ﷺ، فلم تزدهم من الإسلام الحقّ إلاّ بعداً وانحرافاً، وعن المولى تعالى إلاّ تنكّباً وانصرافاً.

وكيف يكون لهم حظ من معرفة صحيحة وقد بهتوا دينهم وقوضوا عقيدتهم بأخذها عن كُلّ من هب ودب، بعنوان صحابة النبيّ ﷺ، تاركين الأولى بالاتباع، والأخذ عنهم، والتعلم منهم؛ لأنّهم الباب الذي أمروا بإتيانه والدخول منه إلى الدين الحق، وكُلّ من جاء من غير الباب فقد خالف أمر الله تعالى، وحتّى يتسنّى لنا إماطة اللثام عن تلك المعتقدات الباطلة، وينصرف بحثنا نحو وجهته الصحيحة لا بدّ من الانطلاق من البداية فنقول:

لا يختلف عاقلان في القول بأنّ خالق الكون والحياة موجود، وآياته وآثاره خير شاهد عليه، فإذا تأمّلنا في حالنا وما يحيط بها من أجرام وما يتخللها من حالات الطلوع والأفول، وما يحيط بها من هواء، ورياح وغازات

وسحاب، وأمطار وجبال وبحار، وما بث فيها من الذرات إلى أعظم المخلوقات؛ لعلمنا أن خالقها مبتدع الكون كُلّه، ظهر ببديع صنعه لخلقه فلا شيء أجلى من آثاره، وليس أدّل منها على وجود المؤثر وعظمته.

ولو أمعنت الفكر في السماء ومن بناها، وزينها بما يصل إلى بصرك من ضوء كواكبها، منها ما قد يكون اندثر قبل وصوله إليك، ومن أمسك تلك الكتل العظيمة في مواقعها، وأجرى لها مجاري ثابتة ومتحركة، وما استقرت عليه قدماك من فلك الأرض، من يمسكها بقدرته ويجريها بألطافه ورحمته، هل تحس لها من حركة وهي تدور حول نفسها في اليوم والليلة بسرعة تفوق الألف والستمائة كيلومتر في الساعة!! غير سرعتها التي حول الشمس، فسبحان من لطف السرعة، وخفف الكثافة، وشدّ إليها ما ليس مركوزاً فيها.

والمتأمّل في خلق نفسه كيف لم يكن شيئاً ثُمّ أودع في الأصلاب، وقرّ في ظلمات ثلاث، نطفة امتزجت ببويضة، فصارت علقة، ثُمّ تحولّت إلى مضغة، ثُمّ تكوّنت عظاماً، ثُمّ كسيت لحماً، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وفي اختلاف الخلق آيات للعالمين، منهم: من جعل له شهوة بلا عقل، ومنهم: من جعل له عقلاً بلا شهوة، ومنهم: من أودع فيه العقل والشهوة، وميّزهم على بعض، فقدّم من أودع فيه الشهوة والعقل لتكون صفوته المفضلة على جميع مخلوقاته، منهم: الظاهر، ومنهم: المستتر، ومنهم: من يمشي على قدمين، ومنهم: من يمشي على أربع، ومنهم: من يزحف على بطنه، ومنهم: الطائر في الجو، تعدّدت مخلوقاته وتنوعت أصنافها، فتبارك خالقها وجلّ مبتدعها.

قال تعالى: ﴿ **وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ * وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً**

وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لآياتٍ لِلْعالِمِينَ * وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾[1].

وإيمان المخلوقات بوجود الخالق فطري أودعه فيها، ليكون منطلقا للمعرفة وأساسا لها.

قال تعالى: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها ﴾[2] قال الإمام أبي عبدالله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام في تفسير معنى الآية: « فطرهم على التوحيد »[3].

وذلك الإيمان الفطري يشمل جميع الكائنات العاقلة وغير العاقلة، حتى الجمادات التي لا نتصور فيها حياة، توحد الخالق وتعبده وتسبّحه، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾[4] وقال أيضا: ﴿ وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾[5] وقال أيضا: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾[6].

---

(١) الروم: ٢٠ – ٢٥.
(٢) الروم: ٣٠.
(٣) الكافي للكليني ٢: ١٣، التوحيد للشيخ الصدوق: ٣٢٩، مختصر بصائر الدرجات: ١٦٠.
(٤) البقرة: ٧٤.
(٥) الأنعام: ٣٨.
(٦) الإسراء: ٤٤.

ولـم تكـن الفطـرة وحدها دالّـة على الخالق سبحانه وتعالى، فقد جعل في خلقه أثراً موصلاً له، ثُمّ اصطفى منهم أدلاء عليه، جعلهم أبواباً إلى معرفته، وطريقاً إلى رحمته، وسببا لرضوانه، فمن تمسك بهم وعمل بهديهم، وعرفهم فعرفوه، فقد عرف ربّه حق المعرفة، ومضى إلى دينه على بصيرة من أمره، ومن حاد عنهم، واتبع املاءات أئمة سلاطين الجور، وإيحاءات فقهاء حكام الفجور، فقد جهلهم وجهلوه، ولـم يهتدِ إلى سبيل الرشد وسبب النجاة، لـم يعرف له رباً غير الوهم الذي صور له، يعبده فلا يجد له حقيقة.

وتوجه البشر نحو معرفة الخالق تعالى، كتوجه سائر المخلوقات العاقلة، كما في الحديث المأثور عن الأئمة الهداة - عليهم وعلى سيدهم أفضل الصلاة وأزكى السلام -: «إنّ الله قد احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار، وإنّ الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه».[1]

وكُلّ ما علمناه من أصناف الملائكة وفرق الجان، وما لـم نعلمه من مخلوقات الخالق الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، سالكون طريق المعرفة، باحثون عن كنه الخالق تعالى. وليس هناك كائن أقرب إلى تمام المعرفة وكمالها، بل وهو حائز على لبها وجوهرها، غير سيد الكائنات، ومجتبى الخلق من المخلوقات، أفضل من وحد، وسيد من عبد وحمد، إمام المرسلين أبي القاسم محمّد ﷺ، فعروجه إلى السماوات العلى، وبلوغه إلى ما قصر عنه روح القدس، دليل على أنّه لا يوجد مخلوق بلغ الغاية من معرفة الخالق غيره، ويتلوه شاهده ووزيره وأخيه في مرتبة المعرفة، أمير المؤمنين ووارث علمه وعلوم النبيّين، وقائد الغر المحجلين، ومن بيده الشريفة لواء

---

(١) بحار الأنوار ٦٦: ٢٩٢، حق اليقين في معرفة أصول الدين للسيد عبد الله شبر ١: ٩٧.

الحمد يوم الدين علي بن أبي طالب ﷺ.

ولكي لا نقع فيما وقع فيه غيرنا من انحراف وزيغ عن أسس الدين وثوابته، وجب علينا الاقتصار في أخذ معالم الدين، عمن جعلهم المولى - سبحانه وتعالى - أبوابه والأدلاء عليه، والناظر في تراثهم يدرك حقيقة علومهم، وصدق ما ورثوه عن جدّهم، ويرى باقي المسلمين عيالاً عليهم.

ولو أنّ كُلّ المسلمين ثابوا إلى رشدهم من بهرج الظلمة، وسراب سنّة الصحابة، التي لا يزالون يعتمدون على مجملها، بما حوته من سقيم وموضوع، لوجدوا فيمن أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ملاذاً وعصمة؛ لأنّهم وحدهم من امتلك حقائق هذا الدين ظاهراً وباطناً، وإليهم رجع المنقطعون، وبهم نجا المتحيرون، كما كان شأن أصحاب القرون الثلاثة الأولى.

وفي هذه الدراسة دليل على أنّ من أوكل إليهم المولى أمر دينه، وأعطاهم ولاية أمر المسلمين، أحق بالطاعة والاتباع من مجهولي الحال، أو متعاوني أئمة الجور والضلال، فماذا قال أهل البيت ﷺ في التوحيد؟

وماذا قال غيرهم ممن ينتسب للإسلام انتساباً ويتخذ من مظهره جلبابا؟

هذه الحقيقة لم يكن من السهل على وارث للخط السني (الأشعري) مثلي أن يصل إلى فك رموزها، ومعرفة دقائق أمورها، لولا ألطاف الباري تعالى وعنايته لمّا أدركت طريق الهداية، ولما استمسكت بحبل الولاية، عندها تيقنت أنّ مسيرتي العبادية الأُولى كانت سراباً ووهما في شكل معرفة لا أثر لها على النفس، ولا رابطة، بينها وبين الرب تبارك وتعالى. ولما غصت في مصفى نبع علوم أهل البيت ﷺ، بما فيه من عقائد وشرائع وعبادات وأخلاق،

وسير عطرة بمعاني الإسلام النقي الصافي، أيقنت بالنجاة، وانفتح قلبي وعقلي نحو آفاق رحبة من المعارف الحقّة لعقائد الدين وأحكامه.

إنّ المتأمّل في أمّهات كتب الإمامية الاثني عشرية، يلاحظ اهتماماً بالغاً ما انفك يوليه أئمّة أهل البيت عليهم السلام لكل ما يتعلق بالدين عقيدة وشريعة، وقد جاء من آثارهم ما أظهره تصديهم لكُلّ دخيلة في الدين جاء بها متفيقه لم يحصل غير اللعق، حتى إنّهم كانوا يتحسسون مواضع الداء قبل استفحاله، فيولوه اهتمامهم ويمنحوه الأولوية في الإصلاح، ففي يوم معركة الجمل التي أبتلي بها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وقف يردّ على رجلٍ من جنده عندما سأله قائلاً: أتقول إن الله واحد؟

فحمل الناس عليه وقالوا: يا أعرابي، أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسّم القلب؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: « دعوه فإنّ الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم، ثُمّ قال: يا أعرابي إنّ القول: أنّ الله واحد على أربعة أقسام؛ فوجهان منهما لا يجوزان على الله - عزّ وجلّ - ووجهان يثبتان فيه، فأمّا اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل: واحد، يقصد به بابّ الأعداد، فهذا ما لا يجوز، لأنّ ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، أما ترى أنّه كفر من قال ثالث ثلاثة.

وقول القائل: هو واحد من الناس، يريد به النوع من الجنس، فهذا ما لا يجوز عليه؛ لأنّه تشبيه، وجلّ ربّنا وتعالى عن ذلك.

أما الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل: هو واحد، ليس له في الأشياء شبيه، كذلك ربّنا عزّ وجلّ، وقول القائل إنّه ربنا عزّ وجلّ أحدي المعنى، يعني

أنّه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم، كذلك ربّنا عزّ وجلّ» [1].

ومن هذا النصّ نستشف أنّ أمير المؤمنين - سلام الله عليه - لم يكن في حروبه الثلاثة التي ألجئ إليها بعد النبيّ ﷺ مدافعاً عن مركزه كإمام للمسلمين، وإنّما خرج ليدفع عن الدين ما بدأ يعتريه من دخائل غريبة عنه وليست منه، فقوله عليه السلام: « دعوه فإنّ الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم » دليل على أنّ وقائع الجمل وصفين والنهروان كانت كُلّها حروب تصحيحية، من أجل الحفاظ على نقاوة الإسلام المحمّدي النبوّة العلوي الإمامة، مصداقاً لقوله ﷺ: « إنّ منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله، فاستشرف لها القوم وفيهم أبو بكر وعمر، قال أبو بكر: أنا هو، قال: لا، قال عمر: أنا هو، قال: لا، ولكن خاصف النعل يعني علياً، وكان علي - سلام الله عليه - يخصف نعل النبيّ ﷺ في الحجرة، قال أبو سعيد الخدري: فأتيناه فبشرناه، فلم يرفع رأسه كأنّه قد كان سمعه من رسول الله ﷺ» [2].

والتصفح لنهج البلاغة لأمير المؤمنين عليه السلام يلاحظ تعدّد الخطب التي تحدث فيها عن الخالق عزّ وجلّ، مضمناً إياها معالم التوحيد وأساس الاعتقاد السليم، سأقتصر منها على أربع خطب، ومن شاء المزيد فليمم وجهه شطر البيوت التي أذن الله أن ترفع، وليقصد القرى التي قدّر فيها تعالى أمن الدنيا

---

(١) التوحيد للشيخ الصدوق: ٨٣.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣: ١٢٣ واعترف الذهبي بصحة الحديث في تلخيصه، مسند أحمد بن حنبل ٣: ٣٣ و ٨٢، مجمع الزوائد للهيثمي ٥: ١٨٦ و ٦: ٢٤٤ و ٩: ١٢٣، السنن الكبرى للبيهقي ٥: ١٥٤، مسند أبي يعلى ٢: ٣٤١، صحيح ابن حبّان ١٥: ٣٨٥، موارد الضمآن للهيثمي ٧: ١٤٦، تاريخ الإسلام للذهبي ٣: ٦٤٣، الوافي بالوفيات للصفدي ٢٧: ٦٤، البداية والنهاية لابن كثير ٦: ٢٤٣ و ٧: ٣٣٨ و ٣٩٨، سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني مج٥: ٦٣٩.

والآخرة فإنّه حتماً سيجد سؤله، ويعتصم بحبل الله المتين وعروته الوثقى التي لا انفصام لها، وسيكون في حصن الله تعالى وحرزه، طالما أنّه قد اهتدى إلى أبرار الأمة، وهداة الدين ومستحفظي الشريعة، عدل القرآن وكرائمه.

يقول إمام المتقين وقائد الغر المحجلين صاحب لواء الحمد يوم القيامة في الخطبة الأولى:

« الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصي نعماءه العادّون، ولا يؤدي حقه المجتهدون، الذي لا يدركه بعدُ الهمم، ولا يناله غوص الفطن، الذي ليس لصفته حدّ محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود، فطر الخلائق بقدرته، ونشر الرياح برحمته، ووتد بالصخور ميدان أرضه.

أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كُلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كُلّ موصوف أنّه غير الصفة، فمن وصف الله – سبحانه – فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال: فيم؟ فقد ضمنه، ومن قال: علام؟ فقد أخلى منه، كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كُلّ شيء لا بمقارنة، وغير كُلّ شيء لا بمزايلة، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه، متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده »[1].

---

(١) نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام ١: ١٤، الخطبة الأولى.

ويقول عليه السلام في الثانية:

« الحمد لله الذي بطن خفيات الأمور، ودلت عليه أعلام الظهور، وامتنع عن عين البصير، فلا عين من لم يره تدركه، ولا قلب من أثبته يبصره، سبق في العلو فلا شيء أعلى منه، وقرب في الدنو فلا شيء أقرب منه، فلا استعلاؤه باعده عن شيء من خلقه، ولا قربه ساواهم في المكان به، لم يطلع العقول على تحديد صفته، ولم يحجبها عن واجب معرفته، فهو الذي تشهد له أعلام الوجود على إقرار قلب ذي الجحود، تعالى الله عما يقول المشبهون به والجاحدون علّواً كبيراً »[(١)].

وقال عليه السلام في الثالثة:

« الحمد لله الذي أعجز الأوهام أن تنال وجوده، وحجب العقول عن أن تتخيل ذاته، لامتناعها من الشبه والشكل، بل هو الذي لا تتفاوت ذاته، ولا تبتعض بتجرئة العدد في كماله. فارق الأشياء لا باختلاف الأماكن، ويكون فيها لا على ممازجة، وعلمها لا بأداة لا يكون العلم إلاّ بها وليس بينه وبين معلومه علم غيره كان عالماً لعلومه. إن قيل: كان! فعلى تأويل أزلية الوجود، وإن قيل: لم يزل! فعلى تأويل نفي العدم»[(٢)].

وقال عليه السلام في الرابعة:

« الحمد لله الذي لا من شيء كان، ولا من شيء كوّن ما قد كان، المستشهد بحدوث الأشياء على أزليته، وبما وسمها به من العجز على قدرته، وبما اضطرها إليه من الفناء على دوامه، لم يخل منه مكان فيُدرك بانيته، ولا له

---

(١) نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام ١: ٩٩، الخطبة ٤٩.

(٢) نهج السعادة للشيخ المحمودي ١: ٤٩.

شبح مثال فيوصف بكيفيته، ولم يغب عن شيء فيعلم بحيثيته، مباين لجميع ما أحدث من الصفات، وممتنع عن الإدراك بما ابتدع من تصريف الذوات، خارج عن الكبرياء والعظمة من جميع تصرف الحالات، محرّم على بوارع ناقبات الفطن تحديده، وعلى غوامض ثاقبات الفكر تكييفه، وعلى غوائص سابحات النظر تصويره، لا تحويه الأماكن لعظمته ولا تدركه المقادير لجلاله، ولا تقطعه المقائس لكبريائه، ممتنع عن الأوهام أن تكتنهه، وعن الأفهام أن تستغرقه، وعن الأذهان أن تمثله، وقد يئست من استنباط الإحاطة به طوامح العقول، ونضبت عن الإشارة إليه بالاكتناه بحار العلوم، ورجعت بالصغر عن السمو إلى وصف قدرته لطائف الخصوم.

واحد لا من عدد، دائم لا بأمد، وقائم لا بعمد، ليس بجنس فتعادله الأجناس، ولا بشبح فتضارعه الأشباح، ولا كالأشياء فتقع عليه الصفات.

قد ضلّت العقول في أمواج تيار إدراكه، وتحيّرت الأوهام عن إحاطة ذكر أزليته، وحصرت الأفهام عن استشعار وصف قدرته، وغرقت الأذهان في لجج أفلاك ملكوته، مقتدر بالآلاء، وممتنع بالكبرياء، ومتملك على الأشياء، فلا دهر يخلقه، ولا زمان يبليه، ولا وصف يحيط به وقد خضعت له الرقاب الصعاب في محل تخوم قرارها، وأذعنت له رواصن الأسباب في منتهى شواهق أقطارها، مستشهد بكلّية الجناس على ربوبيّته وبعجزها على قدرته، وبفطورها على قدمته، وبزوالها على بقائه، فلا لها محيص عن إدراكه إيّاها، ولا خروج من إحاطته بها، ولا احتجاب عن إحصائه لها، ولا امتناع عن قدرته عليها.

كفى بإتقان الصنع لها آية، وبمركب الطبع عليها دلالة، وبحدوث الفطر

عليها قدمة، وبإحكام الصنعة لها عبرة فلا إليه حدّ منسوب، ولا له مثل مضروب، ولا شيء عنه محجوب، تعالى عن ضرب المثال والصفات المخلوقة علوا كبيرا »[1].

إنّ المتأمل فيما أطلقه أمير المؤمنين وقائد الغر المحجلين، سيد من علم وعبد بعد النبيّ أبي القاسم محمّد - صلى الله عليهما كما هما أهل لذلك، وكلّما أوجب ذلك - يدرك حقيقة التوحيد الذي عليه هذا الرجل الذي لم يظلم أحد في التاريخ مثل ظلامته، ولو أنّك جمعت الشعراء والأدباء والخطباء والعلماء والفلاسفة من الأوّلين والآخرين على أن يأتوا بمثل أقواله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وتلك حقيقة أقرّ بها كُلّ من اطّلع على ما جمع من خطبه عليه السلام، ورأى فيها ذخيرة لمن يسعى للمعرفة.

ومثلما سلك الإمام عليه السلام في الاستدلال على الخالق والتعريف به، بحيث لا يتطرق إلى أقواله تحريف أو تأويل، سلك الأئمة الهداة من بنيه عليهم السلام مسلكه في البيان والذب عن أركان التوحيد والدين، كلما سنحت لهم فرصة، فكانوا على مرّ العصور حماة الدين، ورعاة آثار وتراث الرسول صلى الله عليه وآله المبلّغ عن ربّ العالمين بما استودعوه من علوم صحيحة، وأفكار متطابقة صريحة، سأقتصر منها على قلّة المراجع التي بحوزتي ما طالته يدي من مأثور أقوالهم، ومستصفى آرائهم التي هي امتداد لمركز النبوّة، وهدي من نور الإمامة، فهذا أبو عبد الله الحسين بن علي سيد الشهداء عليه السلام يقول في دعائه الشهير يوم عرفة، الذي أرهفت له آذان السامعين، وتحيّرت منه عقول الحاضرين، وهزّ نياط قلوب المؤمنين، بما حواه من سبحات القدس، ولواعج الأنس: « كيف يستدّل عليك بما هو في وجوده

---

(١) **نهج السعادة للشيخ المحمودي ٢: ٩.**

مفتقر إليك؟! أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتّى يكون هو المظهر لك؟! متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك؟! ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟! عميت عين لا تراك ولا تزال عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيباً»[1].

قوله عليه السلام: «عميت عين لا تراك» إشارة لطيفة إلى بصيرة النفس لا إلى بصر العين، لاستحالة رؤية المولى سبحانه وتعالى بالعين البصّارة.

وهذا علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام يقول في صحيفة دعائه المسماة بـ (الصحيفة السجادية): «الحمدُ لله الأوّل بلا أوّل كان قبله، والآخر بلا آخر يكون بعده، الذي قصُرت عن رؤيته أبصار الناظرين، وعجزت عن نعته أوهام الواصفين، ابتدع بقدرته الخلق ابتداعاً، واخترعهم على مشيئته اختراعاً، ثُمّ سلك بهم طريق إرادته، وبعثهم في سبيل محبته...»[2].

وتعدّدت أدلّة الأئمة من أهل بيت النبوّة عليهم السلام في إثبات وجود الخالق وبيان معنى صفاته، فجاءت متنوعة ومتفاوتة المعاني، على قدر عقول السائلين.

جاء رجل إلى الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام فقال له: « دلّني على معبودي؟

فقال له: اجلس، وإذا غلام له صغير في كفه بيضة يلعب بها، فقال له عليه السلام: ناولني يا غلام البيضة، فناوله إيّاها، فقال: يا ديصاني هذا حصن مكنون له جلد غليظ، وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق، وتحت الجلد الرقيق ذهبة مائعة وفضة ذائبة، فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضة الذائبة، ولا الفضة الذائبة تختلط

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي ٩٥: ٢٢٦، التفسير الصافي للكاشاني ١: ٧.
(٢) الصحيفة السجادية: ١٧.

بالذهبة المائعة، فهي على حالها لم يخرج منها خارج مصلح فيخبر عن صلاحها، ولا دخل فيها داخل مفسد فيخبر عن فسادها، لا يدري أللذكر خلقت أم للأنثى، تنفلق عن مثل ألوان الطواويس، أترى لها مدبراً؟

قال فأطرق ملياً ثُمّ قال: أشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله، وأنّك إمام حجّة من الله على خلقه، وأنا تائب ممّا كنت فيه»[1].

وقيل للإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: « يا بن رسول الله، ما الدليل على حدوث العالم؟

فقال له عليه السلام: إنّك لم تكن ثُمّ كُنت، وقد علمت أنّك لم تكوّن نفسك، ولا كوّنك من هو مثلك»[2].

وسئل أمير المؤمنين عليه السلام بماذا عرفت ربك؟

قال: «بفسخ العزائم، ونقض الهمم، لما هممت فحيل بيني وبين همّي، وعزمت فخالف القضاء والقدر عزمي، علمت أن المدبر غيري»[3].

وعن إثبات الصانع قال عليه السلام: « البعرة تدلّ على البعير، والروثة تدل على الحمير، وأثر القدم تدل على المسير، فهيكل علوي بهذه اللطافة، ومركز سفلي بهذه الكثافة ألا يدلان على اللطيف الخبير؟»[4].

---

(١) أصول الكافي للكليني ١: ٨٠، التوحيد للشيخ الصدوق: ١٢٤، الاحتجاج للطبرسي ٢: ٧٢، بحار الأنوار للمجلسي ٣: ٣٢.

(٢) التوحيد للشيخ الصدوق: ٢٩٣، عيون أخبار الرضا عليه السلام للشيخ الصدوق ٢: ١٢٣، الاحتجاج للطبرسي ٢: ١٧١.

(٣) بحار الأنوار للمجلسي ٣: ٤٢، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٩: ٨٤.

(٤) روضة الواعظين للنيشابوري: ٣١، بحار الأنوار ٣: ٥٥.

وتفرّد الأئمة من أهل بيت النبوة عليهم السلام في الاستدلالات العقلية والأجوبة المنطقية في التوحيد وغيره من عقائد الإسلام، مضافاً إلى سبرهم لأغوار الوحي، ونيلهم العلوم الإلهية، ما فاض على اتباعهم معارف وحقائق جعلتهم على بصيرة من أمرهم وجعلت غيرهم من المتنكبين عنهم في حيرة يعبدون الله على حرف أو دونه.

وقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام في جواب الزنديق الذي سأله: لم لا يجوز أن يكون صانع العالم أكثر من واحد؟

فقال عليه السلام: « لا يخلو قولك أنهما اثنان من أن يكونا قديمين قويّين أو ضعيفين أو يكون أحدهما قوياً والآخر ضعيفاً؛ فإن كانا قويين فلم لا يدفع كُلّ واحد منهما صاحبه وينفرد بالتدبير؟

وإن زعمت أنّ أحدهما قوي والآخر ضعيف ثبت أنّه واحد - كما نقول - للعجز الظاهر في الثاني.

وإن قلت: إنّهما اثنان، لم يخل من أن يكونا متفقين من كُلّ جهة أو مفترقين من كُلّ جهة، فلمّا رأينا الخلق منتظماً والفلك جارياً، واختلاف الليل والنهار والشمس والقمر دليل على صحة الأمر والتدبير وائتلاف الأمر، على أنّ المدبر واحد، ثُمّ يلزمك إذا ادعيت اثنين فلا بدّ من فرجة بينهما حتّى يكون اثنين، فصارت الفرجة ثالثاً بينهما، قديماً معهما، فيلزمك ثلاثة، وإن ادعيت ثلاثة لزمك ما قلنا من الاثنين حتّى تكون بينهما فرجتان فيكون خمسة ثُمّ يتناهى العدد إلى ما لا نهاية له في الكثرة »[1].

وعنه أيضاً عليه السلام عندما سأله هشام بن الحكم: ما الدليل على أنّ الله

---

(١) التوحيد للشيخ الصدوق: ٢٤٤، بحار الأنوار ١٠: ١٩٥.

واحد؟ قال: « اتصال التدبير وتمام الصنع، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ **لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتا** ﴾[1] .

وللإمام علي بن موسى الرضا ثامن أئمة أهل البيت عليهم السلام مناظرات واحتجاجات ودروس ومحاضرات في شتى العلوم الإلهية، تضمنت من الأجوبة الشافية والردود الوافية والقناعات الكافية ما ألجم أفواه المشككين، وأثلج صدور المؤمنين، وقصم ظهر الباطل، وأعاد الحق إلى نصابه، وقد جاء عنه عليه السلام في التوحيد: « عن محمّد بن عبد الله الخراساني خادم الرضا عليه السلام قال: دخل رجل من الزنادقة على الرضا عليه السلام وعنده جماعة، فقال لأبي الحسن عليه السلام: أرأيت إن كان القول قولكم - وليس هو كما تقولون - ألسنا وإيّاكم شرع سواء، لا يضرنا ما صلّينا وصمنا وزكّينا وأقررنا؟

فقال أبو الحسن عليه السلام: وان يكن القول قولنا - وهو قولنا وكما نقول - ألستم قد هلكتم ونجونا؟

قال: رحمك الله فأوجدني كيف هو؟

قال: ويلك إنّ الذي ذهبت إليه غلط وهو أيّن الأين وكان ولا أين، وكيّف الكيف وكان ولا كيف، فلا يعرف بكيفوفية ولا بأينونية، ولا يدرك بحاسة، ولا يقاس بشيء.

قال الرجل: فإذاً إنّه لا شيء إذا لم يدرك بحاسة من الحواس؟!

فقال أبو الحسن عليه السلام: ويلك لمّا عجزت حواسك عن إدراكه أنكرت ربوبيته! ونحن إذا عجزت حواسنا عن إدراكه أيقنا أنّه ربّنا، وأنّه شيء بخلاف الأشياء.

---

(١) التوحيد للشيخ الصدوق: ٢٥، الفصول المهمّة في أصول الأئمة للعاملي: ١٣٥.

قال الرجل: فأخبرني متى كان؟

قال أبو الحسن: فأخبرني متى لم يكن فأخبرك متى كان؟

قال الرجل: فما الدليل عليه؟

قال أبو الحسن: إنّي نظرت إلى جسدي فلم يمكني زيادة ولا نقصان في العرض والطول، ودفع المكاره عنه وجرّ المنفعة إليه علمت أنّ لهذا البنيان بانياً، فأقررت به مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته، وإنشاء السحاب، وتصريف الرياح، ومجرى الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من الآيات العجيبات المتقنات علمت أنّ لهذا مقدراً ومنشأً.

قال الرجل: فلم احتجب؟

قال أبو الحسن: إنّ الحجاب على الخلق لكثرة ذنوبهم، فأمّا هو فلا يخفى عليه خافية في آناء الليل والنهار. قال: فلم لا تدركه حاسة الإبصار؟

قال: للفرق بينه وبين خلقه الذين تدركهم حاسة الإبصار منهم ومن غيرهم، ثُمّ هو أجلُّ من أن يدركه بصر أو يحيطه وهم أو يضبطه عقل.

قال: فحدّه لي؟ قال: لا حدّ له.

قال: ولم؟

قال: لأنّ كُلّ محدود متناه إلى حدّ، وإذا التحديد احتمل الزيادة، وإذا احتمل الزيادة احتمل النقصان، فهو غير محدود ولا متزايد ولا متناقص ولا متجزئ ولا متوهم... »[1] إلى آخر الحديث.

حدثنا علي بن الحسن بن فضال عن أبيه قال: سألت الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿ **كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ** ﴾ ؟

---

(١) التوحيد للشيخ الصدوق: ٢٥٢، الاحتجاج للطبرسي ٢: ١٧٢، بحار الأنوار ٣: ١٥.

فقال: « إنّ الله تعالى لا يوصف بمكان يحلّ فيه فيحجب عنه فيه عباده، ولكنه يعني إنّهم عن ثواب ربهم محجوبون».

قال وسألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿ **وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً** ﴾ ؟

فقال: « إنّ الله تعالى لا يوصف بالمجيء والذهاب تعالى عن الانتقال، إنّما عني بذلك وجاء أمر ربّك والملك صفّاً صفّاً ».

قال: وسألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿ **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ** ﴾ ؟

قال: « يقول هل ينظرون إلاّ أن يأتيهم الله بالملائكة في ظُلَل من الغمام ».

قال: وسألته عن قوله تعالى: ﴿ **سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ** ﴾، وعن قوله: ﴿ **اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ** ﴾، وعن قوله: ﴿ **وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ** ﴾، وعن قوله: ﴿ **يُخادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ** ﴾ .

فقال: « إنّ الله تعالى لا يسخر ولا يستهزئ ولا يمكر ولا يخادع، ولكنّه يجازيهم جزاء السخرية وجزاء الاستهزاء وجزاء المكر والخديعة، تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوا كبيراً »[1].

وعن الحسن بن سعيد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿ **يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إلى السُّجُودِ** ﴾؟

قال: « حجاب من نور يكشف فيقع المؤمنون سجّداً، وتدمج أصلاب المنافقين فلا يستطيعون السجود»[2] .

ومن ذلك المثل العربي: كشفت الحرب عن ساق، أي أظهرت نتيجتها.

---

(١) التوحيد للشيخ الصدوق: ١٦٣، عيون أخبار الرضا عليه السلام للشيخ الصدوق ٢: ١١٥، الاحتجاج للطبرسي ٢: ١٩٣.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام للشيخ الصدوق ٢: ١١١، الاحتجاج للطبرسي ٢: ١٩٣.

عن محمّد بن عبيدة قال سألت الرضا عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ لإبليس: ﴿ ما مَنَعَكَ أنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾؟

قال عليه السلام: « يعني بقدرتي وقوتي »[1].

وعن الحسين بن خالد قال قلت للرضا عليه السلام: يا بن رسول الله، إنّ الناس يروون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: « إن الله عزّ وجلّ خلق آدم على صورته ».

فقال: قاتلهم الله، قد حذفوا أول الحديث، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مرّ برجلين يتسابان فسمع أحدهما يقول لصاحبه: قبّح الله وجهك ووجه من يشبهك. فقال صلى الله عليه وآله : يا عبد الله لا تقل هذا لأخيك فإنّ الله عزّ وجلّ خلق آدم على صورته »[2].

فيكون الضمير عائداً على الرجل الذي وقع عليه السبّ.

وعنه أيضاً قال: قلت للرضا عليه السلام: يا بن رسول الله، إنّ قوماً يقولون: لم يزل الله عالماً بعلم، قادراً بقدرة، حياً بحياة، قديماً بقدم، سميعاً بسمع، بصيراً ببصر؟

فقال عليه السلام: « لم يزل الله عزّ وجلّ عليماً قادراً حياً سميعاً بصيراً لذاته، تعالى عمّا يقول المشركون والمشبهون علواً كبيراً »[3].

عن عبد السلام بن صالح الهروي قال: قلت لعلي بن موسى الرضا عليه السلام: يا بن رسول الله ما تقول في الحديث الذي يرويه أهل الحديث « أنّ المؤمنين

---

(١) التوحيد للشيخ الصدوق: ١٥٤، عيون أخبار الرضا عليه السلام للشيخ الصدوق ٢: ١١٠، بحار الأنوار ٤: ١٠.

(٢) التوحيد للشيخ الصدوق: ١٥٢، عيون أخبار الرضا عليه السلام للشيخ الصدوق ٢: ١١٠، الفصول المهمّة في أصول الأئمة للعاملي: ٢٦٠.

(٣) التوحيد للشيخ الصدوق: ١٤٠، روضة الواعظين للنيسابوري: ٣٧، الاحتجاج للطبرسي ٢: ١٩٢.

يزورون ربّهم في منازلهم في الجنة».

فقال عليه السلام: « يا أبا الصلت إنّ الله تبارك وتعالى فضّل نبيّه محمّدا صلى الله عليه وآله على جميع خلقه من النبيّين والملائكة، وجعل طاعته طاعته، ومتابعته متابعته، وزيارته في الدنيا والآخرة زيارته، وقال عزّ وجلّ: ﴿ **مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ** ﴾، وقال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** ﴾[1]، وقال النبيّ صلى الله عليه وآله: « من زارني في حياتي أو بعد موتي فقد زار الله تعالى»، ودرجة النبيّ صلى الله عليه وآله في الجنّة أرفع الدرجات، فمن زاره في درجته في الجنّة من منزله فقد زار الله تبارك وتعالى.

قال: وقلت له: يا بن رسول الله، فما معنى الخبر الذي رووه أنّ ثواب لا اله إلا الله النظر في وجه الله تعالى؟

فقال عليه السلام: « يا أبا الصلت من وصف الله تعالى بوجه كالوجوه فقد كفر، ولكن وجه الله تعالى أنبياءه ورسله وحججه صلوات الله عليهم، هم الذين بهم يتوجه إلى الله عزّ وجلّ وإلى دينه ومعرفته، قال الله تعالى: ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ * وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرامِ** ﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ** ﴾، فالنظر إلى أنبياء الله تعالى ورسله وحججه عليهم السلام في درجاتهم ثواب عظيم للمؤمنين يوم القيامة، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله: « من أبغض أهل بيتي وعترتي لم يرني ولم أره يوم القيامة »، وقال أيضاً - موجهاً خطابه إلى الصحابة -: « إن فيكم من لا يراني بعد أن يفارقني » .

يا أبا الصلت إنّ الله تبارك وتعالى لا يوصف بمكان، ولا يدرك بالأبصار

---

(1) التوحيد للشيخ الصدوق: ١١٧، عيون أخبار الرضا عليه السلام للشيخ الصدوق ٢: ١٠٦.

والأوهام »[1].

وعن إبراهيم بن أبي محمود قال: قال علي بن موسى الرضا عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ * إلى رَبِّها ناظِرَةٌ** ﴾ ، قال: « يعني مشرقة تنتظر ثواب ربها »[2].

وقد جاء في القرآن الكريم ما يفيد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ **وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ** ﴾[3]، أي منتظرة بم يرجعون.

وعندما نقارن هذا الفهم الربّاني الذي يتقبله كُلّ عقل سليم، مع ما أخرجه أبو العباس السراج في تاريخه عن الحسن بن عبد العزيز الجروي - وهو من شيوخ البخاري - قال سمعت عمرو بن أبي سلمة يقول: سمعت مالك بن أنس (صاحب الموطأ والمذهب) قيل له: يا أبا عبد الله قول الله تعالى: ﴿ **إلى رَبِّها ناظِرَةٌ** ﴾. يقول قوم: إلى ثوابه؟

فقال: كذبوا فأين هم عن قوله تعالى: ﴿ **كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذ لَمَحْجُوبُونَ** ﴾[4].

أنظر - أيّها الأخ الكريم - إلى هذا الصلف، وهشاشة الفكر، وبلادة الرد، كيف يتمادى الانحراف والزيغ بأصحابه إلى درجة الإصرار على الخطأ.

على أنّ الآية لا تفيد المعنى الذي قصده أصحاب التجسيم؛ لأنّ المعنى الحقيقي الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله ومن بعده أهل بيته عليهم السلام، لأنّهم أهل

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام للشيخ الصدوق ٢: ١٠٦، الاحتجاج للطبرسي ٢: ١٩٠.

(٢) التوحيد للشيخ الصدوق: ١١٦، روضة الواعظين للنيسابوري: ٣٤.
(٣) النمل: ٣٥.
(٤) فتح الباري للعسقلاني ١٣: ٣٥٥.

الذكر، والراسخون في العلم، والمستحفظون على كتاب الله تعالى وشريعته، يقول: إنّهم محجوبون عن رحمة ربّهم يوم القيامة.

والتوحيد الذي يصح به الإسلام على أربعة وجوه هي:

أولاً: توحيد واجب الوجود، بكونه لا شريك له في وجوبه ووجوده.

ثانياً: توحيد صانع العالم ومدبر النظام.

ثالثاً: توحيد الإله المستحق للعبادة ونفي الشريك عنه.

رابعاً: توحيد الإله في الخلق والرزق.

أما صفات المولى سبحانه وتعالى فهي قسمين: صفات ثبوتية، وصفات سلبية.

أما الصفات الثبوتية: وقد يطلق عليها صفات الكمال والجمال، فهي صفات الذات التي لا حصر لها؛ لأنّ الخلو عن الكمال نقص، والنقص منتف عنه تعالى. وهي:

أولاً: القدرة:

وهي أنّه تعالى لا يعجزه شيء في كُلّ ما يريد، إلاّ أنّ المعتزلة خالفوا اتباع أهل البيت عليهم السلام، فقالوا بأن الله لا يقدر على القبيح والشر، لاستلزامه الظلم، ففروا من نسبة الظلم إليه تعالى إلى نسبة العجز له. وقدرته تعالى على القبيح والظلم لا تستلزم وقوعهما منه؛ لأنّه منزّه عن ذلك، فالمؤمن الصالح قادر على فعل المعاصي وأنواع الشرور ولكنّه لا يفعلها مع قدرته عليها لعلمه بقبحها، فلا نقول: إنّه عاجز عنها، قال تعالى: ﴿ **وَما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً** ﴾.

وقد خالف الأشاعرة (وهم عموم أهل السنّة من اتباع المذاهب الأربعة في الفروع، اختاروا، أو بالأحرى اختير لهم، لأنّ من حصرهم في ذلك الاتجاه هي الأنظمة التي حكمت رقابهم - اتباع أبي الحسن الأشعري في الأصول) أيضاً اتباع أهل البيت عليهم السلام من الإمامية الاثني عشرية، فنسبوا فعل الشر إليه تعالى ووقوعه منه، وهو قول باطل، لأنّه ظلم، ففروا من الشرك في الخلق ووقعوا في الظلم.

ثانياً: الاختيار:

وهو أنّه تعالى مختار في أفعاله، إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل.

ثالثاً: العلم والحكمة:

إنّه تعالى عالم حكيم، يعلم الأشياء قبل وجودها كعلمه بها بعد وجودها.

رابعاً: القدم والأزليّة:

إنّه تعالى أزلي سرمدي قديم غير مسبوق بعلّة ولا يعتريه عدم.

خامساً: السميع البصير:

إنّه تعالى سميع بصير، لا بجارحة، كما يدعي المخالفون لأهل البيت عليهم السلام، بأنّ له عيناً بلا كيف، ذلك مبلغهم من الجهل، بل المراد أنّه تعالى عالم بجميع المسموعات والمبصرات من دون آلة.

سادساً: الحياة:

إنّه تعالى حي ليست له بداية كما ليست له نهاية.

سابعاً: الإدراك:

إنّه تعالى مدرك بلا حاسّة.

ثامناً: الإرادة والكراهة:

إنّه تعالى مريد لأفعاله كاره لها.

ومريد بمعنى أنّه خصص إيجاد الحوادث في وقت دون وقت، وعلى صفة دون أُخرى، مع عموم قدرته، وكون الأوقات والصفات كُلّها صالحة للإيجاد بمقتضى قدرته تعالى.

وكاره بمعنى أنّه ترك إيجاد الحوادث في وقت دون وقت، والأوقات كُلّها صالحة للترك بمقتضى القدرة، وهو أيضاً مريد لبعض أفعال عبيده كالطاعات وأعمال الخير، وكاره لبعضها كالمعاصي والظلم والشرور.

تاسعاً: الكلام:

إنّه تعالى متكلّم، بمعنى أنّه موجد للكلام في جسم من الأجسام، كما خلق ذلك في شجرة الطور وكلّم منها موسى، وكذلك طبقات الأفلاك، فتسمع الملائكة، وكذا في قلوب الأنبياء والرسل، وكيف كان وصفه تعالى بالكلام، وقدرته على إيجاد الكلام، كخلق الحروف والأصوات، ونفس الكلام من صفات الفعل الحادثة كالخالقية والرازقية، ويدلّ على حدوثه العقل والنقل.

أما من جهة النقل فلقوله تعالى: ﴿ **ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ** ﴾[1] والذكر هو القرآن لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ** ﴾[2].

وقد وصفه الله تعالى بالحدوث، ولا ريب أنّ الخطاب قبل وجود المخاطب لغو صريح، وهو في حقّ المولى سبحانه وتعالى غير صحيح، فقوله: ﴿ **يا نُوحُ** ﴾ و﴿ **يا إِبْرَاهِيمُ** ﴾ و﴿ **يا يَحْيَى** ﴾ و﴿ **يا أَيُّهَا الرَّسُولُ** ﴾ و﴿ **يا أَيُّهَا**

---

(١) الأنبياء: ٢.
(٢) الحجر: ٩.

الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ و﴿ **يا نِسَاءَ النبيّ** ﴾ و﴿ **يا أَيُّهَا النَّاسُ** ﴾ و﴿ **قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ التِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا** ﴾ و﴿ **سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ** ﴾ و﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ** ﴾، وغيرها كثير، فلو أنّ الكلام قديم فكيف يحسن الخطاب؟

وقد ذهب الحنابلة إلى أنّ كلامه تعالى حروفاً وأصواتاً قديم، وذهب الأشاعرة وهم بقية أهل السنّة إلى إثبات الكلام النفسي له تعالى، وقالوا: إنّ كلامه تعالى معنىً واحدٍ بسيطٍ قائمٍ بذاته قديم.

وهي أقوال باطلة لأنّها تستلزم ثبوت النفس له تعالى، فيكون جسماً محلاً للحوادث، تعالى الله عن ذلك علّواً كبيراً .

عاشراً: الصدق:

إنّه تعالى صادق لا يجوز عليه الكذب مطلقاً.

وصفاته تعالى هي عين ذاته لسببين:

١- لأنّها لو كانت غير ذاته لكان تعالى محتاجاً في كماليته إلى صفاته، ولو كان محتاجاً لكان ممكناً.

٢- لو كانت غير ذاته، فإمّا أن تكون قديمة أو حادثة قائمة لذاتها أو لغيرها، وإذا كانت قديمة، فيلزم تعدد القدماء، فيكون الله تعالى قديماً، وقدرته التي هي غيره قديمة أيضاً، وكذلك بقيّة صفاته، فيكون النصارى أقل شركاً باعتقادهم أنّ الله ثالث ثلاثة، بينما هؤلاء يقولون بقدم الله وصفاته العشرة.

وإن كانت قائمة بغير ذاته تعالى كان الموصوف بها ذلك الغير، فيكون تعالى على حدِّ قولهم عارياً من الكمالات، والقول بأنّها ليست في محلّ حمق، إذ يستحيل وجود صفة إلاّ في محلّ.

فزيادة الصفات مع القول بالحدوث كفر مستلزم لإنكار الواجب، ومع القدم شرك يستلزم تعدد القدماء، فتعين أن تكون صفاته تعالى هي عين ذاته.

ولا يمكن حصر الصفات الثبوتية ولا الصفات السلبية؛ لأنّ الحصر حدّ، والحدّ نقص، والنقص منزّه عنه المولى تعالى.

أما الصفات السلبية - وسميت بالسلبية لأنّها سالبة للنقائص عنه تعالى، وإثبات الكمال لا يكون شاملاً إلاّ بنفي كُلّ نقصٍ عنه، ويطلق عليها صفات الجلال، وأصولها التي ذكرها علماء الشيعة الإمامية الاثني عشرية - لا تقف عند حدّ، سوى قصور عقول الناس عن إدراكها والإحاطة بها، كما قال تعالى: ﴿ **وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً** ﴾[1]. وقد ذكروا منها:

أولاً: نفي الشريك عنه تعالى:

لبطلان تعدد الواجب، بل إله واحدٌ أحدٌ فردٌ صمدٌ لا شريك له ولا ندٌّ.

ثانياً: نفي الاحتياج:

كما في الحديث: «كان الله ولم يكن معه شيء»[2].

ثالثاً: نفي التركيب والتجزئة:

إنّه تعالى غير مركب من الأجزاء الخارجية، ولا من الأجزاء الذهنية.

رابعاً: نفي الحوادث والعوارض:

إنّه تعالى ليس محلاً للحوادث والعوارض، كالنوم واليقظة والحركة والسكون والقيام والقعود والطلوع والنزول والفرح والضحك والبكاء؛ لأنّ واجب الوجود لا يمكن أن يكون محلاً للحوادث، لأنّها من لوازم الجسم،

---

(١) طه: ١١٠.

(٢) الفصول المهمة في أصول الأئمة للعاملي: ١٥٤.

والله تعالى ليس بجسم ومنزّه عنها، وهي كُلّها مخلوقة له تعالى وهو منزّه عن الاتصاف بها.

وما ورد من وصفه تعالى بشيء من ذلك في الكتاب والسنّة، كقوله تعالى: ﴿ **رَضِيَ اللهُ عَنْهُم** ﴾[1]، و﴿ **غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ** ﴾[2]، ﴿ **فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ** ﴾[3]، و﴿ **الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾[4]، و﴿ **يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** ﴾[5]. وغير ذلك: إنّ المراد منها غاياتها دون مباديها، فغاية الرضا الإكرام والإحسان وغاية الغضب العقاب والعذاب، لذا قيل خذ الغايات واترك المبادئ.

خامساً: نفي الحلول والاتحاد:

إنّه تعالى لا يحلّ ولا يتحد بغيره؛ لأنّ الحال مفتقر إلى المحلّ الذي يحلّ فيه والاحتياج من خواص الممكن، ولأنّ الحلول في مكان يستلزم الخلو من مكان آخر، وهو تعالى موجود في كُلّ مكان لا بمداخلة، وخارج عنه لا بمزايلة كما في حديث سيد البلغاء عليه السلام.

وقد زعم بعض المتنكبين عن صراط الأئمة الأطهار من ذرية خير الأخيار - صلّى الله عليهم - وهم عدد من فرق الصوفية، أنّ العبد إذا بلغ العرفان وفاز بمنزلة الإيقان اتّحد بربه، وسقط عنه التكليف، نعوذ بالله تعالى من شطحات الغارقين في تيه الشيطان وحزبه.

---

(١) وردت في كُلّ من السور التالية: التوبة: ١٠٠، الفتح: ١٨، المجادلة: ٢٢، البيّنة: ٨.
(٢) المجادلة: ١٤، الممتحنة: ١٣.
(٣) الزخرف: ٥٥.
(٤) الأحزاب: ٥٧.
(٥) الفتح: ١٠.

سادساً: نفي الجسمانية:

إنّه تعالى ليس بجسم، لأنّ الجسم من خواص الممكن، ويقبل الأبعاد الثلاثة: الطول والعرض والعمق، مع المكان والحيز، وسنعرض لهذه الصفة في مقارنة مع إخوتنا من الأشاعرة (أهل السنّة)

سابعاً: نفي الرؤية:

لأنّه تعالى لا يرى بحاسة البصر لا في الدنيا ولا في الآخرة، وسنعرض لهذه الصفة في مقارنة مع إخوتنا من الأشاعرة (أهل السنة).

ثامناً: نفي فعل القبيح:

إنّه تعالى لا يفعل القبيح.

تاسعاً: نفي الشبه:

إنّه تعالى لا يشبهه شيء.

وخالف الشاعرة باعتقادهم أنّ الله خلق آدم على صورته.

كما تنقسم صفاته تعالى إلى قسمين: صفات ذات، وصفات فعل.

فالوجود والعلم والقدرة والحياة وغيرها من صفات الذات التي لا حصر لها، هي عين ذاته، والخالقية والرازقية والإحياء والإماتة حادثة باعتبار المخلوق والمرزوق والمحيا والممات، وهي ليست قديمة، فقد كان الله تعالى وحده ولم يكن خالقاً ولا رازقاً ولا محيياً ولا مميتاً، وهي ليست من صفات الكمال حتى يترتب النقص من انتفائها عنه تعالى، بل الكمال في قدرته على الخلق وعلمه بمصلحة وقت إيجادهم.

وخلاصة الفرق بين صفات الذات وصفات الفعل: إنّ صفات الذات هي ما اتصف بها المولى سبحانه وتعالى وامتنع اتصافه بضدها، فنقول: إنّ الله عالم،

ولا يجوز أن نقول: إنّه غير عالم، أو قادر فلا يجوز أن نقول: إنّه غير قادر. وصفات الفعل ما يتصف المولى سبحانه وتعالى بها وبضدها كأن نقول: إنّ الله خلق فلاناً ولم يخلق فلاناً.

ولا يمكن مزيد إظهار صحة ما عليه أهل بيت النبوة من توحيد سليم إلاّ بعرض ما يعتقده غيرهم من المسلمين، والذين كنت منتمياً إليهم بحكم المولد والنشأة، وما استتبعها من تقليد لا يسمن ولا يغني من علم.

فأقول: أما المتنكبون عن صراط الأطهار من أئمة أهل البيت عليهم السلام، فقد ذهبت بهم مذاهبهم إلى تبني معتقدات أساسها الكذب على الله تعالى وعلى رسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، بما ابتدعه لهم علماؤهم وفقهاؤهم، وما زكاه لهم حكّامهم من أباطيل، لو ثابوا إلى رشدهم منها لبكوا على ما فرطوا في جنب الله تعالى بقية حياتهم، ولضحكوا في قرارة أنفسهم على تفاهة عقول مبتدعيها ومنتحليها.

وأي بناء لا يكون أساسه سليما مآله السقوط، والعقيدة التي اختلط فيها الغثّ بالسمين والسقيم بالسليم لا يمكن أن تفرز بعداً غيبياً ولا تواصلاً إلهياً، وهي أقرب إلى الجهالة منها إلى المعرفة، وإلى النفرة منها إلى الحبّ.

والمتتبع لجملة الأحاديث التي أوردها هؤلاء في إثبات جسمانية الخالق، وتفاصيل أجزائه، وجلوسه ونزوله، وتنكره وضحكه، ورؤية المؤمنين له يوم القيامة، يلاحظ إصراراً غريباً من حفاظهم على نقل تلك المفتريات المتعارضة مع القرآن الكريم، ومع غيرها من الروايات القطعية الدلالة والورود.

وترى هؤلاء المتنكبين عن الصراط المستقيم يحثون اتباعهم على التدين بجملة تلك المعتقدات الفاسدة حثاً، ويخوفونهم من تركها أو التشكيك فيها، بل جعلوها عناوين مذاهبهم، فلم ينشأ بينهم غير التعصب

الأعمى والتدين الأعرج، وتولدت فيهم جراء تلك الروايات الفاسدة عقيدة عقيمة وتوحيد أقرب إلى الوثنية وآلهة الإغريق منه إلى توحيد الحقّ تعالى، وحلت بذلك الخرافة محل العلم الإلهي، وظهر القصاصون محل العلماء العدول، فطفحت كتبهم بها، حتى إنّك لا تجد كتاباً عقائدياً أو روائياً إلاّ وفيه نصيب من ذلك الباطل.

وبما أنني بصدد تناول مقام واحد وهو التوحيد فقد أخرجت ما هو متعلق به على أن يكون للنبوّة مقام آخر منفرداً.

أخرج مسلم وغيره من حفاظ الخط الأشعري ما يلي:

١- عن صهيب عن النبيّ ﷺ قال: إذا دخل أهل الجنّة الجنّة، يقول الله تبارك وتعالى: « تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنّة وتنجنا من النار؟ قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عزّ وجلّ»[1] .

٢- عن أبي هريرة أخبر أنّ أناساً قالوا لرسول الله ﷺ: « يا رسول الله هل نرى ربّنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: هل تضارّون في رؤية القمر ليلة البدر؟

قالوا: لا يا رسول الله.

قال: هل تضارّون في الشمس ليس دونها سحاب؟

قالوا: لا يا رسول الله.

قال: فإنّكم ترونه كذلك »[2].

---

(١) صحيح مسلم ١: ١١٢، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية.

(٢) صحيح البخاري ٥: ١٧٩، كتاب تفسير القرآن ، باب إن الله لا يظلم مثقال ذرة، صحيح مسلم ١: ١١٢، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية.

٣- عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: « يد الله ملآى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خلق الله السماوات والأرض، فإنّه لم يغض ما في يده، وقال: وعرشه على الماء وبيده الأُخرى الميزان يخفض ويرفع »[1].

٤- عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: « يتنزّل ربّنا تبارك وتعالى كُلّ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الأخير من الليل فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟»[2].

٥- في حديث طويل عن ابن مسعود جاء فيه: « قالوا: مم تضحك يا رسول الله؟

قال: من ضحك ربّ العالمين »[3].

٦- وعن جابر بن عبد الله في حديث طويل أيضاً: « ... ثُمّ يأتي ربّنا بعد ذلك، فيقول: من تنظرون؟ فيقولون: ننظر ربّنا.

فيقول: أنا ربكم.

فيقولون: حتى ننظر إليك، فيتجلّى لهم يضحك، قال فينطلق بهم ويتبعونه »[4].

٧- عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: « خلق الله عزّ وجلّ آدم على

---

(١) صحيح البخاري ٥: ٢١٣، كتاب التفسير، سورة هود، صحيح مسلم ٣: ٧٨، كتاب الزكاة، باب الابتداء في النفقة.

(٢) صحيح البخاري ٨: ١٩٧، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿أنزله بعلمه..﴾، صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب الترغيب في الدعاء والذكر.

(٣) صحيح مسلم ١: ١٢٠، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

(٤) مسند أحمد ٣: ٣٨٣، صحيح مسلم ١: ١٢٢، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

صورته، طوله ستون ذراعا... »[1].

٨- عن أنس بن مالك أنّ النبيّ ﷺ قال: « لا تزال جهنّم تقول: هل من مزيد حتى يضع فيها ربُّ العزّة تبارك وتعالى قدمه، فتقول: قط قط وعزتك، ويزوى بعضها إلى بعض »[2].

٩- وفي حديث طويل أيضا: « فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون فيقول: أنا ربكم.

فيقولون نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتي ربّنا، فإذا جاء ربّنا عرفناه، فيأتيهم الله تعالى في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم.

فيقولون أنت ربنا، فيتبعونه»، وفي رواية أخرى: «فيتجلى لهم يضحك»[3].

١٠- عن ابن مسعود قال جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: « يا محمّد إنّا نجد أنّ الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك.

فضحك النبيّ ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثُمّ قرأ: ﴿ وَمَا

---

(١) **مسند أحمد ٢: ٣١٥، صحيح البخاري ٤: ١٠٢، كتاب بدء الخلق، باب قول الله تعالى: ﴿ وإذ قال ربّك للملائكة ..﴾، صحيح مسلم ٨: ١٤٧، كتاب الجنة، باب صفات أهل الجنة.**

(٢) **مسند أحمد ٣: ٢٣٠، صحيح البخاري ٧: ٢٢٥، كتاب الإيمان، باب الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته، صحيح مسلم ٨: ١٥٢، كتاب البرّ والصلة، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء.**

(٣) **مسند أحمد ٢: ٢٧٥، صحيح البخاري ٧: ٢٠٥، كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، صحيح مسلم ١: ١٢٢، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنّة منزلة فيها.**

قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾[1].

١١- وفي رواية أُخرى: « والجبال والشجر على إصبع، ثُمّ يهزّهنّ فيقول: أنا الملك أنا الله »[2].

١٢- وفي رواية أُخرى: « يجعل السماوات على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع »[3].

١٣- وعن ابن عمر مرفوعاً: « يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثُمّ يأخُذهنّ بشماله، ثُمّ يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»[4].

١٤- وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمان إلا كخردلة في يد أحدكم »[5].

هذه الروايات وغيرها ممّا لم أتوصل إليه؛ لأنّني استقيتها من مسند أحمد وصحيح البخاري وصحيح مسلم وكتب التفسير مؤيدة للاعتقاد العام المتداول عند تلك الطائفة في أنّ للخالق - تعالى عن ذلك - جسماً، وجعلوا له صفات، وقالوا بأنّها غير ذاته، وأنّ له أعضاء كالوجه واليدين والعينين والرجلين وانه ينزل ويأتي ويضحك ويتنكر إلى غير ذلك من الأعضاء والحركات التي لا تجوز على الذات الإلهية؛ لأنّها كُلّها من مستلزمات الممكن والحادث، وما

(١) مسند أحمد ١: ٤٥٧، صحيح البخاري ٦: ٢٣، كتاب التفسير، تفسير سورة الزمر، صحيح مسلم ١: ١١٩، كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجاً.
(٢) مسند أحمد ١: ٤٥٧، صحيح مسلم ٨: ١٢٥، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب ابتداء الخلق.
(٣) نفس المصدرين السابقين.
(٤) صحيح مسلم ٨: ١٢٦، كتاب صفة القيامة، باب ابتداء الخلق.
(٥) جامع البيان للطبري ٢٤: ٣٢، تفسير الثعلبي ٨: ٢٥٣.

هي في حقيقتها إلاّ سفسطات وسخافات وتحريفات جاء بها اليهود إلى المسلمين (السنّة)، ليدخلوهم في نفس عقيدتهم التي اختلقوها وعكفوا عليها مذ طلبوا رؤية الله تعالى، وجاءوا بالعجل، متصوّرين أنّ الله تعالى جسم قوي جداً ليس كالبشر، ورأوا أنّ العجل قد يكون أقرب إليه من غيره.

ولكي نناقش هذه المسألة من جميع جوانبها فينعقد البحث في وجهتين:

الوجهة الأولى: نظرة في أسانيد الأحاديث

لم يكن بالإمكان غير مجاراة النسق، بالاعتماد على كتب الجرح والتعديل التي أخذ بها اتباع هذه العقيدة الفاسدة، ولو كان في الإمكان تجنبها لفعلت، لأنّي لم أر فيها غير عجائب الجرح وغرائب التعديل، فهذا الحافظ يجرح الآخر، وذلك الراوي يفسق صاحبه، وهذا لا يرضى عن نظيره، لأسباب تافهة وواهية لا ترقى إلى المقاطعة والتفسيق والترك ورد الحديث. لكن إثبات بطلان عقيدة التوحيد عند ذلك الجانب من المسلمين دفعني إلى أن تكون الحجة من كتبهم المعتمدة كاملة، لعل الله تعالى يجعلنا سبباً إلى هدايتهم، وإعادتهم إلى منهاج الصالحين، وسبيل الأبرار محمّد وآله الأطهار.

ومسألة الجرح والتعديل وحدها تتطلب بحثاً مستقلاً لإماطة اللثام عن تجاوزات أصحابها، لذلك حريّ بنا أن نمضي لنأخذ ما يفي بالحاجة، ويقيم الدليل على بطلان تلك الصفات، وعدم صحة ذلك التمثيل الذي لا يجوز على بديع السماوات والأرض، فنقول:

- حماد بن سلمة بن دينار: قال فيه الذهبي: له أوهام، عن عبد الرحمان بن مهدي: كان حماد لا يعرف بهذه الأحاديث التي في الصفات حتى خرج مرّة

إلى عبادان فجاء وهو يرويها، فلا أحسب إلاّ شيطاناً خرج إليه من البحر فألقاها إليه.

قال ابن الثلجي: سمعت عباد بن صهيب يقول: إنّ حماداً كان لا يحفظ وكانوا يقولون: إنّها دست في كتبه، وقد قيل: إنّ ابن لأبي العوجاء كان ربيبه، فكان يدسّ في كتبه، ومن أمثلة أحاديثه غير ما رواه مسلم والبخاري:

١- عن حماد بن سلمة عن أنس أنّ النبيّ ﷺ قرأ: ﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ** ﴾ قال: « أخرج طرف خنصره وضرب على إبهامه، فساخ الجبل »، فقال حميد الطويل لثابت: تحدث بمثل هذا؟

قال فضرب في صدر حميد وقال: يقوله أنس ويقوله رسول الله ﷺ وأكتمه أنا! رواه جماعة عن حماد وصححه الترمذي[1].

٢- وقال ابن عدي: حدثنا عبد الله بن عبد الحميد الواسطي، حدثنا النضر بن سلمة شاذان بن عامر، عن حماد، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس: « أنّ محمّداً رأى ربّه في صورة شابٍّ أمرد دونه ستر من لؤلؤ، قدميه أو رجليه في خضرة »[2].

قال الماوردي: قلت لأحمد بن حنبل: يقولون لم يسمع قتادة عن عكرمة؟

---

(١) سنن الترمذي ٤: ٣٣٠/٥٠٦٩ وقال: » هذا حديث حسن صحيح، لا نعرفه إلاّ من حديث حماد ابن سلمة ، كتاب السنّة لابن أبي عاصم: ٢١٠، قال محقق الكتاب الشيخ محمد ناصر الدين الألباني: » ٤٨٠- إسناده صحيح على شرط مسلم ولم يحرجه.
والحديث أخرجه الطبري في تفسير(٩/٣٧)، وأخرجه الترمذي (٢/١٨٠)، وابن خزيمة في التوحيد: ٧٥، والحاكم (٢/٣٢٠)، وأحمد (٣/١٢٥) ... .
(٢) الكامل في التاريخ لابن عدي ٢: ٢٦١، تاريخ بغداد للبغدادي ١١: ٢١٤، ميزان الاعتدال ١: ٥٩٤.

فغضب وأخرج كتابه بسماع عكرمة في ستة أحاديث[1].

الحسن بن سفيان حدثنا هدبة قال: « صلّيت على شعبة، فقيل أرأيته؟ فغضب وقال: رأيت حماد بن سلمة وهو خير منه، كان سنياً وكان شعبة رأيه رأي الكوفيين »[2].

أ – ثابت البناني: قال فيه الذهبي: « قال ابن عدي: ما وقع في حديثه من النكارة فإنّما هو من الراوي عنه؛ لأنّه روى عنه ضعفاء وكان يقص »[3].

ب – عبد الرحمان بن أبي ليلى: « قال فيه إبراهيم النخعي: كان صاحب أمراء »[4].

ج – روح بن عبادة القيسي: « قال ابن الديني: نظرت لروح في أكثر من ١٠٠ ألف حديث كتبت منها ١٠ آلاف. تكلم فيه القواريري وقال: لا أحدّث عنه. وقال أحمد بن الفرات: طعن في روح ١٢ رجلاً فلم ينفذ قولهم فيه.

وروى الكتاني عن أبي حاتم قال: لا يحتج به. وقال النسائي في العتق والكنى: روح ليس بالقوي. وكان عفان لا يرضى أمر روح »[5].

د – معمر بن راشد: قال فيه الذهبي: « له أوهام معروفة. قال أبو حاتم: ما حدّث به في البصرة ففيه أغاليط. وروى الغلابي عن يحيى بن معين قال: معمر عن ثابت ضعيف »[6].

---

(١) ميزان الاعتدال ١: ٥٩٤.
(٢) ميزان الاعتدال ١: ٥٩٤، الكامل لابن عدي ٢: ٢٥٨.
(٣) ميزان الاعتدال ١: ٣٦٣.
(٤) ضعفاء العقيلي ٢: ٣٣٧، ميزان الاعتدال ٢: ٥٨٤.
(٥) ميزان الاعتدال ٢: ٥٩، تاريخ بغداد ٨: ٤٠٢.
(٦) ميزان الاعتدال ٤: ١٥٤.

هـ – محمّد بن مسلم ابن شهاب المعروف بالزهري: « كان داعية الأمويين، ولاه يزيد بن عبد الملك القضاء، واختاره هشام بن عبد الملك معلماً ومؤدباً لأولاده، أنهى حياته موصولاً إلى جانب الأمويين ومن أفضل المقرّبين عندهم، وقد استعان به عبد الملك بن مروان لما ضج المسلمون من منعهم عن الحجّ إلى بيت الله الحرام عندما كانت الحجاز تحت سيطرة عبد الله بن الزبير. فوضع له الزهري الحديث المعروف: لا تشد الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي ومسجد بيت المقدس. وروى له أنّ رسول الله ﷺ قال: الصلاة في المسجد الأقصى تعدل ألف صلاة » .

وروى الخطيب البغدادي عن عبد الرزاق بن همام عن معمر بن راشد تلميذ الزهري أن الوليد بن إبراهيم الأموي جاء إلى الزهري بصحيفة وضعها أمامه وطلب إليه أن يأذن بنشر أحاديث منها على أنه سمعها منه فأجازه الزهري على ذلك من غير تردد كبير، وقال له: من يستطيع أن يخبرك بها غيري؟ وحدث معمر عنه قال: لقد اكرهنا هؤلاء الأمراء على أن نكتب أحاديث[1].

هؤلاء بعض رواة أحاديث التجسيم والرؤية، نتوقف عندهم اختصاراً، لأنّ ما ذكر عنهم يسقط روايتهم وروايات غيرهم التي هي على نفس الشاكلة، والمختلفة عنها سنداً، لحصول تدليس فيه، وقد كان التدليس في سند الرواية عنوان أغلب حفاظهم ورواتهم، خاصّة إذا كان قاصاً.

والقاص الذي يجلس في المسجد بجراية وأمر من بني أُمية، ليملأ عقول المسلمين أوهاماً، وصاحب أمراء الظلم والجور، وداعيتهم بكذبه وبهتانه لتبرير

(١) كتاب السنّة ومكانتها في التشريع لمصطفى السباعي: ٢٣٩.

أفعالهم وتقوية أركان ملكهم، حري بمن يخشى الله أن لا يأخذ عنه، ولا يلتفت إلى مقالاتهم، كما في الحديث المشهور والمروي من طريق الطاهرين والصادقين من ذرية رسول الله – صلى الله عليه وعليهم أجمعين –: « إذا رأيتم الفقهاء قد ركنوا إلى السلاطين فاتهموهم »[1].

ثم انظر إلى ضيق صدور هؤلاء الذين تراهم يغضبون ويتشنجون ويضربون على صدور الناس، ويطردونهم لمجرد سؤال، فأيّ علم يسمح لهم بذلك؟ وأيّ دين يبح لهم مثل تلك الحركات؟

لكنه في عرف المعدلين عندهم طالما أنّه سنّي منتصر لمذهبه فلا بأس عليه، وإن فعل ما فعل وقارف ما قارف، وجاء بالطامات والغرائب ونسبها إلى النبيّ ﷺ، وإن اتهمه أهل الأرض، وليس ١٢ رجلاً كما في شأن روح ما نفذوا إلى إسقاطه وتجريحه، عاملين بمثل معزى وإن طارت.

والذي رأيته من خلال تصفحي لكتب الجرح والتعديل أنّ صاحب البدعة والمخالف لسنّة رسول الله ﷺ يُضفى عليه لقب (سُنّي) و(صاحب سنّة)، والمتتبع لأقوال رسول الله وأفعاله وتقريراته يلقبونه (صاحب بدعة) أو (رافضي بغيض)!.

هذا من حيث الأسانيد.

أمّا متون الأحاديث المخرجة، ففيها ما ينبئك عن دسها من بين أحاديث رسول الله ﷺ، وهو منها براء.

فالأحاديث: ١-٢-٦-٩ تتحدث عن رؤية المؤمنين ربهم سبحانه وتعالى يوم القيامة.

---

(١) العدد القوية للحلي: ١٥٠، تهذيب الكمال للمزي ٥: ٨٨.

والأحاديث: ٣- ٤-٥-٧-٨-١٠-١١-١٢-١٣-١٤ جاءت مجسّمة للمولى سبحانه وتعالى، مجزئة له وجاعلة له أعضاء كالوجه واليد والأصابع، ومحلاً للحوادث كالضحك والتنكر، ومنحازاً في جهة كنزوله، وذهابه بالمؤمنين إلى الجنّة، ووضع قدمه في النار.

كُلّ هذه النعوت والصفات لا تجوز عليه سبحانه حتى وان أطلقها كناية في كتابه العزيز؛ لأنّ كلامه تعالى جاء مسايراً لأسلوب العرب في اللغة وكثرة الأمثال والمجاز فيها من ناحية؛ ولأنّه تعالى خاطبنا في كتابه العزيز على قدر عقولنا، تقريبا للفهم إليها؛ لأنّه لا مجال لاستيعاب حقيقته المطلقة ومن المجاز الذي جاء في القرآن الكريم:

١- ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾[(١)].

٢- ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا ﴾[(٢)].

٣- ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي ﴾[(٣)].

٤- ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا ﴾[(٤)].

٥- ﴿ وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ ﴾[(٥)].

٦- ﴿ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾[(٦)].

٧- ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاّ وَجْهَهُ ﴾[(٧)].

---

(١) الفتح: ١٠.
(٢) هود: ٣٧.
(٣) طه: ٣٩.
(٤) الطور: ٤٨.
(٥) الأنعام: ٣٠.
(٦) الزمر: ٥٦.
(٧) القصص: ٨٨.

٨- ﴿ يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾[1].

٩- ﴿ اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾[2]..... إلى آخره

فأحاديث الرؤية - مثلاً - لا تستقيم؛ لأنّ جميع العقلاء وضعوا للرؤية شروطاً ثمانية لا تتم إلاّ بها، وهي:

أولاً: سلامة الحاسّة.

ثانياً: المقابلة أو حكمها.

ثالثاً: عدم القرب المفرط؛ لأنّ المرئي لو التصق بالعين لا يمكن رؤيته.

رابعاً: عدم البعد المفرط؛ لأنّ المتناهي عن مدى العين لا يمكن رؤيته.

خامساً: عدم الحجاب بين الرائي والمرئي.

سادساً: عدم الشفافية؛ لأنّ الجسم الشفاف لا يمكن رؤيته.

سابعاً: تعمّد الرائي للرؤية.

ثامناً: وقوع الضوء عليه؛ لأنّ الواقع في الظلمة لا يمكن رؤيته.

وقد أكد أئمة الهدى من أهل بيت المصطفى - صلى الله عليه وعليهم - تبعاً لما ورثوه عن جدّهم، وكما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا ﴾[3].

إنّ المولى سبحانه وتعالى لا يرى بحاسّة البصر، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وتبعهم علماءهم وشيعتهم، واستدلوا على ذلك بأمور هي:

أولاً: إنّ المرئي بحاسّة البصر لا بدّ أن يكون جسماً ومقابلاً وذا مثال وصورة ومكان، والمولى سبحانه وتعالى منزه عن كُلّ ذلك.

---

(١) النحل: ٥٠.

(٢) البقرة: ١٥.

(٣) فاطر: ٣٢.

ثانياً: إنّ المرئي محاط بالبصر، والمولى تعالى محيط بكُلّ شيء فكيف يمكن للمُحيط أن يُحاط؟

ثالثاً: تعارض ذلك مع القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ **يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ فَقالُوا أَرِنَا اللّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ** ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾[2].

وفي تفسير هذه الآية قال الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: « إنّما عني إحاطة الوهم، فالله أعظم من أن يرى بالعين »[3].

وقوله تعالى: ﴿ **قالَ لَنْ تَرانِي** ﴾[4].

واستعماله تعالى للن التأبيدية دليل على عدم إمكانية رؤية المولى سبحانه وتعالى، ولو كانت جائزة لما عد طلبها أمراً عظيماً، ولما أرسل عليهم صاعقة، ولما حكم بظلم الطالبين لها!

عن محمّد بن علي الباقر عليه السلام: « أوهام القلوب أدق من أبصار العيون، أنت قد تدرك بوهمك السند والهند والبلدان التي لم تدخلها ولا تدركها ببصرك، وأوهام القلوب لا تدركه فكيف أبصار العيون »[5].

---

(١) النساء: ١٥٣.

(٢) الأنعام: ١٠٣.

(٣) الكافي للكليني ١: ٩٨، ح٩، التوحيد للشيخ الصدوق: ١١٢، ح١٠، وغيرها من المصادر.

(٤) الأعراف: ١٤٣.

(٥) الكافي للكليني ١: ٩٩، ح١١، التوحيد للشيخ الصدوق: ١١٣، ح١٢، وغيرها من المصادر.

وعن عاصم بن حميد عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: ذاكرت أبا عبد الله عليه السلام في ما يروون من الرؤية، فقال: « الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور العرش، والعرش جزء من سبعين جزءاً من نور الحجاب، والحجاب جزء من سبعين جزءاً من نور السر، فإن كانوا صادقين فليملأوا أعينهم من الشمس ليس دونها سحاب »[1].

أما أحاديث التجسيم، ولكي يستكمل هؤلاء صورة المولى سبحانه وتعالى، بعدما نسبوا له من الأعضاء ما يتطابق مع المخلوق، وجاءوا بفرية أكبر من سابقتها، فقالوا على لسان الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: « إن الله خلق آدم على صورته طوله ستون ذراعا »[2].

وبتجميع بسيط لما أخرجوه من روايات متهافتة لحماد بن سلمة، وتأويلات متهالكة لمجاهد بن جبير المقرئ المكي المفسر، صاحب السنّة - حسب زعمهم - أنّه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ **عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً** ﴾ : يجلسه معه على العرش »[3].

وطالما أن مبلغ علمهم أوصلهم إلى الاعتقاد بتطابق الخالق مع المخلوق في الشكل فلم لا يجلسه معه على العرش، وأيّ عرش هذا الذي يجول في خاطرهم؟ وأيّ كرسي يتصوّرون حتى يستشفون منه الجلوس، وقد جاء عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنّ العرش والكرسي علمان من علومه، علم جعله لخاصّته وأوليائه، وجعل منه للناس، وعلم لا يعلمه إلاّ هو. لذلك فإنّ اصطلاح اللغة

---

(١) الكافي للكليني ١: ٩٨، ح٧، التوحيد للشيخ الصدوق: ١٠٨، ح٣، وغيرها من المصادر.
(٢) تقدّم تخريجه.
(٣) تفسير مجاهد ١: ٣٦٠، وعنه جامع البيان لابن جرير الطبري ١٥: ١٨١.

على العالم بالكرسي دارجة عند العرب، ومنها قول الشاعر:

تحــف بهــم بــيض الوجــوه   كراسي بالأحداث حين تنوب

وقول آخر:

مـالي بـأمرك كرسـي أكاتمـه   وهــل بكرســي علــم الغيــب

ثُمّ تعال إلى من ترعرعت الخرافة في كتبهم، وتقبّلوها بالتسليم، لنسألهم: ما مقدار الذراع التي قاسوا بها آدم عليه السلام ؟

فإنّ كانت بمقدار مقاس الذراع اليوم فلن يكون طول آدم أقل من ثلاثون متراً، وإن جارينا هؤلاء الحشاشين في تخيلاتهم واعتبرنا أنّ مقاس الذراع في العصر النبوي أكبر من مقاس ذراع اليوم، فإنّ طول آدم سيكون حتماً أطول ممّا أشرنا إليه، وعليه فإنّ الديناصورات التي اكتشف وجودها علماء الآثار والأحياء ليست إلاّ سحالي وحيوانات صغيرة مقارنة بطول آدم!!

ثُمّ إذا سلمنا بذلك يجب تبعاً له أن نؤمن بنظرية التراجع الفيزيولوجي والتقلّص في أحجام البشر، وأنّه سيأتي يوم يصير الإنسان فيه قزماً بطول الذراع أو أقل، وقد يصل الأمر إلى أن يصبح بحجم لا يرى فيه بالعين المجردة؛ لأنّ القامة الأُولى لآدم تناقصت بسرعة كبيرة توحي بالمآل الذي ذكرناه.

وإنّني إن أسفت على شيء فإنّني لا آسف إلاّ على عقول أودعها المولى سبحانه وتعالى في هؤلاء القوم، وجعلها وعاء العلوم والمعارف كيف انقلب حالها لتصبح أوعية لمعتقدات واهية لا تستند إلى منطق؟!!

إنّ المتتبع للكتب العقائدية والروائية عند عامّة هؤلاء القائلين بتجسيم المولى تعالى يدرك – وهو يتصفح أقوالهم ورواياتهم بالخصوص – مدى

إصرار هؤلاء القوم على التمسّك بما لم يثبت بالدليل، وإنّما أخذ بالتقليد الذي لا يجدي نفعاً.

ويتفرّع من الأشاعرة في هذا الاعتقاد خصوصاً المالكية والحنابلة من جاء بعدهم من اتباع ابن تيميّة وتلميذه ابن الجوزيّة، والوهابية من اتباع محمّد بن عبد الوهاب، لم يكتفوا بما أحدثوه من انحراف في عقيدة من اتبعهم، بل قالوا: إنّهم أصحاب الدين السوي، والعقيدة الحقة الخالية من البدع والضلالات التي نسبوها لغيرهم ظلما وعدوانا وافتراء، ليس عن حجة وبرهان، ولا دليل وبيان، سوى ما عكفوا عليه من تعبد بالنصّ المكذوب، وتآويل غريبة عن العقل والمنطق والشرع، والمتصفح لكتبهم، ككتب ابن تيمية ورسائله كـ (العقيدة الحموية) و(العقيدة الواسطية)، وكتاب (التوحيد) لمحمّد بن عبد الوهاب يقف على مدى ترسخ مسألة التجسيم للمولى تعالى فيهم، بما يعتقدونه من إثبات لجهة وجوده، وما ينسبون إليه من الجوارح والحالات التي تطرأ على الجسم، والقول برؤيته تعالى يوم القيامة.

ولم يقف هؤلاء عند ذلك الحدّ في تطاولهم السخيف، بل راحوا يستنكرون ويشنعون على كُلّ من قال بتنزيه المولى عن كُلّ نقصٍ، ولم تكن إرهاصاتهم ولا شطحاتهم تلك وليدة استنتاج علمي أو بحث فكري حتى تصنف في دائرة الاجتهاد، وإنّما هو دليل يخرج به كُلّ ذي بصيرة بعد اطلاعه عليها، يعبر عن سطحية وضحالة علوم كُلّ من تبنّى عقيدة هؤلاء الذين أُطلق عليهم طواغيت العصور (أهل السنّة والجماعة)!!، وهم للبدعة أقرب وأولى بالتسمية، فعن أيّ سنّة يتحدثون؟ إن كانت سنّة رسول الله ﷺ، فأهل بيته الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وقرنهم النبيّ الأكرم

ﷺ بالكتاب العزيز، أقرب وأولى عقلاً ونقلاً، وإن كانت سنّة الظالمين والمحرفين الكلم عن مواضعه، كحكام بني أمية ومن جاء بعدهم، فإنّها لا تغني عن الحق شيئاً.

قال أبو حاتم (أحمد بن محمّد الرازي) في معرض بيانه لهؤلاء الذين يعتقدون أنّ الله تعالى جسم: « ويطلق على بعضهم الصفاتية والحشوية، وقد لقبوا بذلك لاحتمالهم كُلّ حشو روي من الأحاديث المختلفة والمتناقضة، ولروايتهم أحاديث كثيرة مما أنكره عليهم أصحاب الرأي وغيرهم من الفرق في التشبيه وغير ذلك، ويقال لهم: المشبهة، لروايتهم الأحاديث الكثيرة في التشبيه، واحتمالهم الأخبار المنكرة عند غيرهم مثل قولهم: إنّ الله عزّ وجلّ ينزل إلى السماء الدنيا في قفص من الملائكة » .

وعلى ذكر القفص من الملائكة، فقد روى آخرون من نفس الفريق الذي يدعي تبنيه لسنة رسول الله ﷺ أنّ الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا على ظهر حمار، فقد يكون في اعتقاد أصحاب رواية القفص أنّهم وضعوا الله تعالى على وسيلة أفضل!! لكن الذي جاء من بعدهم لم يستسغ مسألة النزول بذلك الشكل وعلى تلك الحال، فأقرّ بالنزول وأنكر الكيفية، لذلك فإنّك عندما تتصفح كتبهم الروائية المعتمدة، فإنّك تجد روايات النزول بغير كيف، ولا يمكنك أن تعثر على النزول بالكيف إلاّ في الكتب التي ألفت في الفرق الإسلامية ككتاب (الفرق بين الفرق) وكتاب (الملل والنحل) من اتباع تلك المذاهب.

ويطلق عليهم السلف لقول الشهرستاني: « اعلم أنّ جماعة كبيرة من السلف كانوا يثبتون لله تعالى صفات أزليّة.. ولا يفرقون بين صفات الذات وصفات

الفعل، بل يسوقون الكلام سوقاً واحداً، وكذلك يثبتون صفات خبرية، مثل: اليدين والوجه ولا يؤولون ذلك، إلاّ أنّهم يقولون: هذه صفات قد وردت في الشرح فنسميها صفات خبرية. ولمّا كانت المعتزلة ينفون الصفات، والسلف يثبتون الصفات، سمّي السلف (صفاتية)، والمعتزلة (معطلة) فبالغ بعض السلف في إثبات الصفات، إلى حد التشبيه بصفات المحدثات »[1].

أمّا ابن تيمية فيقول: « وأصحاب الحديث ليسوا جميعاً على كلمة واحدة، وإنّما كان لبعضهم آراء لم يوافقه عليها غيره، فيضطر أحدهم أحياناً للوقوع بالبدعة في رده على البدعة، كما وقع الإمام أبي القاسم عبد الرحمان بن مندة في قوله: خلو العرش إذا نزل الله إلى السماء الدنيا، وكتب في ذلك مصنف سماه: الرد على من زعم أنّ الله في كُلّ مكان، وعلى من زعم أنّ الله ليس له مكان، وعلى من تأوّل النزول على غير النزول »[2].

وابن تيمية نفسه على ما حكى عنه ابن بطوطة في رحلته، قد سمعه يخطب على منبر الجامع الأموي بدمشق: « إنّ الله ينزل إلى السماء الدنيا كنزولي هذا » ونزل مرقاة[3].

وذلك هو الرأي السائد لدى فرق السنّة والجماعة، بكُلّ تفرعاتها، ولم ينج من براثن معتقدهم هذا إلاّ قلّة ممّن كان يستنجد بعلوم أهل البيت عليهم السلام.

ويظهر من خلال ذلك كُلّه أنّ واضعي أحاديث النزول لم يكونوا من الذين يعتقدون بكروية الأرض، بل الظاهر هو اعتقادهم بتسطحها، لأنّ الثلث الأخير من الليل لا ينتهي من السماء الدنيا إلاّ بانتهاء الدنيا نفسها، ولو فكّر ابن تيمية

(١) الملل والنحل للشهرستاني ١: ٩٢.
(٢) مجموع الفتاوى الكبرى ٢١: ٢٤٠ .
(٣) رحلة ابن بطوطة: ٩٠.

وابن مندة وأبا الفراء ومن تبعه من الحنابلة ومالك واتباعه، وأعطوا لعقولهم مجال السؤال والبحث والإجابة: لردوا حديث النزول؛ لاستحالة إمكانه.

وإلى الذين لا يزالون يعتقدون بصحة أحاديث النزول نقول لهم: إذا سلّمنا بمقالتكم تلك في نزول الباري تعالى فمتى يكون الصعود؟

وقد عرض حديث النزول على الإمام علي بن موسى الرضا ثامن أئمة أهل البيت عليه السلام فقال: «لعن المحرفين الكلم عن مواضعه، والله ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله كذلك، إنّما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله تبارك وتعالى ينزل ملكاً إلى السماء الدنيا كُلّ ليلة، في الثلث الأخير، وليلة الجمعة أوّل الليل فيأمره، فينادي: هل من سائل فأعطيه ؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟»[1].

لأن المولى تعالى ليس في حيز ولا في جهة ولا هو محتاج إلى فعل كي يفعله: ﴿ **إِنَّما أَمْرُهُ إذا أَرادَ شيئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾[2].

أما التجسيم في عمومه فإنّ الشيخ إسماعيل بن عبد الرحمان النيسابوري الصابوني قد قال: «ويثبتون له جلّ جلاله ما أثبت لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وآله، فيقولون: إنّه خلق آدم بيديه، وكذلك يقولون في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن الكريم، ووردت به الأخبار الصحاح من السمع والبصر والعين والوجه... والفرح والضحك وغيرها - ويضيف الشيخ -: ويعتقد أهل الحديث ويشهدون أنّ الله سبحانه وتعالى فوق سماواته على عرشه، ويثبتون نزول الربّ سبحانه إلى السماء الدنيا من غير تشبيه له.

---

(١) التوحيد للشيخ الصدوق: ١٧٦، عيون أخبار الرضا عليه السلام للشيخ الصدوق ٢: ١١٦، الاحتجاج للطبرسي ٢: ١٩٣، بحار الأنوار ٨٤: ١٦٣.

(٢) ياسين: ٨٢.

ويوكلون علمه إلى الله، وكذلك يثبتون المجيء والإتيان المذكورين في قوله عزّ وجلّ: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ ﴾ . و: ﴿ وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[1].

ولأهل السنّة في فرارهم من الاعتراف بالتقصير وقلّة العلم وفقدان الحجّة طريق يسمّونه (ترك التأويل وتوكيل العلم فيه إلى الله تعالى)، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَالرّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا ﴾[2]. وقد ردّ عليهم الشيخ محمّد حسن المظفر - طيب الله ثراه - بقوله: « إنّ الآية الكريمة التي يعتبر هؤلاء نصّ على أنّ الراسخين في العلم جاهلون بالمتشابهات، ويوكلون علمها إلى الله تعالى بدعوى أن قوله تعالى: ﴿ وَالرّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ﴾ جملة مستأنفة، ولا أظن عارفاً يرضى به، وينكر أن يكون الراسخون عطفاً على لفظ الجلالة.

كيف وذلك يستلزم مخالفة الظاهر في أن يكون علم التأويل مختصاً بالله تعالى، فيكون النبيّ ﷺ مرسلاً بما يجهله، وما يخلو من الفائدة له ولأمته، وخطئاً في حق أمير المؤمنين عليه السلام أنّه عالم علم الكتاب؟!!

وظنّي أنّ الداعي لهم إلى مخالفة الظاهر والتزام هذه المحاذير هو إنكار فضل آل محمّد - صلى الله عليهم - فإنّهم لو أقرّوا بأنّ قوله ﴿ وَالرّاسِخُونَ ﴾ عطف على لفظ الجلالة لم يمكنهم إنكار فضل آل محمّد، العالمون بمتشابه القرآن بعد أن أخبر النبيّ ﷺ أنّهم قرناء القرآن، لا يفارقونه، حتّى يردا عليه الحوض، فإنّه يقتضي علمهم بكُلّ ما فيه، وإلاّ لفرق بينهم وبينه الجهل به.

(١) الفجر: ٢٢.
(٢) آل عمران: ٧.

فالحقّ أنّ الراسخون في العلم عالمون بالمتشابه كُلّه، وأنّهم مخصصون بالعترة الطاهرة، وإذا خصهم رسول الله ﷺ بعدم المفارقة للقرآن أوجب على أمته التمسك به وبهم »[1].

وعلى ذلك فإنّ دعوى اختصاص المولى بعلم متشابه القرآن باطلة عقلاً ونقلاً، لأنّه تكليف بما لا يطاق من جهة، ولا يستند إلى أساس منطقي من جهة أُخرى، كما لا يدخل المتشابه من القرآن في علم الغيب، حتى ينصرف الاعتقاد به مجملاً.

عن إسحاق بن راهويه قال: قال لي الأمير عبد الله بن طاهر: « يا أبا يعقوب هذا الحديث الذي ترويه عن رسول الله ﷺ ينزل ربّنا كُلّ ليلة إلى السماء الدنيا كيف ينزل؟

قال: قلت أعزّ الله الأمير لا يقال لأمر الرب كيف؟ إنّما ينزل بلا كيف »[2].

وعن محمّد بن سلام: « سألت عبد الله بن المبارك عن نزول ليلة النصف من شعبان؟

فقال عبد الله: يا ضعيف ليلة النصف، ينزل كُلّ ليلة.

فقال الرجل: يا أبا عبد الله كيف ينزل؟ أليس يخلو ذلك المكان منه؟

فقال عبد الله: ينزل كيف يشاء، ثُمّ قال: وخبر نزول الربّ كُلّ ليلة إلى السماء .. خبر متفق على صحته، مخرج في الصحيحين من طريق مالك بن أنس، عن الزهري وابن سلمة، عن أبي هريرة »[3].

---

(١) عقيدة السلف وأصحاب الحديث: ١٦١ ـ ٢٠٠.

(٢) توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيّم ١: ٥١٦.

(٣) الغنية عن الكلام وأهله ١: ٢٢ ـ ٢٣.

وأخرج البيهقي في الاعتقاد عن يحيى بن يحيى يقول: « كنّا عند مالك بن أنس، فجاء رجل فقال: يا أبا عبد الله، قوله تعالى: ﴿ **الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى** ﴾ كيف استوى؟

فأطرق مالك رأسه، حتى علاه الرمضاء ثمّ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعاً، فأمر به أن يخرج »[1].

واستمر ترسيخ عقيدة التوحيد المحرفة بذلك الشكل، والتي تتطابق إلى حدّ بعيد مع عقيدة اليهود والنصارى في التجسيم ومن قبلهم قدماء الإغريق والبربر وعرب الجاهلية، إلى أن جاء أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (٢٧٠/٣٢٤) بآرائه التي خرج بها إلى الناس في العقيدة، وقد كان من قبل مائلاً إلى الاعتزال، وانصرف عامّة اتباع تلك المذاهب التي لا ترى عن الصحابة بما فيهم من برّ وفاجر بديلاً عن أخذ الدين والعقيدة، إلى الأخذ بأقواله وآرائه في العقيدة، ومن جملة ما جاء به الأشعري في التوحيد قوله: « إنّ الله علا على عرشه كما قال: ﴿ **الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى** ﴾ ، وأن له يدين بلا كيف، كما قال: ﴿ **خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** ﴾، وأنّ له عينين بلا كيف، كما قال: ﴿ **تَجْرِي بِأَعْيُنِنا** ﴾، وأنّ له وجهاً بلا كيف، كما قال: ﴿ **وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ** ﴾، وأنّه يجيء يوم القيامة هو ملائكته كما قال: ﴿ **وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً** ﴾، وأنّه يقرب من عباده كيف يشاء، كما قال: ﴿ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾ .. ونصدق بجميع الروايات التي يثبتها أهل النقل من النزول إلى السماء الدنيا.. »[2].

---

(١) الاعتقاد للبيهقي: ٢١٠.
(٢) أقاويل الثقات ١: ١٤٥.

قال ابن بطال: « ذهب جمهور أهل السنّة وجمهور الأمة إلى جواز رؤية الله في الآخرة .. لإمكان رؤية الشيء من غير إحاطة بحقيقته »[1].

قال القرطبي: « وأهل السنّة لا يشترطون شيئاً من ذلك سوى وجود المرئي، وإنّ الرؤية إدراك يخلقه الله تعالى للرائي فيرى المرئي، وتقترن بها أحوال يجوز تبدلّها »[2].

وقال النووي أيضاً: « مذهب أهل السنّة أنّ رؤية المؤمنين ربّهم ممكنة، ونفتها المبتدعة من المعتزلة والخوارج، وهو جهل منهم، فقد تضافرت الأدلّة من الكتاب والسنّة وإجماع الصحابة وسلف الأمة على إثباتها في الآخرة للمؤمنين، وأجاب الأئمة عن اعتراضات المبتدعة بأجوبة مشهورة، ولا يشترط في الرؤية تقابل الأشعة ولا مقابلة المرئي وان جرت العادة بذلك فيما بين المخلوقين »[3].

انظر هداك الله تعالى إلى هذا الهوس! وتأمّل بعقلك مدى اجتراء تلك الفرق على الله تعالى؟! كأنّهم في ذلك يتّبعون بني إسرائيل، وأن ضرب الله تعالى بهم مثلاً، قال تعالى: ﴿ **أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أو تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** ﴾[4].

ولم يقفوا عند هذا الحد فجوزوا رؤية المولى سبحانه وتعالى في المنام، قال ابن حجر في فتح الباري: « وجوزوا رؤية الباري عزّ وجلّ في المنام مطلقاً، ولم يجروا فيها الخلاف في أنّ النبيّ ﷺ، وأجاب بعضهم عن ذلك

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ١٣: ٣٥٦.
(٢) المصدر السابق.
(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ١١: ٣٨٩.
(٤) الزخرف: ٤٠.

بأمور قابلة للتأويل في جميع وجهوها، فتارة يعبّر بالسلطان، وتارة بالوالد، وتارة بالسيّد، وتارة بالرئيس، في أيّ فنٍ كان »[١].

وقال الغزالي: « ليس معنى قوله: (رآني) أنّه رأى جسمي وبدني، إنّما المراد أنّه رأى مثالاً، صار ذلك المثال آلة يتأدى بها المعنى الذي في نفسي إليه، وكذلك قوله: «فسيراني في اليقظة»، ليس المراد أنّه يرى جسمي وبدني، وقال: والآلة تارة تكون حقيقة، وتارة تكون خياليّة، والنفس غير المثال المتخيل، فما رآه من الشكل ليس هو روح المصطفى ولا شخصه، بل هم مثال له على التحقيق.

قال: ومثل ذلك من يرى الله سبحانه وتعالى في المنام، فإنّ ذاته منزّهة عن الشكل والصورة، ولكن تنتهي تعريفاته إلى العبد بواسطة مثال محسوس من نور أو غيره، ويكون ذلك المثال حقاً في كونه واسطة في التعريف، فيقول الرائي رأيت الله في المنام لا يعني أني رأيت ذات الله تعالى كما يقول في حق غيره ».

وقال أبو القاسم القشيري ما حاصله: « إنّ رؤياه على غير صفته لا تستلزم إلا أن يكون هو، فإنّه لو رأى الله على وصف يتعالى عنه، وهو يعتقد أنه منزّه عن ذلك، لا يقدح في رؤيته »[٢].

هكذا إذاً تراهم يتشبثون بكُلّ حبل ويلوذون بكُلّ ناحية في الاعتقاد بالله والتقرّب منه، دون أن يحتملوا - ولو بنسبة ضئيلة - وساوس الشيطان وألاعيبه وخدعه التي لا تكاد تحصى، ومنها الأحلام التي سقط في شراكها أكثر

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ١٢: ٣٤٢.
(٢) المصدر السابق.

الناس، ولو كان الله تعالى يرى في المنام - كما يزعم هؤلاء الذين تسنموا علياء المراكز العلميّة عند عامّة المسلمين ظلماً وزوراً - لأمكن للصفوة الطاهرة من أنبياء ورسل وأئمة أن يروه كذلك، وأن يأتينا الخبر اليقين عن طريقهم وبواسطتهم.

في تفسيرهم للاستواء:

فقد قال ابن حجر: « قال مجاهد: استوى علا على العرش.. قال ابن بطال: اختلف الناس في الاستواء المذكور هنا، فقالت المعتزلة: معناه الاستيلاء بالقهر والغلبة، واحتجوا بقول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

وقالت الجسميّة: معناه الاستقرار، وقال بعض أهل السنّة: معناه ارتفع وبعضهم معناه علا، وبعضهم الملك والقدرة، واختلف أهل السنة هل الاستواء صفة ذات أو صفة فعل؟ »[1].

وقال ابن حجر: « وأخرج البيهقي بسند صحيح عن أحمد بن أبي الحواري عن سفيان بن عيينة قال: كُلّ ما وصف الله نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه »[2].

وبذلك قال شهاب الدين السهروردي في عقيدة كتابه أرباب التقى: « أخبر الله في كتابه وثبت عن رسوله ﷺ الاستواء، والنزول، والنفس، واليد، والعين، والأصابع »[3].

---

(١) المصدر السابق ١٣: ٣٤٢.
(٢) المصدر السابق ١٣: ٣٤٣.
(٣) المصدر السابق ١٣: ٣٣٠.

وقال البيهقي: « ومنهم من قال: العين صفة ذات كما تقدم في الوجه »[1].

وقال ابن حجر: « استدل ابن قتيبة بذكر الصورة على أنّ الله صورة لا كالصور، كما أنّه شيء لا كالأشياء »[2].

قال الشهرستاني في كتابه الملل والنحل: « اعلم أنّ جماعة كبيرة من السلف [السنّة والجماعة] كانوا يثبتون لله تعالى صفات أزلية من: العلم، والقدرة، والحياة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، والجلال، والإكرام، والجود، والإنعام، والعزّة، والعظمة، ولا يفرقون بين صفات الذات وصفات الفعل، بل يسوقون الكلام سوقا واحداً، وكذلك يثبتون صفات خبرية مثل: اليدين، والوجه، ولا يؤولون ذلك، إلاّ أنّهم يقولون: هذه الصفات قد وردت في الشرع فنسميها صفات خبرية. ولما كان المعتزلة ينفون الصفات والسلف يثبتون، سمي السلف صفاتية والمعتزلة معطلة، فبالغ السلف في إثبات الصفات إلى حد التشبيه بصفات المحدثات.

ثُمّ إنّ جماعة من المتأخرين زادوا على ما قاله السلف، فقالوا: لا بدّ من إجرائها على ظاهرها، فوقعوا في التشبيه الصرف »[3].

وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته، وعند استعراضه لنشأة علم الكلام قوله: « إنّ القرآن ورد فيه وصف المعبود بالتنزيه المطلق، الظاهر الدلالة من غير تأويل، في آي كثير، وهي سلوب كلها صريحة في بابها، فوجب الإيمان بها ووقع في كلام الشارع – صلوات الله عليه –، وكلام الصحابة والتابعين

---

(١) المصدر السابق ١٣: ٣٣٠.
(٢) المصدر السابق ١٣: ٣٥٧.
(٣) الملل والنحل للشهرستاني ١: ٩٣.

تفسيرها على ظاهرها، ثُمّ وردت في القرآن آي أخرى قليلة توهم التشبيه، وقضوا بأنّ الآيات من كلام الله، فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تأويل، وهذا معنى قول الكثير منهم: اقرأوها كما جاءت، أي آمنوا بأنّها من عند الله ولا تتعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها لجواز أن تكون ابتلاء، فيجب الوقف والإذعان له، وشذّ لعصرهم مبتدعة اتبعوا ما تشابه من الآيات، وتوغلوا في التشبيه، ففريق شبّهوا في الذات باعتقاد اليد والقدم والوجه، عملاً بظواهر وردت بذلك، فوقعوا في التجسيم الصريح ومخالفة آي التنزيه المطلق... ثُمّ يفرّون من شناعة ذلك بقولهم جسم لا كالأجسام ... وفريق منهم ذهبوا إلى التشبيه في الصفات، كإثبات الجهة والاستواء والنزول والصوت والحرف، وأمثال ذلك، وآل قولهم إلى التجسيم، فنزعوا مثل الأولين إلى قولهم: صوت لا كالأصوات، جهة لا كالجهات، نزول لا كالنزول... وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعري إمام المتكلمين فتوسط بين الطرق ونفى التشبيه وأثبت الصفات المعنوية، وقصر التنزيه على ما قصر عليه السلف وشهدت له الأدلة المخصصة لعمومه، فاثبت الصفات الأربع المعنوية والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق النقل والعقل »[1].

ولو أنك تصفحت بقية كتبهم الكلامية، وجالت عيناك في صفحاتها، لأمكنك أن تقف على ضحالة الفكر والمعتقد عندهم، بحيث يختلقون الأعذار والتبريرات عند العجز عن الجواب، ويفرون من جهلهم إلى نسبة النقص في دين الله، وتكليفه لخلقه بما لا يعلمون، وبالتالي بما لا يستطيعون، وهو مخالف لقوله تعالى: ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إلا وُسْعَها** ﴾[2].

---

(١) تاريخ ابن خلدون ١: ٤٦٣ـ٤٦٥.
(٢) البقرة: ٢٨٦.

ولا أخال عاقلاً يقول بأنّ الله تعالى أرسل نبيه ﷺ بما يجهل، وكلّف الناس بما لا يعرفون، وتركهم في حيرة من أمرهم بين سائل ومسلم، وبين منزّه ومجسّم، وبين قدري ومرجئ، وجبري ومفوّض.

أخيراً وبعد أن أحلتك أيّها القارئ العزيز على جملة من مقالات أصحاب هذا الاعتقاد في التوحيد، ممن ينتسب إلينا عقيدة وشريعة، بل لعلهم من الذين يعتقدون أنّهم على خير كثير، كيف لا وهم في تصورهم اتباع الرسول وسنّته، وغيرهم بعيدون عن إسلامهم، متنكبون عنه.

أخيراً أقول: حريّ بي وبك أن نقف على رداءة ذلك الاعتقاد والتصور، وسخافة ما ساقوه من تبريرات واهية، وهم الذين يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً، يقذفون البيوت التي أذن الله تعالى أن ترفع بكُلّ بليّة وفريّة، وبيوتهم لا تكاد تحصى عوراتها، وتخبطهم في التوحيد وصفات الله تعالى كالمحتضر حال النزع، موقوف بين عالمين، فمن جهة تراهم يتهربون من التجسيم ليس إلى تنزيه المولى سبحانه وتعالى، كما هو شأن أئمة أهل البيت الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، بل إلى تجسيم عجيب وغريب، اخترعته عقولهم، وتفتقت به أذهانهم، فقالوا: بعدم الكيف، وأبطلوا السؤال مع إثبات صفات الجسم والحال!! وعدوا غيرهم ممن دان بالتوحيد الصحيح ورفض الإذعان لخرافات سلاطين الظلم والجور مبتدعة ورافضة.

أخي المسلم: لا شك أنّ الدين قد مرّ قبل وصوله إلينا بقنوات مشبوهة، كان لها أثر كبير في تحريف ما وصل إلينا منه، وقد تضررت عقيدة السواد الأعظم من المسلمين، بما علق بها من أكاذيب وتآويل خاطئة، وقد حان الوقت لنستأصلها ونعيد الحقّ إلى نصابه، والدر إلى معدنه، بالعود إلى المستحفظين على كتاب الله، والناطقين عنه، ثقله الأصغر، كما أحالنا رسول

الله ﷺ من قبل بقوله: « تركت فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، وأنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما »[1].

والمعتصم بهم آمن من الزيغ والانحراف، وبمنأى عن التناحر والاختلاف، محفوظاً في كنف المولى تعالى من الانصراف إلى أئمة النار وحزب الشر والأشرار، اتباع الشيطان وأوليائه من الدعاة إلى التعبد بالشك والظن.

والآن وبعد أن عرضت عليك العقيدتين، وأبنت لك الخيارين، وظهرت من خلال ما قلته رايات الهدى خفاقة على رايات الضلالة، ليس أمامك غير طريقين لا ثالث لهما: فإمّا أن تعبد الله الحقّ، إله الأنبياء والمرسلين، إله محمّد وآله الطاهرين ﷺ، الذي لا يتجزّأ ولا يتحيّز، ليس كمثله شيء، لا يرى في الدنيا يقظة أو مناماً، ولا يرى في الآخرة، لامتناع الإحاطة بالمحيط، ذو الصفات التي لا حصر لها، وهي عين ذاته المقدسّة، آياته وآثاره دالّة عليه، وقدرته في خلقه إثبات على أنّه موجود، وكُلّ ما ورد علينا في كتابه العزيز وما جاءنا من صحيح كلام سيّد المرسلين بخصوص خالق الكون، ما هو في

---

(١) حديث الثقلين من الأحاديث المتواترة، المتفق عليه بين الفريقين، وارجع إلى المصادر التالية للاطلاع عليه:
مسند أحمد بن حنبل ٣: ١٤ و ١٧ و ٢٦ و ٥٩، ٥: ١٨٢ و ٣٢٨ و ٣٢٩، فضائل الصحابة للنسائي: ١٥، مجمع الزوائد للهيثمي ٩: ١٦٣ و ١٦٥، ١٠: ٣٦٣، مسند ابن الجعد: ٣٩٧، ما روي في الحوض والكوثر لابن مخلد القرخبي: ٨٨، السنّة لعمرو بن عاصم: ٣٢٧ و ٦٢٩ و ٦٣٠، السنن الكبرى للنسائي ٥: ٤٥ و ١٣٠، خصائص أمير المؤمنين للنسائي: ٩٣، مسند أبي يعلى الموصلي ٢: ٢٩٧ و ٣٠٣ و ٣٧٦، المعجم الأوسط للطبراني ٣: ٣٧٤، ٤: ٣٣، ٥: ٨٩، المعجم الأصغر للطبراني ١: ١٣١، المعجم الكبير للطبراني ٣: ٦٥ و ٦٦ و ٦٧ و ١٨٠، ٥: ١٥٤ و ١٦٦ و ١٧٠.

حقيقته غير تقريب للذهن، وإشارات للعقل، وإلاّ فإنّ تركيبة التحصيل في البشر الضعيف عاجزة عن الوصول إلى حقيقة المعرفة، وليس أدلّ على ذلك من قوله ﷺ: « إنّ الله تعالى قد احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار، وإنّ الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه »[1] أو أن تعبد هذا الذي يعرضه عليك هؤلاء التائهين، الذين اتخذوا من عنوان سنّة سيّد المرسلين مطية لتمرير الكذب والبهتان على أنّه سنّة، ومن ذلك ما جاؤوا به في التوحيد من أنّ الله تعالى على صورة آدم، وإن قالوا: بلا كيف، فقد كيّفوا نتيجة انصرافهم عن آل طه، وانحرافهم عن الراسخين في العلم.

نسأل الله تعالى ختاماً أن يلزمنا كلمة التقوى، ولا يحيد بنا عن صراطه المستقيم، ولا يباعد بيننا وبين أوليائه الذين اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، ويهدي أُمّة الإسلام بالرجوع إليهم بعد قرون التيه والضياع، إنّه سميع مجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

(١) بحار الأنوار للمجلسي ٦٦: ٢٩٢، مشرق الشمسين للبهائي: ٣٩٦.

حاكمية الله أم حاكمية الناس

توطئة:

عندما بدأت أتعرّف على الدين الإسلامي وأحاول فهم تعاليمه وتطبيق أوامره ونواهيه، كان العامل الوراثي هو المحدد لخياراتي والمثبت لقناعاتي، فسلكت طريقي بين مورثات عديدة لم أقف على حقيقة انتمائها للدين إلاّ بعد أن اصطدمت بالواقع المعاش، وبحال الأمّة كيف تردّت إلى حضيض الأُمم وأصبحت مطمع الطامعين.

تساءلت يوم بدأت الشكوك تساورني والظنون تتقاذفني، لتلقي بي على ساحل من الأسئلة التي تبحث عن قراءتها من الأجوبة الشافية: لماذا هذا الضياع والانحطاط الأخلاقي والعلمي؟

لماذا أصبحت أغلبية الأمة غثاء كغثاء السيل؟

ما هي الأسباب التي أدّت بصاحبة أعظم دين وأكمل شريعة إلى أن يصبح حالها كقطيع شارد في ليلة مظلمة مطيرة بلا راع وحام؟

منذ بدأت أعي شيئاً من السياسة كنت أرى العرب المنتسبين إلى الإسلام بالاسم، وحتّى الذين يطبقون منه بعض الأحكام يتقافزون مع كُلّ صيحة ويتّبعون أثر كُلّ ناعق، ويستهويهم كُلّ بهرج، وتفتنهم كُلّ زينة، مذبذبين في ولاءاتهم، متحيرين في حركاتهم، أي طريق يسلكون، وإلى أي ركن يلجأون، بعد ما تنافرت روايات الحكومة وتباينت، كأنّما أُفرغت شريعة المصطفى ﷺ من سياسة الناس! وخلت من منصب القيادة حتى انثال

المسلمون على الأدعياء، وسلكوا طريق الغرباء، لمجرّد شعارات زائفة، وكلمات براقة، ومظاهر خداعة!! هل هو بسبب عجز الدين وقصوره بحيث لا يفي في مجموع تشريعاته بحاجة الناس أم أنّ المسلمين هم الذين أفضوا بتفريطهم إلى هذه النتيجة من التردي والانحطاط؟

وجاء الجواب بحكم اطلاعي على أهم الأحداث التي شكلت واجهة تاريخ الأمة: ومحصل حالها إنّ هذا الدين الخاتم ليس فيه ما يفيد العجز والقصور، ولا يستشف من مجمل مفاهيمه غير الكمال والتمام فضلاً عن شموليته وعالميته، فالمولى سبحانه وتعالى أفادنا في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وعن طريق نبيه قائد الأنبياء ﷺ فضلاً عن الناس بأنّ الإسلام الذي هو بشارة الأنبياء ورسالاته السابقة هو الدين الأوحد والقيم على كُلّ دين، وجوهره فيه خلاصة التوحيد، وصفوة الأحكام، وعظمة الحاكمية. تضافرت بيناته، واستحكمت آياته، فلم يجد أحد من أعدائه فيه مغمزة، ولا ثلمة، ولا نقيصة حتى يحكم الطعن، ولو كان غير ذلك لأبانوه وأجهزوا عليه، ولألقي على رف النسيان، غير أنّ الذي ألقاه فرق من أهله وأحزاب من المنتسبين إليه قال تعالى: ﴿ **ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ** ﴾[1].

وقال أيضا: ﴿ **وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ** ﴾[2] وقال كذلك: ﴿ **وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ** ﴾[3].

تشير الآيات الثلاث إجمالاً إلى أنّ القرآن جامع لكُلّ ما يحتاجه الناس لدنياهم وآخرتهم، وعلى ذلك يمكنهم القول بأنّ التصريح الإلهي يندرج

---

(١) الأنعام: ٣٨.
(٢) النحل: ٨٩.
(٣) الأنعام: ٥٩.

ضمن الإعجاز الذي جاء في مضمون الكتاب، ولقائل أن يقول: طالما أنّ الكتاب فيه تبيان كُلّ شيء وأنّ المولى سبحانه وتعالى لم يفرط فيه من شيء فأين تكمن معالم الحكومة الإسلامية أو الإلهية؟

لكن قبل أن يصل بحثنا ويفضي إلى مبتغاه لا بدّ من الإشارة ولو بإيجاز إلى أنّ بيان الأحكام لا يكون إلاّ من نظير القرآن وعدله، وهو الرسول الأكرم ﷺ وعترته الطاهرة عليهم السلام من بعده حفظة وقائمين عليه.

لقد أشار الباري تعالى في محكم كتابه إلى حكومته وحدد معالمها، فجاء قسم منها شاملاً وعاماً لمعناها، ناسباً إليه مقاليد جعلها، باعتباره خالق الكون والحياة، ومنشئ كُلّ النواميس والقوانين المثلى فقال: ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيّاهُ ذلِكَ الدّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿ **أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ** ﴾[2]. وقال أيضا: ﴿ **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ** ﴾[3]، وقال أيضا: ﴿ **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ** ﴾[4]، وقال أيضا: ﴿ **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ** ﴾[5].

فيفهم من هذه الآيات وغيرها أنّ مسالة الحاكمية لله تعالى بصفته المشرع الأوحد، منه تبتدأ واليه تنتهي، فلا يحق لمخلوق أن يدّعي الحاكمية على الناس إلاّ إذا كان مستمداً ذلك من حاكمية المولى سبحانه وتعالى.

ولئن انتهى دور الأنبياء والمرسلين عليهم السلام بمجرّد وفاتهم بصفتهم حكاماً

(١) يوسف: ٤٠.
(٢) الأنعام: ٦٢.
(٣) المائدة: ٤٤.
(٤) المائدة: ٤٥.
(٥) المائدة: ٤٧

مرشدين إلى الحق، فقد بدأ بعدهم مباشرة دور الحاكمة الهادية التي لا تنفك بزوال النبيّ ﷺ بل تتواصل في إطار آخر وهي الإمامة والتعبد إلى الله تعالى بحكومة، والتقرب منه بواسطته التي جعلها بينه وبين الناس، يرجعون ويحتكمون إليها، ويسلّمون لها في أسمى معاني العبودية والقرب منه تعالى، لذلك عنون المولى تلك العلاقة واعتبرها ديناً قيماً.

وقسم ثانٍ خاصّ ومعدد في معناه دالاً على أنّ الحُكم الذي هو لله تعالى بالأصالة موكول إلى أشخاص معينين، اصطفاهم وزكاهم واختارهم دون غيرهم، لعلمه بحقيقتهم الباطنة، وإمكانياتهم التي يعجز المخلوق عن إدراكها؛ لأنّ المعرفة عند المخلوق في عمومها تقف عند بعض ظواهر المخلوقات.

في إحدى تأملاتي وبينما أنا جالس قريباً من البحر لاحت لمرآي سفينة تشق عبابه، قد تملكها الماء وأحدقت بها الأمواج، بمجرّد أن شاهدت موقعها ولاحظت محيطها ابتدرني سؤال ألح عليَّ في الإجابة يقول: هل يمكن لسفينة أن تسير بلا ربان وهي تحمل في بطنها نفائس المتاع وطبقات الناس؟

وطبيعي لا يتأخر الجواب؛ لأنّ العقل والمنطق يقولان عكس ذلك اذ يستحيل على أي سفينة أن تكون بلا ربان يقودها ويحركها وسط ذلك العباب الزاخر، من مرفأ إلى آخر، سالكاً بها طريق الأمان. والسفينة بلا ربان كالأعمى بلا دليل، تتلاطمها الأمواج وتحملها إلى حيث تتكسر وتغرق.

وفي يوم آخر، بينما أنا استعد لمغادرة منطقة جبلية، استرعى انتباهي تناثر عدد من بيوت النحل البيضاء تحت الأشجار، وإذا بطنين نحلها يملأ الفضاء، كُلّما اقتربت منها، هناك أيضاً ألح علي سؤال يقول: هل يمكن لهذه الأُمم من النحل أن تعيش أو تنتج عسلاً من دون تلك التركيبة التي أودعها

المولى سبحانه وتعالى فيها؟

ويأتي الجواب بلا تردد وانتظار: لا يمكن ذلك، لأنّها مجتمعات عجيبة التركيب، منظمة بشكل يأخذ اللب، ويحير العقل.

يعيش النحل على شكل تجمعات دقيقة التنظيم، يتمحور أفرادها حول (إمامة) الملكة التي من دونها لا يمكن لأسراب النحل العامل أن تجتمع لتكون وحدة واحدة متماسكة، بحيث لا يمكن لأيّ نحلة من خارج تلك الوحدة أن تكون ضمنها مهما حاولت، وإن تناقص عدد تلك الخلية.

وصادفني في كثير من الأحيان أن شاهدت في السماء سربا أو أسراباً من الطير أو البجع، يتقدمها دائماً قائد يتحكم في بقية السرب ويحدد وجهته... ولو أنني غصت في أعماق البحار لما وجدت حيوان البحر مختلفا عن حيوان البرّ في شيء من تركيبته الاجتماعية، كذلك الجمادات فإنّ الذرة لها قطب يشكل نواتها ومحور تفاعلاتها، وأيضاً فإنّ الأرض والمجموعة الشمسية حول الشمس وكذا بقية المجرات بشكل دقيق يكشف عن مدى أهمية القطب لتوازن الحياة وانتظامها.

والمتأمّل في نفسه وما حواه جسمه واشتملت عليه جوارحه يدرك القيمة الحقيقية للإمامة والقيادة ولا يرى عنها محيصاً، وكما أنّ الخالق تعالى قد بثّ الإمامة في الحيوان وجعلها أساس انتظامه وجامعة كيانه، وبثّها في الجمادات من أبسط الذرّات إلى أعظم المجرّات؛ فإنّ هذا الإنسان الذي أودع فيه العقل، مستودع الإحساس والعلوم؛ حري بها (الإمامة) وهي من مستلزمات بقائه. وجودها من تمام نظام الملة، وانعدامها فوضى واضطراب، وبذلك يقرّ كُلّ عاقل، ومن شذ عن هذه القاعدة لا يعتد بقوله كما فعل الخوارج في بدأ نشأتهم، ثُمّ عادوا إلى الإقرار بضرورة الإمامة، لمّا اصطدموا بخطورة

فكرتهم واستحالتها في الواقع.

وفي إحدى قراءاتي استوقفتني رواية استدلالية عجيبة لأحد أساطين العلماء، هشام بن الحكم، تلميذ الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام.

تتضمن الرواية حواراً جرى بين عالمنا المذكور وهو شاب، وشيخ المعتزلة عمرو بن عبيد البصري وهي:

قال هشام: بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيد وجلوسه في مسجد البصرة فعظم ذلك عليّ، فخرجت إليه ودخلت البصرة يوم الجمعة، فأتيت مسجد البصرة فإذا أنا بحلقة كبيرة فيها عمرو بن عبيد وعليه شملة سوداء متّزراً بها من صوف، وشملة مرتدياً بها والنّاس يسألونه، فاستفرجت النّاس فأفرجوا لي، ثمّ قعدت في آخر القوم على ركبتيّ ثمّ قلت: أيّها العالم إنّي رجل غريب تأذن لي في مسألة؟

فقال لي: نعم.

فقلت له: ألك عين؟

فقال: يا بنيّ أيّ شيء هذا من السّؤال؟ وشيء تراه كيف تسأل عنه؟

فقلت: هكذا مسألتي.

فقال: يا بنيّ سل وإن كانت مسألتك حمقاء.

قلت: أجبني فيها.

قال لي: سل.

قلت: ألك عين؟

قال: نعم .

قلت: فما تصنع بها؟

قال: أرى بها الألوان والأشخاص.

قلت: فلك أنف؟

قال: نعم.

قلت: فما تصنع به؟

قال: أشمّ به الرّائحة.

قلت: ألك فم.

قال: نعم.

قلت: فما تصنع به؟

قال: أذوق به الطّعم.

قلت: فلك أذن؟

قال: نعم.

قلت فما تصنع بها؟

قال: أسمع بها الصّوت.

قلت: ألك قلب؟

قال: نعم.

قلت: فما تصنع به؟

قال: أميّز به كلّ ما ورد على هذه الجوارح والحواسّ.

قلت: أو ليس في هذه الجوارح غنًى عن القلب.

فقال: لا .

قلت: وكيف ذلك وهي صحيحة سليمة.

قال: يا بنيّ إنّ الجوارح إذا شكّت في شيء شمّته أو رأته أو ذاقته أو سمعته ردّته إلى القلب فيستيقن اليقين ويبطل الشّكّ.

قال هشام: فقلت له: فإنّما أقام اللّه القلب لشكّ الجوارح.

قال: نعم.

قلت: لا بدّ من القلب وإلاّ لم تستيقن الجوارح.

قال: نعم.

فقلت له: يا أبا مروان، فاللّه تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتّى جعل لها إماماً يصحّح لها الصّحيح ويتيقّن به ما شكّ فيه ويترك هذا الخلق كلّهم في حيرتهم وشكّهم واختلافهم، لا يقيم لهم إماماً يردّون إليه شكّهم وحيرتهم، ويقيم لك إماماً لجوارحك تردّ إليه حيرتك و شكّك؟!

قال: فسكت ولم يقل لي شيئاً [1].

الإمامة هي القيادة في المنظومة الإسلامية.. هي رأس الأُمة وروحها التي تحركها، وعينيها اللتين تبصر بهما وتميز، ومن دونها تفتقد الدليل الموصل إلى الهدف، والمرشد الراعي للمصلحة العليا، وقد يصطلح عليها البعض لفظ الخلافة والخليفة.

الإمام هو القائد الذي أنيط به عهدة هداية الأمة وإرشادها والسير بها وفق تعاليم الإسلام الحنيف.

اختلف القائلون بوجوب نصب الإمام إلى قولين أساسيين:

القول الأول:

وقد اعتمده جانب من المسلمين وتتلخص رؤيته: في أنّ الإمام لطف واجب على الله تعالى لحفظ دينه وتطبيقه في الناس. يكون تعيينه بالنصّ منه تعالى ويكون على النبيّ ﷺ أمر البلاغ والتنصيب.

---

(١) الكافي للكليني ١: ١٧٠، الأمالي للشيخ الصدوق: ٦٨٦، الاحتجاج للطبرسي ٢: ١٢٧.

القول الثاني:

وقد اعتمده جانب آخر من المسلمين، وتتلخص رؤيته: في أنّ الخليفة قائد الأمة يوكل أمر تعيينه للمسلمين، ويرون أن السياق التاريخي للخلافة وما وقع في الحقيقة دليل على أن الشورى هي المبدأ الواقعي في اختيار الخليفة؛ لأنّه لا نصّ يرونه في اختيار الخليفة من قبل الباري تعالى.

وباعتبار أنّ هاتين المدرستين تشكلان الغالبية العظمى من المسلمين فإنّ استعراض أدلة كُلّ منهما، في مسعى لمعرفة القول الأصح والنظرية المثلى التي تتطابق مع ما جاء من أحكام لأجل استنهاض الأمة وتحريكها من الجمود وحالة التيه واللامبالاة التي تهيمن على أفرادها.

وباعتبار عظم خطر الإمامة، وجسامة دورها، وثقل مسؤوليتها، وفداحة فقدها في الأمة، كان لا بدّ من المقارنة بين الرأيين، لترجيح الأولى، مساهمة في بيان تجربتي ودراساتي التي وضعتني على أعتاب البيوت التي ذكرها الباري تعالى في كتابه العزيز فقال: ﴿ **وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[١].

عندما نتأمل أراء القائلين بمبدأ الشورى في اختيار الإمام بعد الرسول الأعظم ﷺ نرى أنها مشوشة ومضطربة ولا تكاد تقف على أساس سليم، فلا النصوص التي شحذوا أسنتها لتكون أبلغ في إصابة الهدف وفت بما أمّلوه منها، ولا النتائج التي حصلت من جراء تطبيق ذلك المبدأ أفرزت نظرية يمكن الاستئناس بها، والاعتماد عليها، فقد طغى على جميعها تضارب وتناقض فيما بين النصوص والتطبيقات .

ولقائل أن يقول: هل كانت الشورى طريقاً إلى اختيار الإمام؟ وإذا كانت

---

(١) البقرة: ١٨٩.

كذلك لماذا لم نجد بين أيدينا نصوصاً تحدد كيفيتها؟ هل هي مبدأ عام يشمل كُلّ المسلمين؟ أم هو خاص بخاصتهم ووجهائهم؟ وما هي خصائص الإمام حتى يكون مؤهلاً لاختيار الناس؟ أم ترى أنّ القوة هي ديدن المتسلّقين لكرسي الإمامة؟

ومع ما أهمله المؤرخون من أحداث وحقائق، تبعاً لانتمائهم الفكري والعقائدي، وتحت تأثير السلطة الحاكمة في رقابهم زمن حياتهم فإنّه قد مرّ إلينا من النصوص ما يقيم الدليل على أحقية الفكرة دون الأخرى، وعلى صحّة هذا الرأي دون الآخر، كُلّ ما هو مطلوب منّا شيء واحد فقط أن ننزع عن أنفسنا غائلة التعصب الأعمى الذي ظل مكبلاً لعقولنا وقلوبنا، مستحكماً طوقه على آبائنا قرون عديدة، أنا واحد من الذين هداهم الباري تعالى إلى إماطة هذا الداء العضال عن قلبي وعقلي، فأبصرت كثيراً من الحقائق التي كنت من قبل أمر عليها مرور الكرام دون التفات إلى جواهرها السنية ومعانيها التي لا تحتاج إلاّ إلى وقفة تأمل.

أوّل الحقائق التي لا تخفى عن عين البصير هي: أنّ ما جاءنا من تراث تحمله بطون كتب التاريخ والسير والحديث قد اختلط فيه الغث بالسمين، والسليم بالسقيم، والصحيح بالمفترى. وهذا ليس استنتاجاً حاصلاً لديّ فقط، وإنّما هو قرار من السواد الأعظم من الحفاظ وأصحاب الدراية بعلم أحوال الرجال (الجرح والتعديل)، فقد طفحت كتب روايات الحديث والسير والتاريخ بعدد من المرويات التي لا علاقة لها بالرسول ﷺ، أخضعها المتزلّفون للسلاطين، واخترعها المتنكبون عن الدين، وقد بلغ بهؤلاء الأمر لتمرير بدعهم وأهوائهم إلى اختلاق شخصيات وهمية لا وجود لها، وألبسوها جلباب الصحبة وجعلوهم جميعاً عدول الأمة وثقات العصر النبوي.

استند القائلون بحرية اختيار الخليفة أو القائد على نقطتين:

الأولى: الآيتين القرآنيتين ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾[1] و﴿ **أَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ** ﴾[2].

والثانية: إنّ الصحابة اختاروا أبا بكر خليفة بعد مشورة، وباعتبار أنّ فهمهم لمبدأ الاختيار كان جماعياً فإنّ عملهم حجّة مطابقة لما جاءت به.

أمّا بخصوص الآيتين:

فليس هناك ما يدل على أنّ الرسول ﷺ أخذ بمشورة أحد من الصحابة لان الآية الأولى أشارت إلى أنّ العزم راجع إلى النبيّ ﷺ، كُلّ ما في الأمر أنّه كان يحاول أن يربيهم على مبدأ متعلق ببعض المصالح دون الحاكمية.

أمّا الآية الثانية فتحدثت عن الأمر العائد إلى المسلمين، وهو في ظاهره غير متعلق بأي أمر من أمور التشريع، لأنه من اختصاص الباري تعالى.

أمّا ما روي من أنّ النبيّ ﷺ أخطأ في التقدير، ثُمّ أخذ بتصويبه عدد من الصحابة؛ كالحباب بن المنذر في نزول بدر، وعمر بن الخطاب في الأسرى، مضافاً إليها رواية تأبير النخل؛ فهي روايات لا تقوم مع الحقيقة القرآنية التي وضعت الرسول ﷺ في مقام العصمة المطلقة والتنزيه التامّ عن ترهات وموبقات ونقائص لو كانت موجودة فيه لما وصلنا من الدين شيء.

وبصرف النظر عن أسانيدها الواهية فقد تصدى لتلك المفتريات على الرسول ﷺ عدد من العلماء كشفوا فيه زيف تلك الدعاوي وبطلان تلك المفتريات.

---

(١) آل عمران: ١٥٩.
(٢) الشورى: ٣٨.

أمّا ثانياً فإنّ عدداً لا يستهان به من الصحابة لم يكن حاضراً في السقيفة حتى تتحقق فكرة الشورى، وفيهم من امتنع عن البيعة زمناً. أمّا المكان الذي وقعت فيه ما سمي بالشورى وهو سقيفة بني ساعدة فإنّه في حقيقته محل شبهة يدعو إلى التساؤل لماذا حصلت عملية الاختيار تلك في مكان لم يعهد فيه رسول الله ﷺ ولا ربى جيل الصحابة على ارتياده، وقد كان دأبه جمع الناس وإقامة العقود وإبرام العهود في المسجد الذي أُسس على التقوى؟

والمتأمّل لتلك الحادثة يتساءل: أيّهما أولى، تجهيز ووداع رسول الله ﷺ أم تجاهله حتى دفن ليلا؟

وهل كانت الإمامة تستحق كُلّ ذلك الاهتمام وسرعة التنصيب من قبل الناس ولا تستحق ذلك من قبل المولى سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ، والدين آخر الأديان وخاتمها؟

إذاً لم يجد القائلون بالشورى في اختيار ولي أمور المسلمين غير الانصياع إلى الواقع القائم، وإقرار ما وقع من اختيار، رغم أنّه لا يمت إلى الشورى بصلة وهو إلى المنازعة والاغتصاب أقرب منه إلى الطواعية والرضا.

وعمر المؤسس لذلك الاختيار وقف في خلافته قائلاً: كانت بيعة أبى بكر فلتة وتمت ألا وإنها وقد كانت كذلك ولكن الله وقى شرّها، من بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه، تغرة أن يقتلا »[1]، وحكم بالتالي على بطلان اختياره.

أنّنا كُلّما تأمّلنا في روايات القائلين بمبدأ الشورى في اختيار الخليفة كُلّما

---

(١) صحيح البخاري ٨: ٢٦، كتاب المحاربين، باب رجم الحبلى من الزنا، المصنّف لابن أبي شيبة الكوفي ٧: ٦١٥، ح٤، الاستذكار لابن عبد البر ٧: ٢٥٨، التمهيد لابن عبد البر ٢٢: ١٥٤.

انكشفت لدينا ملامح التحريف، وعلامات الدس، بتضارب الروايات، وتنافرها لحد التناقض والافتضاح، أخرج الشيخان: عن ابن عمر في حديث أنه جاء أباه فقال له: « إنّي سمعت الناس يقولون مقالة فآليت أن أقولها لك، زعموا أنّك غير مستخلف، وأنّه لو كان لك راعي إبل أو راعي غنم ثُمّ جاءك وتركها رأيت أنّه قد ضيع، فرعاية الناس أشد؟

قال: فوافقه قولي فوضع رأسه ساعة ثُمّ رفع إلي فقال: إنّ الله عزّ وجلّ يحفظ دينه، وإنّي لئن لا استخلف فإنّ رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلم - لم يستخلف، وإن استخلف فإنّ أبا بكر قد استخلف.

قال: فوالله ما هو إلاّ أن ذكر رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلم - وأبا بكر فعلمت أنّه لم يكن ليعدل برسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلم — أحداً، وأنّه غير مستخلف »[1].

إنّ المتأمّل لهذه الرواية يلاحظ حرص عبد الله بن عمر على الأمة، لما علم أنّ أباه غير مستخلف، فأراد تذكيره بخطورة عدم الاستخلاف عندما ضرب له مثل الراعي للإبل والغنم، بل لعل حرص ابن عمر أقوى وأكثر من الله ورسوله، لتفريطهما في أمر الأمة الإسلامية مقابل تفطنه هو، وسعيه للتضحية وتدارك الأمر! فهل خفيت الإمامة على الله ورسوله حتى تتجلى أهميتها لابن عمر؟! ولعلّ أغرب ما أتت به الرواية هو قول عمر نفسه: « وإنّي لئن لا استخلف فإنّ رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلم - لم يستخلف، وإن استخلف فإنّ أبا بكر قد استخلف»، فهل إنّ رسول الله لم يستخلف حقاً وإن

---

(١) صحيح مسلم ٦: ٥، كتاب الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها، سنن أبي داود ٢: ١٥ ح ٢٩٣٩، مسند أبي يعلى ١: ١٨٢، البداية والنهاية لابن كثير ٥: ٢٧١، إمتاع الأسماع للمقريزي ١٤: ٤٧٨.

أبا بكر أحرص منه على الأمة؟

النصوص التي بين أيدينا والروايات بالخصوص تقول غير ذلك، ولعلّ أوّلها دأبه في استخلاف الصحابة على المدينة كُلّما خرج منها، فكيف يكون أحرص على الاستخلاف في حياته منه حين وفاته، مع علمه بأنّه آخر المرسلين، وأنّ النصح للأمة يقتضي أن يختار لها الأصلح ؟! وقد فعل، فحديث المنزلة وحديث الولاية وحديث الثقلين وحديث الخلفاء الاثني عشر وحديث الغدير وغيرها دالة في مضامينها على الاستخلاف.

وهل إنّ استخلاف أبي بكر حجة حتى يوضع مقابل دعوى عدم استخلاف رسول الله ﷺ؟!

هل يعتبره هؤلاء شريكاً مع الرسول ﷺ فيكون الأخذ بقول أبي بكر والترك لقول رسول الله ﷺ مبرئ للذمة؟!

ثُمّ من أين علم ابن عمر أنّ أباه غير مستخلف حتى يرجح كفة عدم الاستخلاف؟ فكل ما قاله عمر هو إنّه مخير بين أمرين.

وهل إنّ عمر لم يستخلف فعلاً ؟

الحقيقة غير ذلك، فعمر اصطدم بحقيقة مرّة بالنسبة إليه وهي: إنّ صاحبيه الذين أسسا السقيفة وأراد استخلافهما وهما: أبو عبيدة عامر بن الجراح حفار القبور، وسالم مولى أبي حذيفة، قد ماتا، لذلك قال: « إن أدركني أجلي وأبو عبيدة حي استخلفته»[1].

وقال: « لو أدركني أحد رجلين ثُمّ حملت هذا الأمر إليه لوثقت به سالم

---

(١) مسند أحمد ١: ١٨، فتح الباري ١٣: ١٠٦، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٢٥: ٤٦٠، تاريخ الإسلام للذهبي ٣: ١٧٣.

مولى أبي حذيفة وأبو عبيدة الجراح »[1].

وعوضاً من أن يستخلف واحداً آخر ممّن قد يحسم مادة الفتن والخلاف استخلف ستة، في عملية نسبها القائلون بمبدأ حرية اختيار الناس للإمامة إلى الشورى.

وأي شورى تلك وهي التي اذكت الأحقاد وأوغرت الصدور، وكثر الحارصين على الحكومة، فقامت بينهم الحروب، وسفكت دماء المسلمين في مواجهة بعضهم، حرصاً وطمعاً في الحكم.

ولئن أفضينا إلى القول بأنّ الحاكمية هي من اختصاص المولى سبحانه وتعالى، عائدة إليه في كُلّ متعلقاتها وجب علينا أن نستأنس بعدد من روايات الرسول الأعظم ﷺ، تناولت مسألة الإمامة العامة، لتكون متضافرة مع آيات الكتاب العزيز، وكيف لا تكون كذلك وهي الشارحة لمعانيه، والمفصّلة لأحكامه.

قال رسول الله ﷺ: « لا يزال الدين قائماً حتى يكون اثنا عشر خليفة من قريش »[2].

---

(١) مسند أحمد ١: ٢٠، مجمع الزوائد للهيثمي ٤: ٢٢٠ وقال: »رواه أحمد، وفيه علي بن زيد بن جدعان وحديثه حسن، وفيه ضعف ، الطبقات الكبرى لابن سعد ٣: ٣٤٣، سير أعلام النبلاء للذهبي ١: ١٧٠، تاريخ الإسلام للذهبي ٣: ٥٦.
أقول: وعلي بن زيد بن جدعان من رجال مسلم، فحديثه صحيح طبقاً لقاعدة تصحيح الرواة الواردين في الصحيحين.

(٢) مسند أحمد ٥: ٨٨، وقال محقق الكتاب شعيب الارنؤوط «حديث صحيح، وهذا إسناد حسن . المعجم الكبير للطبراني ٢: ١٩٦، وورد بألفاظ مختلفة، بلفظ «يكون اثنا عشر أميراً صحيح البخاري ٨: ١٢٧، كتاب الأحكام، و« يمضي فيهم اثنا عشر خليفة و «لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً صحيح مسلم ٦: ٣، كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش، و«لا يزال أمر الدين قائماً حتى يكون عليكم اثنا عشر خليفة سنن أبي داود ٢: ٣٠٩ ح٤٢٧٩، و«يكون بعدي اثنا عشر أميراً سنن الترمذي ٣: ٣٤٠ ح٢٣٢٣، وغيرها من المصادر الكثيرة.

أجمع الحفاظ كُلّهم على صحة الحديث، وأخرجوه في كتبهم كُلّهم دون استثناء، أخصّ بالذكر منهم ما يسمى بأصحاب (الصحاح الستة)، والحديث جاء مفصلاً وشارحاً لآية: ﴿ **يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ** ﴾[1]. ومحدداً أن أولي الأمر المقصودين هم الاثني عشر إماماً، المشار إليهم في الحديث.

وبقطع النظر عن تسمية الإمام بالخليفة أو توسيع نسبة الأئمة عليهم السلام في قريش فإنّ ما يهمنا في الحديث عددهم، وما يعنيه من أبعاد غيبية فنقباء بني إسرائيل - مثلاً - اثنا عشر، والأعين التي انبجست لموسى عليه السلام اثني عشر عيناً، وعدة الشهور اثنا عشر شهراً، وعدة بروج السماء اثنا عشر برجاً، إلى غير ذلك من التوافقات والتطابقات التي لا تصدر إلاّ عن حكيم عليم.

وعدد الأئمة هذا لم يجد له إخوتنا من الأشاعرة (أهل السنّة والجماعة) حلاً، بحيث لم يرسوا فيه على ساحل، ولعل أقواهم فيه الحافظ جلال الدين السيوطي الذي وصفه أحد العلماء بأنّه في هذا الخصوص كحاطب ليل، حيث خلط الحابل بالنابل، والبرّ بالفاجر، ووصل تعداده إلى عشرة، وقال بعد ذلك: « أما الآخران الباقيان فأحدهما المهدي المنتظر ».

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كُلّما هلك نبي خلفه نبي، وإنّه لا نبي بعدي، وستكونوا خلفاء فيكثرون.

قالوا: يا رسول الله فما تأمرنا؟

قال: فوا ببيعة الأول فالأول »[2].

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) صحيح البخاري ٤: ١٤٤، كتاب بدء الخلق، صحيح مسلم ٦: ١٧، كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء، إرواء الغليل للألباني ٨: ١٢٧ ح١٣٧٣ وقال: »صحيح متواتر .. أخرجه البخاري (٢/٣٧١) ومسلم (١٧٦) وابن ماجة (٢٨٧١) وأحمد (٢/٢٩٧).

في هذا الحديث دلالة على أنّ هناك ترتيب في الأئمة لا بدّ من مراعاته واعطائه حقه، فقوله ﷺ: « فوا ببيعة الأول فالأول » إشارة واضحة إلى ذلك الترتيب، ويؤيده حديث عدد الأئمة، قال رسول الله ﷺ: « من كنت مولاه فعلي مولاه »[1]، وقال كذلك مخاطباً علياً عليه السلام: « أنت مني بمنزلة هارون من

---

(١) حديث متواتر الكناني نظم المتناثر من الحديث المتواتر: ١٩٤، مسند أحمد ١: ٣٣٠ بتعليق شعيب الأرنؤوط وقال: »من كنت مولاه فعلي مولاه له شواهد كثيرة تبلغ حدّ التواتر . وقال بتواتره الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤: ٣٣٣، وقال ابن حجر في فتح الباري ٧: ٧٤: » وقد استوعبها ابن عقدة في كتاب مفرد وكثير من اسانيدها صحاح أو حسن ، وأما المصادر التي خرجت الحديث فهي كثيرة جداً نذكر منها: سنن الترمذي ٥: ٦٣٣، قال الشيخ الألباني: «صحيح ، سنن ابن ماجة ١: ٤٥ و قال الشيخ الألباني: «صحيح ، مسند أحمد ١: ٨٤ و ١١٨ و ١١٩ و ١٥٢ و ٣٣٠، ٤: ٢٨١ و ٣٦٨ و ٣٧٠ و ٣٧٢، ٥: ٣٤٧ و ٣٦٦ و ٣٧٠ و ٤١٩، صحيح ابن حبان ١٥: ٤١٩، المستدرك للحاكم وقال: »هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يحرجاه وسكت عنه الذهبي في التلخيص و ٣: ١١٩، وقال: »هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يحرجاه وسكت عنه الذهبي في التلخيص، و ٣: ١٢٦ و ١٤٣ و ٤١٩ و ٦١٣ وقال: »هذا حديث صحيح الاسناد ولم يحرجاه وصححه الذهبي في تلخيص المستدرك، المعجم الكبير للطبراني ٣: ١٧٩ و ١٨٠ و، ٤: ١٦ و ١٧٣، ٥: ١٦٦ و ١٧٠ و ١٧١ و ١٧٥ و ١٩٢ و ١٩٣ و ١٩٤ و ١٩٥ و ٢٠٢ و ٢٠٤ و ٢١٢، ١٢: ٩٧ و ٢٩١، المعجم الأوسط للطبراني ١: ١١١، ٢: ٢٤ و ٢٧٥ و ٣٢٤ و ٣٦٩، ٦: ٢١٨، ٧: ٧٠، ٨: ٢١٣، مسند أبي يعلى الموصلي ١: ٤٢٨، ١١: ٣٠٧، مسند البزار ٢: ١٣٣، ٣: ٣٤، المصنف للصنعاني ١١: ٢٢٥ ح ٢٠٣٨٨، المصنف لابن أبي شيبة الكوفي ٦: ٣٦٦ ح ٣٢٠٧٢ وح٣٢٠٧٣ وح٣٢٠٧٨، ٣٦٨ ح٣٢٠٩١، ٣٦٩ ح٣٢٠٩٢، ٣٧٢ ح٣٢١١٨، ٣٧٤ ح٣٢١٣٢، سنن النسائي الكبرى ٥: ٤٥ ح٨١٤٥، ١٠٨ ح٨٣٩٩، ١٣٠ ح٨٤٦٦ وح٨٤٦٧، ١٣١ ح٨٤٦٨ وح٨٤٦٩ و ح٨٤٧٠ و ح٨٤٧١ و ح٨٤٧٢ و ١٣٢ ح٨٤٧٣ و ١٣٤ ح٨٤٧٨ و ١٣٦ ح٨٤٨٤، حلية الأولياء ٤: ٢٣ و ٥: ٢٧ و ٣٦٤، فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٢: ٥٦٩ ح٩٥٩ و ٥٧٢ ح٩٦٧ و ٥٨٤ ح٩٨٩ و ٩٩١ و ٥٨٦ ح٩٩٢ و ٦٩٢ ح١٠٠٧ و ٥٩٦ ح١٠١٦ و ٥٩٧ ح١٠١٧ و ٥٩٨ ح١٠٢١ و ٦١٣ ح١٠٤٨ و ٦٤٣ ح١٠٩٣ و ٦٨٢ ح١١٦٧ و ح١١٦٨ و ح١٢٠٦، خصائص النسائي ١: ٣٨ ح ١٢ و ٩٩ ح٨٢ ح٨٣ و ١٠٠ ح٨٤ و ٨٥ و ١٠١ ح٨٦ ح٨٧ و ١٠٢ ح٨٨ و ١١٣ ح٩٣ و ١١٧ ح٩٩، مجمع الزوائد للهيثمي ٧: ٨٠ ح١٠٩٧٨ و ٩: ١٢٨، باب قوله ﷺ : »من كنت مولاه فعلي مولاه ، ونقل تحته الأحاديث بالأرقام

موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي »، أخرجاهما كُلّ الحفاظ بدون استثناء[1].

التاليـــة: ح ١٤٦١٠ و ١٢٩ ح١٤٦١١ و ح١٤٦١٢ و ١٣٠ ح١٤٦١٣ و ١٤٦١٤ و ح١٤٦١٥ و ح١٤٦١٦ و ح١٤٦١٧ و ١٣١ ح١٤٦١٧ و ١٣٢ ح١٤٦١٨ و ح١٤٦١٩ و ح١٤٦٢١ و ح١٤٦٢٢ و ح١٤٦٢٧ و ح١٤٦٢٨ وح١٤٦٢٩ وح١٤٦٣٠ وح١٤٦٣١ وح١٤٦٣٢ وح١٤٦٣٣ وح١٤٦٣٤ وح١٤٦٢٩ وح١٤٦٣٥ وح١٤٦٣٦ وح١٤٦٩٦ و ح١٤٩٦٥ و ح ١٤٩٦٦، سلسلة الاحاديث الصحيحة ٤: ٣٣٠ ح١٧٥٠ وصرح بتواتره، ظلال الجنة للألباني ٢: ٣٣٨ و ٤٠١ و ٤٠٢ و ٤٠٣ و ٤٠٤ و ٤٠٥ و ٤٠٦ و ٤٠٧ و ٤٠٨ و ٤٠٩ و ٤١٢، صـــحيح ســـنن الترمـــذي للألباني ٣: ٢١٣ ح٢٩٣٠، صحيح ابن ماجة للألباني ١: ٢٦ ح٩٨، الاستيعاب لابن عبد البر ١: ٣٣٨، أُسـد الغابـة لابـن الأثـير ١: ٢٣٣ و ٢٣٤ و ٥٦٥ و ٦٨٣ و ٧٠٤ و ٧١٤ و ٨٩٨ و ١٠٥٥ و ١١٨٢ و ١١٨٤ و ١٢٣٠ و ١٣٠٣، الاصـابة في تمييـز الـصحابة لابـن حجـر ٢: ١٥، ١٦٤، ٦٠٩ و ٣: ٥٩٧ و ٤: ٢٦٦ و ٣٢٨ و ٣٥٩ و ٥٦٨ و ٦: ٤٠١ و ٧: ١٦١ و ٣٣٠، الطبقـات الكبرى لابـن سـعد ٥: ٣١٩، تهـذيب الكمـال للمــزي ٣: ٤٤١ و ٦: ٨٧ و ٩: ١٩٩ و ١١: ٩٠ و ٩٩ و ١٩: ٤٠٥ و ٢٠: ٤٨٤ و ٢٢: ٣٠٦ و ٣٩٧ و ٣٩٨ و ٣٣: ٢٨٣ و ٣٦٨، تذكرة الحفاظ للذهبي ١: ١٠ و ٣: ١٠٤٢ و ١٠٤٣، والحديث صحيح لا غبـار عليه، وفيه زيادة اختز لها المؤلف وهي ضرورية والحديث بتمامه كالتالي: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: »اللهم من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاده، وانصر من نصره وأخذل من خذله فقد صححه بهذا اللفظ كُلّ من: شعيب الارنؤوط في تعليقه على مسند أحمد ١: ١١٨ ح٩٥١، المعجم الكبير للطبراني ٤: ١٦ ح٣٥١٤ و ٥: ١٩٢ ح٥٠٥٩، مسند البزار ٣: ٣٤، سنن النسائي ٥: ١٣٦ و ١٥٤، فضائل الصحابة ٢: ٥٩٩، خصائص النسائي ١: ١١٧ و ١٦٧، مجمع الزوائد للهيثمي ٩: ١٣٠ وقال: »رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير فطر بن خليفة، وهو ثقة و ١٣٢ وقال: »رواه الطبراني ورجاله وثقوا ، فيض القدير في شرح الجامع الصغير للمناوي ٦: ٢١٧، البداية والنهاية لابن كثير ٥: ٢١٠ وقال: »رواه شعبة عن ابن اسحاق، وهذا إسناد جيد ، السيرة لابن كثير ٤: ٤١٤، ثمار القلوب ١: ٦٣٧، وغيرها من المصادر الأخرى.

(١) هذا الحديث متواتر أيضاً، وإليك المصادر التالية: نظم المتناثر من الحديث المتواتر للكناني: ١٩٥، مسند أحمد ١: ١٧٠ و ١٧٣ و ١٧٥ و ١٧٧ و ١٧٩ و ١٨٢ و ١٨٤ و ١٨٥٢ و ٣٣١ و ٣: ٣٢ و ٣: ٣٣٨ و ٦: ٣٦٩ و ٤٣٨، وصرّح محقق المسند الشيخ شعيب الارنؤوط بصحة أكثرها.

صحيح البخاري ٤: ٢٠٨، كتاب المناقب، باب مناقب المهاجرين و ٥: ١٢٩، كتاب المغازي، باب غزوة تبوك، صحيح مسلم ٧: ١٢٠، كتاب الفضائل، باب فضائل علي، صحيح ابن حبان ١٥: ١٥ و ٣٦٩ و ٣٧٠، المستدرك للحاكم ٣: ١١٧

ومنزلة هارون من موسى أشهر من نار على علم في كتاب الله حيث يقول تعالى: ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾[1].

ويقول ايضا: ﴿ وَقالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[2].

واذا نحن استثنينا النبوة عن علي عليه السلام فإنّ بقية المنازل هي بحسب المنظور القرآني — الأخوة — الوزارة — الاشراك في الأمر، والخليفة في القوم، وليس الأهل كما يحاول البعض ممن عميت قلوبهم.

وصححه، وصححه الذهبي في تلخيص المستدرك، ٣: ١٤٣، وصححه، وصححه الذهبي في تلخيص المستدرك، مسند الطيالسي ١: ٢٨ و ٢٩، المعجم الكبير للطبراني ١: ١٤٦، ١٤٨ و ٢: ٢٤٧ و ٤: ١٧ و ١٨٤ و ٥: ٢٠٣ و ٢٢٠، ١١: ٧٤ و ٧٥ و ١٢: ١٨ و ٩٧ و ٢٩١ و ٢٤: ١٤٦ و ١٤٧، المعجم الأوسط ٢: ١٢٦ و ٣: ١٣٨ و ٤: ٢٩٦ و ٥: ٢٨٧ و ٦: ٧٧ و ٧: ٣١١ و ٨: ٣٩، المعجم الصغير ٢: ٨٤ و ١٣٧، مسند أبي يعلى ١: ٢٨٥ وقال محققه: »اسناده صحيح و ٢: ٧٣ وقال محققه: »اسناده صحيح و ٨٦، وصححه ، و ٩٩ وصححه و ١٣٢ وصححه، مسند البزار ٣: ٥٩ و ٢٧٦ و ٢٧٨ و ٢٨٣ و ٢٨٤ و ٣٢٤ و ٣٦٨ و ٤: ٣٢ و ٣٨ ، المصنف للصنعاني ٥: ٤٠٥ و ١١: ٢٢٦، المصنّف لابن أبي شيبة ٦: ٣٦٦ و ٧: ٤٢٤ و ٩: ٤٠، فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٢: ٥٦٦ و ٥٦٧ و ٥٦٨ و ٥٦٩ و ٥٩٢ و ٥٩٨ و ٦١٠ و ٦١١ و ٢: ٦٣٣ و ٦٣٨ و ٦٤٢ و ٦٤٣ و ٦٦٣ و ٦٦٦، مجمع الزوائد للهيثمي ٩: ١٣٨ وصححه و ١٣٩ وصححه و ١٤٠ و ١٤١ وصححه و ١٥٧ وصححه ، تخريج أحاديث الأحياء ٢: ١٤٤ وقال: »متفق عليه ، إرواء الغليل للألباني ٥: ١١، مشكاة المصابيح ٣: ٣٢٧ وقال: »متفق عليه ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣: ٥٤٨ ح ١٣٦٨، ظلال الجنة ٢: ٣٣٧ ح١١٨٨، صحيح الترمذي للألباني ٣: ٢١٤، صحيح ابن ماجة ١: ٢٥، الاستيعاب لابن عبد البر ١: ٣٣٨، أُسد الغابة ١: ٧٩٧ و ١٠٥٧، الإصابة في تمييز الصحابة ٤: ٥٦٤ ت ٥٦٩٣، وغيرها من المصادر الكثيرة .

(١) طه: ٢٩-٣٢.

(٢) الأعراف: ١٤٢.

إنّ الاصطفاء سنّة إلهية متعلقة بأصل الوجود، وخيار رباني لا مفر منه وتغيير يطرأ عليه، منذ آدم إلى يوم الدين، يكفيك أن تراجع القرآن الكريم لتقف على تلك الحقيقة الربانية.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾[1].

حتى الملائكة لا يخلوا منهم مبدأ الاصطفاء، قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ** ﴾[2].

وقال بخصوص آل إبراهيم ﴿ **فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً** ﴾[3].

ولئن آتي المولى تعالى آل إبراهيم ما آتاهم في هذه الآية فإنّ آل محمّد ﷺ أفضل من آل إبراهيم وأولى بالمراتب الإلهية والخصائص الربانية.

وقال بخصوص الرسول يحيى عليه السلام: ﴿ **يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا** ﴾[4].

وقال بخصوص الرسول الأعظم ﷺ: ﴿ **وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾[5].

ثم توجه بالنداء والأمر إلى الأمة فقال تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ

---

(١) آل عمران: ٣٣-٣٤.
(٢) الحجّ: ٧٥.
(٣) النساء: ٥٤.
(٤) مريم: ١٢.
(٥) المائدة: ٤٢.

وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾(١).

الخطاب في مستهل الآية متّجه إلى المسلمين، حيث طلب منهم المولى سبحانه وتعالى طاعته وطاعة رسوله وطاعة أُولي أمره. غير أنّ الآية لم تفصل طاعة أولي الأمر عن طاعة الرسول ﷺ، وجعلتها راجعة إليه بالأصالة؛ لأنّ دورهم يتلخص في الهداية والقيام على الشريعة حفظاً وتطبيقاً، فهم الناطقون عن كتاب الله، وهم المبيّنون لعلوم رسول الله ﷺ، والمستودعون لِكُلّ ما يتعلق بالإحكام، والمستحفظون على كُلّ ذلك.

وحتى نرفع اللبس عن أولئك الذين يعتقدون خطأ أنّ الآية عامة وليس فيها تخصيص، وأنّ التنازع ممكن مع أولي الأمر بدليل الآية.

نقول: لقد جاءت الآية مخاطبة للمؤمنين، آمرة إياهم بطاعة الله تعالى وطاعة الرسول وأولي الأمر، ثُمّ عادت لتوجه الخطاب إلى المؤمنين بحصر التنازع بينهم، لأنّ الآية صريحة المعنى بوجوب طاعة سلسلة الولاية، ومخالفة ذلك انحراف ومعصية كبيرة، والرد المقصود في الآية يقع الالتجاء إليه عبر أداته وهي الرسول ﷺ أو من يقوم مقامه من الأئمة عليهم السلام.

ثُمّ تأتي الآية التي في سورة النساء والتي تقول: **﴿ وَإِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أو الْخَوْفِ أَذاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إلى الرَّسُولِ وَإِلى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾**(٢) فكيف يمكن إذاً أن تنازع معهم إذا كان أمر بالرد إليهم؟

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) النساء: ٨٣.

والآيتان تشيران إلى خاصيّة في أولي الأمر غير موجودة في غيرهم لحاجة الدور إلى ملء الفراغ الذي سيتركه الرسول الأعظم ﷺ وهي العصمة، ومن هنا نفهم أنّ المولى سبحانه وتعالى لم يأمر بالطاعة التي تترتب عليها معصية، لاستحالة اجتماع الضدين أو النقيضين في أحكامه، بل أمرنا بالطاعة التي تنتج طاعة ورضى، وعليه لا بدّ ان يكون أُولو الأمر المشار إليهم في الآيتين معصومون.

أما متعلق الآية فيتحدث عن إمكانيات أولي الأمر التي هي مساوية لإمكانات رسول الله ﷺ في كُلّ ما يتعلق بالسلم والحرب (الأمن والخوف)، وقد اختزلت الآية حاجات الناس ومطالبهم في كلمتين.

وهنا لا بدّ من طرح سؤال يتمحور حول البحث وفي سياق الحديث وهو ما معنى العصمة؟ وهل يجب أن يكون الواسطة بين الخالق تعالى ومخلوقاته من بني البشر معصوماً؟

ساء فهم كثير من المسلمين للعصمة لسببين:

الأول: عدم القدرة على استيعاب المعنى الحقيقي لها.

الثاني: سعي الظلمة والمناوئين للائمة الشرعيين إلى طمس تلك الخاصية وحتى يتساوى الناس في طلب الإمامة.

الثالث: الاعتقاد الخاطئ بأنّ العصمة محصورة في النبيّ ﷺ عند التبليغ عن الخالق تعالى وما عداها من أقوال وأفعال صادرة عنه ﷺ غير مشتملة عليها، إلا إننا عندما نحاول أن نقترب من هذا المفهوم لنستجلي المعنى المراد للكلمة نجد أنّ الدور – وأعني به النبيّ أو الإمام عليهما السلام – يستوجب ملكة تمنع القائم من الوقوع فيما يترتب عنه العيب والتقصير.

لنأخذ مثلاً على ذلك: المؤمن وهو في طريقه المعرفي يحاول أن يتطور كُلّ يوم باتجاه إدراك الحقائق الكُلّية، واستيعاب المقاصد الشرعية، ويسعى إلى تفادي الكبائر فضلاً عن الصغائر، وقد يصل في يوم أو في عدد من الأيام إلى أن تصافحه الملائكة؛ لأنّه قد عصم نفسه من الوقوع في أخطاء ما، وهو بذلك قد وصل إلى تحقيق ما هو مطلوب منه لمزيد القرب من الله تعالى.

إذا تمكّنّا أن نعرف العصمة بأنها استعدادات روحية وعقلية انطبعت عليها أوامر الخالق تعالى ونواهيه بحيث صارت الدافع والمحرك نحو فعل الخير والامتناع عن الشر، وشكلت دائماً وأبداً حضوراً ذهنياً وقلبياً ووعياً بقيمة الفعل وأثره، وقد دلّ أمير المؤمنين عليه السلام على ذلك بقوله: « ما رأيت شيئاً إلاّ ورأيت الله قبله ومعه وبعده »[1].

يمكن الاستدلال على العصمة من وجهتين شرعية وعقلية.

أما الشرعية:

فآية التطهير: قال تعالى: ﴿ **إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** ﴾[2].

وقد أجمعت الروايات على أنّ المراد من أهل البيت أصحاب الكساء الخمسة: محمّد، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام [3].

---

(١) شرح أصول الكافي ٣: ٩٨.
(٢) الأحزاب: ٣٣.
(٣) صحيح مسلم ٧: ١٣٠، كتاب الفضائل، باب فضائل زيد، سنن الترمذي ٥: ٣٠، المستدرك للحاكم النيسابوري ٢: ٤١٦، ٣: ١٣٣، مجمع الزوائد للهيثمي ٧: ٩١، فتح الباري ٧: ١٠٤، و١١: ١٤٧، مسند الطيالسي: ٢٧٤، المصنف لابن أبي شيبة الكوفي ٧: ٥٠١ و ٥٢٧، مسند أبي يعلى ٧: ٥٩، صحيح ابن حبان ١٥: ٤٣٣، الذرية الطاهرة للدولابي: ١٥٠.

ولم تدع واحدة من أزواج النبيّ ﷺ دخولها في معنى الآية، بل أُم سلمة وعائشة روتا خصوصها بالخمسة ولم تثبت لإحداهما عصمة كما ثبتت لأهل البيت عليهم السلام، فعائشة – مثلاً – خالفت القرآن عندما أمرها بأن تقر في بيتها، وخرجت محاربة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فقتل بسببها آلاف المسلمين[1].

إنّ المدقق في الآية والمتدبر لها يدرك أن إذهاب الرجس، وهو كُلّ عمل شيطاني، مع تأكيده تعالى على شدّة تطهير أصحاب الكساء دليل على عصمتهم.

حديث الثقلين: قال رسول الله ﷺ: « إنّي تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، وإنّهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض »[2].

أخرج الحديث كُلّ من مسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وأحمد بن حنبل وغيرهم مما لا يسع المجال لعدهم.

---

(١) قتل في معركة الجمل ما يقرب من عشرين آلف .

(٢) حديث الثقلين من الأحاديث المتواترة، ومصادره كالتالي: مسند أحمد بن حنبل ٣: ١٤ و ١٧ و ٢٦ و ٤: ٣٧١ وصحح محقق الكتاب شعيب الأرنؤوط الأحاديث ، سنن الدارمي ٢: ٥٢٤ وصحح محقق الكتاب الحديث، صحيح ابن خزيمة ٤: ٦٤، المستدرك للحاكم ٣: ١١٨ و صححه و ٣: ١٦٠، وصححه، وصححه الذهبي في تلخيص المستدرك، المعجم الكبير للطبراني ٣: ٦٥، المعجم الأوسط ٤: ٣٧٤، مسند أبي يعلى الموصلي ٢: ٢٩٧، مسند البزار ٣: ٨٩، المصنف لابن أبي شيبة ٦: ١٣٣، شعب الإيمان ٢: ٣٢٧، فضائل الصحابة ٢: ٥٧٢ و ٧٧٩، خصائص أمير المؤمنين للنسائي ١: ٩٦، آداب الصحبة ١: ١١٨، مجمع الزوائد للهيثمي ٩: ٢٥٧، مشكاة المصابيح ٣: ٣٣٨، سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ٤: ٣٣٠ ح ١٧٥٠، ظلال الجنة ٢: ٤٧٧، الطبقات الكبرى لابن سعد ٢: ١٩٤.

وفي حديث دلالة واضحة على عصمة الأئمة من أهل البيت ﷷ، لاقترانهم بالقرآن واعتبارهم ثقلاً له، فهو لا يأتيه الباطل وهم كذلك، باعتبارهما عاصمين من الضلال لكل من تمسك بهما.

قال رسول الله ﷺ: « الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا »[1].

في هذا الحديث بيان لاسمين من أسماء الأئمة الاثني عشر، ودليل على أنّ منصب الحكومة بعد النبيّ ﷺ لا يمكن أن يترك شاغراً، لخلو الحكمة من ذلك الترك المزعوم.

أمّا قوله ﷺ إمامان قاما أو قعدا ففيه إشارة بليغة إلى معنى اللطف الإلهي في تحديد واختيار واصطفاء الأشخاص لمنصب الإمامة، فالمولى تعالى يحدد لطفه وعلى الناس أن يستجيبوا ويمتثلوا، وإن لم يفعلوا فقد ظلموا أنفسهم واضروا دنياهم وآخرتهم.. ويبقى الإمام إماماً تسلم مقاليد الإمامة الظاهرة أم لم يتسلم، لا يمنعه شيء من إمامته الظاهرة والباطنة، المتمثلة في الاستحفاظ والبيان للناس والعلاقة بالخالق تعالى.

لم تكن معالم الحكومة الإسلامية ولا تركيبتها غائبة عن المولى سبحانه وتعالى وعن رسوله الأعظم ﷺ حتى تكون حاضرة عند الشيطان وأوليائه، وكما أشرنا فإنّ الوحي أولاها أهمية كبرى، وخصص لها حيزاً في منظومته التشريعية، لأنّه لا معنى لقانون بدون حكومة، ونسبة النقص والتقصير إلى الله تعالى في هذا الإطار مساس بجوهر التوحيد، وطعن في جنب الله تعالى، لا يمكن لموحد عاقل أن يقبله، وإنما السياسة وما اقتضته في أوّل فجر الإسلام

---

(١) روضة الواعظين للنيسابوري: ١٥٦، الارشاد للشيخ المفيد ٢: ٣٠، مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ٣: ١٦٣.

من صرف للإمامة عن أصحابها إلى غيرهم بعدد من الدعاوي التي لا أساس لها، سرعان ما نقضوها وهدموا دعائمها. فالسقيفة نظر لها بأنّها صفوة الشورى رغم أنّ صاحبها قال: إنّها فلتة! والخليفة الأوّل نصّ على الثاني كتابة، والثاني وضع أساس الملك الأموي. ولو كان صاحباه في السقيفة إحياء وأعني بهما (أبو عبيدة بن الجراح حفار القبور، وسالم مولى أبي حذيفة) لما عدل بهما أحدا!! ثُمّ حدد الشورى المزعومة في ستة، زادت في عدد الطامعين لمنصب الإمامة.

لقد تسالم الناس منذ غابر الأزمنة على الانضواء تحت تركيبة حكومية معينة، تراوحت بين الحكم القبلي أو العشائري إلى الحكم الملكي إلى النظم الديمقراطية المعمول بها اليوم، وكانت حاجتهم إلى من ينظم أمرهم هي التي دفعتهم إلى الدخول تحت كُلّ غطاء متاح، طوعاً أو كرهاً. ولئن تعددت المسميات في الحاكمية إلاّ أنّ الطابع الاستبدادي هو الذي كان طاغياً على عمومها، والمتأمّل في سياقها لا يجد في رحلة الإنسانية منذ بداية الخلقة محطة عدل وقسط سوى إمدادات الخالق تعالى في إنقاذ البشرية وتقويم انحرافها.

لقد أشار الكتاب العزيز إلى حالتين ناشئتين في الأمة الإسلامية، وهي في خطوات نموها الأولى وفي الأمم السابقة من باب التنبيه والتحذير. فقال: **﴿ وَما مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾**[1] .

---

(١) آل عمران: ١٤٤.

وقال ايضا: ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾[1].

فالانقلاب كما أشارت الآية الكريمة حصل في غزوة أُحد عندما فَرّ جُلّ الصحابة إن لم نقل كُلّهم عدا الإمام علي عليه السلام وعدد من بني هاشم، وفي الآية إيحاء بتكرار حدوث الانقلاب في قوله ﴿ أَفَإِنْ ماتَ ﴾ بعد موته صلى الله عليه وآله، وقد حصل فعلاً. ليس فيما روّج له من حروب الردة، لأنّ تلك الحروب في معظمها كانت إخضاعاً بالقوة لعدد من القبائل التي رفضت الانصياع إلى الحكومة التي قدمها حزب النفاق الأموي، لتكون الممهد لسلطانهم الذي انتزعه رسول الله صلى الله عليه وآله منهم، ويريدون استرجاعه بالمكر والخديعة.

والاختلاف حصل أيضاً بفعل بغي البعض على البعض الآخر، فالسقيفة وما أعقبته من حروب وويلات محصلة ذلك البغي، ويؤكد ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وآله: « لتركبن سنن من كان من قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه »[2].

وفي الحديث إشارة متناهية في الدقة إلى أنّ أُمّة الإسلام ستسلك مسلك الأُمم السابقة في الانحراف والاختلاف وتجاهل الأحكام وتعطيل الإمامة، وما حصل لهارون عليه السلام عندما تركه قومه بعدما نصبه موسى عليه السلام خليفة فيهم، واتبعوا بدله السامري والعجل حصل للإمام علي عليه السلام .

لم يترك المولى سبحانه وتعالى مسألة القيادة في الأُمة للناس، يفعلون بها

---

(١) آل عمران: ١٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٤: ٥٢٣، تفسير القرطبي ١٩: ٢٧٩، جامع البيان لابن جرير الطبري ١٠: ٢٢٥، تفسير ابن أبي حاتم ٦: ١٨٣٤، تفسير الثعالبي ٥: ٦٦، فتح القدير للشوكاني ٢: ٣٨٠.

ما يرونه، بل إنّه قننها ضمن تشريعاته، وجعل لها حيزاً في منظومته، علماً منه تعالى بجسامتها وخطورة خلوها في زمن من الأزمنة، ذلك اللطف الإلهي المؤهل لملئ الفراغ الحاصل في مقام النبوة.

إذ لم تكن مسألة الحاكمية غائبة عن الإطار التشريعي بقدر ما كانت مهيمنة عليه، وجاءت معالمها في أرق تركيبة عرفها الناس، فهي الأصل الذي لا يتبدل، وفي الآية التي في سورة المائدة والتي تقول: ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النبيّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ وَكانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ** ﴾[1].

إثبات لرأينا في الإمامة، لقد اقتضت حكمة الخالق تعالى في اختيار الحاكمين بأمره بعد الأنبياء والمرسلين عليهم السلام على اعتماد مرحلتين:

المرحلة الأولى:

وهي مرحلة تعيين الاختيار على الاسم والشخص، حيث كانت تقتضي بأن يكون القائد أو الإمام منصوصاً عليه معيناً على وجه التحديد شخصاً بعينه، مؤهلاً لأداء الدور المناط به، لأسباب أهمها:

١- علمه تعالى بمكنونات مخلوقاته يقتضي أن يحسم بذلك التعيين حيرة الناس في اختيار الأولى والأقدر من بينهم، وهو لطف منه لا يمكن أن يتأخر عنه.

٢- حداثة عهد الجيل الأول من المسلمين المعبر عنه بالصحابة، وعدم إلمامهم بالدين فضلاً عن فهمه وتطبيقه، وحتى لا يتهمني أحد بالتجني على الصحابة والتطاول على مقامهم لا بدّ لي من أن أشير مختصراً على صحة

---

(١) المائدة: ٤٤.

دعواي، بما أخرجه حفاظ هؤلاء من مرويات تحكي مستوى فهمهم، البداية تكون من الكتاب العزيز، قال تعالى: ﴿ **وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَتَرَكُوكَ قائِماً** ﴾[1].

ولو لم يكن هناك غير هذه الآية المعبرة على المستوى الفكري والعقائدي للصحابة لكفى.

وقد كنا أشرنا إلى آية الارتداد والتي تخص في أسباب نزولها الصحابة الفارين والذين تستر على معظمهم الحفاظ.

أما الأحاديث النبوية فإنّي أحيلك على أحاديث الحوض، لتتأكد من تطابق مدلول الآيات على الأحاديث، وقد أخرجها كُلّ الحفاظ بلا تحفظ، ومن أراد الاطلاع عليها فليراجع.

المرحلة الثانية:

وهي مرحلة الاختيار على الصفات والشروط ﴿ **وَالأَحْبارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ..** ﴾، « وأما من كان من فقهائنا حافظا لنفسه صائنا لدينه مخالفا لهواه متبعا لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه » .

بمعنى أنّ المرحلة اقتضتها ظروف وعوامل عديدة لعل أهمها: تفريط الناس وتقصيرهم، ممّا ساهم بشكل مباشر في تحييد الإمام وتغييبه عن دوره.

دور العلماء يكون في زمن الغيبة منحصراً في مرجعيتهم للناس وتصديهم لبيان الأحكام وإرشادهم إلى معالم دينهم.

لقد وقف الرسول الأعظم ﷺ في أكثر من مرة وأكثر من مناسبة ليشدد على قيمة الإمامة وولاية الأمر ويؤكد على أهميتها التي تفوق العبادة

---

(١) الجمعة: ١١.

بتفاصيلها قائلاً: « من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية »[1]. أو ما روي عنه من قوله: « من مات وليس في عنقه بيعة فميتته جاهلية ». وما روي عنه في نفس الإطار: « من خلع يداً من طاعة لقي الله تعالى يوم القيامة لا حجّة له »[2]. ولئن لم نكن هنا بصدد الموازنة بين الروايتين لمعرفة أيّهما أصح من الأخرى فإنّ المعنى الذي تحتويه يصب في إطار واحد وهو: القيادة وعظم مكانتها ولازمها الذي هو البيعة، تماماً كحديث الثقلين الذي تقوى به رواية كتاب الله وسنتي المقطوعة السند؛ لأنّ السنّة النبوية المطهّرة لا تكون إلاّ عند من اذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، لأنّ القرآن كتاب والسنّة كتاب كما قال رسول الله ﷺ: « لقد أوتيت القرآن ومثله معه »[3].

وهما رغم محاولة فصلهما عن بعضهما شيء واحد لا يتجزأ، القرآن هو المجمل الجامع للأحكام، والسنّة المطهّرة هي المفصل المبين لتفاصيل تلك الأحكام.

---

(١) مسند أحمد ٤: ٩٦، صحيح مسلم ٦: ٢٢، كتاب الامارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين، التفتازاني في شرح المقاصد ٢: ٢٧٥، وورد بألفاظ مختلفة في كتب الحديث والتجريح من شاء فليرجع إليها.

(٢) صحيح مسلم ٦: ٢٢، كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين، مجمع الزوائد للهيثمي ٥: ٢١٨، فتح الباري ١٣: ٥، كتاب السنة لابن أبي عاصم، ٥٠٠، سنن البيهقي ٨: ١٥٦، الجامع الصغير ١: ١١١٨ وصححه الشيخ الألباني، مشكاة المصابيح ٢: ٣٣٦ وصححه الشيخ الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ٢: ٦٧٧ ح٩٨٤، ظلال الجنة ٢: ٢٦٣ ح١٠٨١ وصححه الشيخ الألباني .

(٣) مسند أحمد ٤: ١٣١، وصحح محقق الكتاب شعيب الأرنؤوط سنده، و ٤: ١٣٠ وصحح المحقق المذكور سنده، سنن الدرامي ٢: ٤٣٢ وصرح محققه بصحة سنده، سنن أبي داود ٢: ٦١٠ ح٤٦٠٤، مسند الشاميين ٢: ١٣٧، مشكاة المصابيح ١: ٣٥، وصرح محققه الشيخ الألباني بصحته، الإيمان لابن تيمية ١: ٣٦ وصرّح محقّقه الشيخ الألباني بصحته، منزلة السنة في الإسلام ١: ١٤.

لقد تناول القرآن الكريم مسألة الإمامة من عدة زوايا، وأولاها أهمية قصوى بالنظر إلى حاجة الناس الماسة إليها فقسمها قسمين:

القسم الأول: إمامة الهداية: قال تعالى: ﴿ **وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا** ﴾[1].

القسم الثاني: إمامة الغواية: قال تعالى: ﴿ **وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ** ﴾[2].

ثُمّ جاءت الآية الثالثة لتبين نتيجة وجدوى الإمامتين بقوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ** ﴾[3].

بمعنى أنّ الإمام هو في الدنيا قائد ودليل وهاد، وفي الآخرة أحد رموز الشهادة.

والشهداء هنا هم الذين يشهدون يوم القيامة أمام الباري تعالى على أعمال أممهم، قال تعالى: ﴿ **وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً** ﴾[4].

فالأئمة عليهم السلام هم الأمة الوسط والأمة من منظور قرآني، لا تخضع لعدد بقدر ما تخضع للقيمة الفكرية والعقائدية، كما هو حال إبراهيم عليه السلام: ﴿ **إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ** ﴾[5].

هناك أيضاً عدد من الآيات التي ترمز إلى خط الولاية، تتضمن معنى

---

(١) الأنبياء: ٧٣.
(٢) القصص: ٤١.
(٣) الإسراء: ٧١.
(٤) البقرة: ١٤٣.
(٥) النحل: ١٢٠.

الاتباع والاقتداء والولاء.

فقد جاء الخط بمعنى البيوت، قال تعالى: ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالآصالِ * رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾[1].

والبيوت هنا هي بيوت الانبياء عليهم السلام والرجال هم عناصر الولاية.

قال تعالى: ﴿ **وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً** ﴾[2]. وقال أيضا: ﴿ **إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** ﴾[3].

وجاء خط الولاية بمعنى القرى قال تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ** ﴾[4].

القرى المعرفة في الآية هم الأنبياء، والقرى الظاهرة هم الائمة عليهم السلام، والظهور هنا يدل على وضوح المقام والشخص.

أمّا السير وتقدير السير فهو كناية لأعمال الناس وآجالهم كما اصطلح القرآن الكريم على خط الولاية بمعاني أُخر كالعروة الوثقى، وحبل الله، وسمّاهم رجال الأعراف يوم القيامة قسماء الجنّة والنار، ونواب الباري تعالى في الدنيا وفي الآخرة يوم الحساب.

إنّ من مستلزمات بقاء الأُمة وجود قانون إلهي متكامل تتفاعل معه، بحيث يكون أساس كُلّ حرية فيها. كما أنّ مستلزمات استمرار التواصل والتفاعل بين

---

(١) **النور**: ٣٦ـ٣٧.
(٢) **يونس**: ٨٧.
(٣) **الأحزاب**: ٣٣.
(٤) **سبأ**: ١٨.

القانون والأمة وجود مرجع يحسم مادّة الخلاف فيها، ويسهر على تطبيقه بكل أبعاده وبمجموع هياكله، والذي عليه أغلب المجتمعات الإسلامية اليوم أنّ الدين وصل إلى مرحلة الاكنسة، بمعنى أنّه تحول من دين كامل جاء ليحل مشاكل البشرية إلى مجرد طقوس عبادية محصورة بين الخالق والمخلوق في زاوية المسجد أو المعتكف.

القيادة هي ركيزة النظام الذي أراده الخالق تعالى، والقائد الرباني من منظور آخر هو الشخص الذي اطلع المولى سبحانه وتعالى على سريرته، فوجدها قابلة لانطباع إرادته فيه، فزكاه واصطفاه وجعل منه القدوة والهاد، وليست هذه النظرية مخصوصة بالبشر فقط، بل الكون كُلّه مستودع للقيادة، ولولاها لما صح نظام.

والقانون الذي لا يراعي مسألة القيادة والمرجعية في تركيبته هو قانون منقوص بلا رأس، لا يمكنه الاستمرار في الحياة والعطاء والتطبيق، شأنه شأن الجسد الذي فصل منه رأسه فهو ميت في طريقه للتحلل والاندثار.

كُلّ عاقل يرى أنّ كُلّ دستور ليس فيه حاكمية لا يمكنه أن يقوم بنفسه، وإن قام بغيره فهو هجين، وجب علينا أن ننزّه المولى سبحانه وتعالى عن التفريط في شريعته وأن نَرُد على القائلين بترك مسألة قيادة الأمّة للناس، يفعلون فيها ما يريدون، كما حصل في السقيفة بأنّ قولهم لا يستند إلى دليل واحد يقوي جبهتهم، ناهيك أنّ الشواهد التاريخية والنصوص الإلهية تصب كُلّها في دائرة الإقرار بأنّ تجربة القيادة التي مرت بها الأمّة هي بشرية من صنع فئة أرادت أن لا يتم التعيين الإلهي لأنّه يتعارض ومصالحها.

ونتج عن تلك التجربة ضياع الحاكمية الإلهية بحصول انقلاب السقيفة

وانهيار نظرية الشورى بانقلاب الحكم الشوروي إلى ملك وجبروت وتسلط، جنت منه الأمة الإسلامية الويلات ولا تزال إلى الآن تكتوي بحر ناره.

ونلخص في الخاتمة ما جئنا به:

فنقول: يستلزم على الله تعالى تعيين قائد على أمة الإسلام، إمام مستخلف من قبله، ناصاً عليه عن طريق رسوله لاسباب عديدة:

أولاً: لأن مسألة الاختيار تلك هي من ألطافه تعالى ورحمته، فعلمه بالأولى والأصلح يحتم ذلك التعيين الذي يدخل في دائرة الاصطفاء.

ثانياً: لأن الإمامة أو القيادة هي من مستلزمات القانون الالهي وطرف فيه.

فهي وعاءه وحافظته ودعامته ومن دونها يتلاشى ذلك القانون ويكون عرضة لعبث العابثين، ومن هنا وجب حفظ الشريعة بها.

ثالثاً: حداثة عهد الشريعة ومعتنقيها تستوجب أن يكون اختيار الإمام أو القائد من قبل الأولى بالاختيار، لقصور الناس عن إدراك أبسط المسائل المتعلقة بالدين فضلاً عن الإمامة.

رابعاً: الخطر المحدق بالنظام الناشئ من الداخل، وهو حزب المنافقين الذين حاولوا مرات عديدة وبطرق مختلفة اطفاء جذوة الإسلام وتصفية الرسول ﷺ وحتى قتله، يحتم اختياراً مسبقاً ومدروساً.

خامساً: الخطر المحدق بالنظام الناشئ من الخارج وهما الروم والفرس يستوجب التنبه لهما، خاصّة وأنّ الرسول قد شرع في محاربة الروم فكيف يعلن حربهم ثُمّ يترك لهم أمة بلا قائد.

سادساً: خلو منصب النبوة وانقطاع الوحي باعتبار أنّ الرسالة الإسلامية هي الخاتمة يتطلب خلوص أصحابها - الله والرسول - إلى الطريقة المثلى في

اختيار الوارث - ليس بالمعنى البشري -، بعد ما جاءنا من أنباء الأمم السابقة في القرآن ما يفيد ذلك الاختيار.

سابعاً: إنّ القرآن الكريم الذي بين أيدينا هو معجزة الرسول ﷺ ودستور الأمّة، فيه المحكم وفيه المتشابه، وفيه العام وفيه الخاص، وفيه الناسخ وفيه المنسوخ، وكُلّ ذلك لا بدّ له من عالم به مدرك له تمام الإدراك، ومن العبث على عاقل - مثلاً - أن يترك نفائسه ودرره بين أيدي صغار له، لم يدركوا بعد معانيها الكاملة، وقد رحل عنهم إلى عالم الملكوت.

ثامناً: إنّ بيان وتفصيل الشريعة والمعبر عنه بـ(السنّة النبوية) لهما في حقيقتها جزءان لا يتجزءان، القرآن والوحي. هذه السنة هي من الحجة والبرهان بما كان لم يأمر الرسول الأعظم كما جاء في روايات جمهور المسلمين بكتابتهما، كما كان يفعل في القرآن، ليس تفريطاً منه، بل لأنّ الله تعالى اودعها في صفوته وخاصته الذين أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

تاسعاً: تأكيداً على ما أوردناه من أسباب نخلص إلى فشل نظرية القائلين بحرية الناس في اختيار الإمام وسقوطها بعد ربع قرن من التجربة، انتهت على حروب دامية كادت تأتي على بارقة الإسلام، انتقل بعدها الناس طوعاً وكرهاً إلى الرضا والتسليم بالملك المتسلط الذي لا يستند على شريعة أو دين إلا بضرب من التسويف والكذب.

ولو قبلوا اختيار المولى سبحانه وتعالى لكان أصلح لهم في معاشهم ومآبهم، ولكنهم حادوا عنه بدعاوى مختلفة، فنالهم من ذلك العصيان ما نال سابقيهم.

بزوغ النور

رغم أنّني لا أنكر أن فطريتي في حب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام هي التي دفعتني دفعاً وأنا أتصفح الورقات الأولى من كتاب المراجعات على معانقة الولاء الحق، وتبني النظرية الإسلامية التي طرحها أئمة أهل البيت عليهم السلام للناس، والتي تشكل في مضامينها مطابقة الحجة لدليلها. رغم ذلك فإنّ ما لفت انتباهي وشدّ اهتمامي قوة الادلة التي في حوزة المسلمين الشيعة وعلى وجه الخصوص منهم الإمامية الاثني عشرية، تلك النصوص التي حفلت بها كتب مخالفيهم قبل كتبهم. وهل توجد حجة أقوى من أن يحتج صاحب الدعوى على خصومه من كتبهم؟! لكن لماذا لا يدرك هؤلاء الخصوم بأنّ الدين الحقيقي والصحيح لا يقوم إلاّ على الحجّة والبرهان والدليل والبيان لا على التبعية العمياء والتوارث البغيض؟

حقيقة واحدة حالت دون بلوغ هؤلاء لإدراك الصواب وهي قصورهم عن البحث والاطلاع، واقتصارهم على ما قرره علماؤهم - إن صحت التسمية - بخصوص التشيع وأهله، دون التثبت فيما جناه هؤلاء المتقولون لطمس الحقيقة والنأي بها عن عقول الناس.

ولكن للحق صولة، وتبرق من بين ثنايا ظلمات الباطل بارقة الحق، فتدحض الدعاوى الزائفة والترسبات الغريبة بوميض صدقها، وقوة دلالتها، واستقامة برهانها.

تعرفت في عملي على أحد الزملاء، وبمرور الأيام اصطفيته لنفسي أخاً وصديقاً، فتثبتت العلاقة وتوطدت أواصر المودة بيننا حتى صرنا قليلي الافتراق عن بعضنا، حدثته عن التشيع لأهل البيت عليهم السلام فوجدته متهيأ سابقاً،

رد علي قائلاً: في يوم من الأيام بأنّه تشيع بفضل آية واحدة وهي ﴿ **بسم الله الرحمان الرحيم** ﴾، كان الرجل مالكياً بالوراثة، شأنه عموم اتباع المذاهب الأربعة (الحنفية المالكية الشافعية الحنابلة)، استوقفته الآية تساءل عن عزوف المالكية عنها، واعتبارها مكروهة في القراءة أثناء الصلاة، وهي تكاد تكون الاسم الأعظم، حسب ما جاء من روايات بخصوص عظم قدرها وعلو مقامها، كان ذلك أول الخيط الذي أمسك بطرفه ليدرك الحقيقة، أخبرته بعدها بأنّ معاوية ومن تبعه من حكام بني أُميّة على ذلك هو أوّل من منع البسملة في الصلاة، كما صدع بذلك في تفسيره بهامش تفسير الطبري حيث تعرف لاختلاف روايتي أنس بخصوص البسملة منعا وإجارة فقال: وكان بنو أمية.

إذاً تلك دلالة قوية تقول بأنّ الدين الإسلامي الذي جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين وقع تحت طائلة الطغاة والظالمين، وحسب أهوائهم ومصالحهم ونزواتهم يجيزون للناس ما يرونه ويمنعون عنهم ما لا يرغبونه، حتى وإن كان لا يشكل عليهم خطراً، كالبسملة التي منعها معاوية لا لشيء سوى أنّ علياً عليه السلام كان يستفتح بها في كُلّ صلاة يصليها، إمعاناً منه في إبطال آثاره. كأنّما علي عليه السلام مبتدع، ومعاوية الطليق بن آكلة الأكباد مصحح ومرجع!! وهل علي عليه السلام سوى نفس رسول الله بمنطوق آية المباهلة التي تقول ﴿ **فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ** ﴾[1] اتفقت الروايات على أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخرج لمباهلة وفد نصارى نجران علياً (أنفسنا) وفاطمة (نساءنا) والحسن والحسين (أبناءنا)

---

(١) آل عمران: ٦١.

عليهم الصلاة والسلام.

وهل علم علي عليه السلام إلاّ باب لعلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما في الحديث المشهور « أنا مدينة العلم وعلي بابها »[1]، ولم يكن هناك بشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعلم منه، حتى ابن عمه عبد الله بن عباس الذي حاول البعض جعله بديلاً للإمام علي عليه السلام فمنحوه ألقاباً لا تستقيم له مع وجود علي والحسن والحسين عليهم السلام. فقالوا بأنه (حبر الأمّة) و(ترجمان القرآن) وأين علمه من علم علي فكان رافعاً لكُلّ شبهة (كقطرة ماء في البحر المحيط).

وهل صلاة علي عليه السلام معه والناس عاكفون على أصنامهم يعبدونها، فعرف الله تعالى وتقرب له اقتداءً وتأسياً وتعلماً من ابن عمه وأخيه بالمؤاختين في مكة والمدينة. كان عليه السلام يقول: « أنا الصدّيق الأكبر، لا يقولها بعدي إلا كاذب، صلّيت قبل الناس بسبع سنين»[2].

فكيف تستقيم مقايسة التبر بالتبن والثريا بالثرى ﴿ **فَإِنَّها لا تَعْمَى الأَبْصارُ**

---

(١) المستدرك للحاكم ٣: ١٢٦ وقال: »هذا حديث صحيح الإسناد و ٣: ١٢٧ وقال: »قال الحسين بن فهم: حدثناه أبو الصلت الهروي عن أبي معاوية. قال الحاكم: ليعلم المستفيد لهذا العلم أن الحسين بن فهم بن عبد الرحمن ثقة مأمون حافظ ، المعجم الكبير للطبراني ١١: ٦٥، ح١١٠٦١، حلية الأولياء لأبي نعيم ١: ٦٤، فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٢: ٦٣٤ ح١٠٨١، كشف الخفاء للعجلوني ١: ٦٣٤ وقال بعد كلام له عن أبي سعيد العلائي الصوان: »إنه حديث حسن باعتبار تعدد خرقه ، الاستيعاب لابن عبد البر ١: ٣٣٩، أُسد الغابة ١: ٧٩٤، تهذيب الكمال ١٨: ٧٧ .

(٢) سنن ابن ماجة ١: ٤٤ وقال محققه: »هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، رواه الحاكم في المستدرك عن المنهال وقال: صحيح على شرط الشيخين ، مستدرك الحاكم ٣: ١١٢، المصنف لابن أبي شيبة ٧: ٤٩٨، كتاب السنة لابن أبي عاصم: ٥٨٤، خصائص الإمام علي للنسائي ١: ٢٥، ظلال الجنة للألباني ٢: ٣٩١، تهذيب الكمال ٢٢: ٥١٣.

وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[1].

لقد كانت فترة المراجعة التي قمت بها لتمييز الحق من الباطل كافية لابراز عدد من العلامات الدالة على صحة دعوى المسلمين الشيعة بأنّهم الفرقة الناجية، وأنّها هي على الحق، لا تزال تتمسك بحبل الله المتين، وتستمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، وأنّها على الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم: علي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من أهل البيت عليهم السلام، أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

من بين تلك العلامات أيضاً على سبيل الذكر لا الحصر:

العلامة الأولى:

لماذا عزف رواة الأشاعرة عن الرواية عن الإمام علي عليه السلام واستدلوا بغيره ممن لا وجه لمقارنته معه؟

حتى الآيات التي نقلوها عنه من باب التلفيق عليه، والكذب الخسيس الذي روجوه عنه، بأمر من الطغاة والظالمين، فعلى سبيل المثال نجد أنّهم يفترون عليه القول بتحريم المتعة والحال أنّه قد تسالم الجميع على أنه صاحب القول بأنّه: « لو لا أن نهى عنها عمر ما زنى إلا شقي »[2].

ينقلون في كتبهم بأنّه باب مدينة علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وينقلون عنه عليه السلام قوله: « سلوني قبل أن تفتقدوني ولن تسألوا بعدي مثلي »[3]، وكان يشير إلى

---

(١) الحج: ٤٦.

(٢) ورد بألفاظ مختلفة: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٢: ٢٥٣ و ٢٠: ٢٥، جامع البيان لابن جرير ٥: ١٩، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٢: ٣٦، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥: ١٣٠، الإكمال في أسماء الرجال: ١٢٤.

(٣) تفسير الطبري ٧: ٤٥١، المستدرك للحاكم ٢: ٣٥٢ وقال: » حديث صحيح عالٍ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ٢٨٦، دفع الارتياب عن حديث الباب: ١٦، تاريخ

صدره فيقول: « إنّ ها هنا لعلما جماً »[1].

ورغم كُلّ ذلك نجد أنّه لا حظّ له بين أكثر الرواة عندهم أمثال: أبي هريرة، وعائشة، وعبد الله بن عمر، وغيرهم ممّن عدت رواياتهم بآلاف فهل أنّ علم هؤلاء فاق علم باب مدينة العلم أم لسياسة كانت متبعة في العصر الأموي لأجل دفع أهل البيت عليهم السلام عن مقامهم ومنزلتهم ؟!

لماذا تتمحور جل رواياتهم في أسانيدها على أسماء لم تعرف بالعلم ولا بالسبق خاصّة، ولدينا قرينة تقول بتأخر عصر التدوين عندهم إلى القرن الثاني، فهل كان ذلك للتمييز بين تلك الأسماء ومن أذهب الله تعالى الرجس عنهم وطهرهم تطهيراً أم أن تأخر التدوين كان مراد منه تكبيل الشريعة وتعطيلها إن لم نقل محقها وتضييعها؟! والباحث المنصف يقف أمام حقيقة دفع الحق عن أهله، وتغييب مضامين الدين القيم عن الناس ليستمر العمل على هدمه دون رد فعل.

العلامة الثانية:

لفت انتباهي وأنا في مرحلة المقارنة والبحث عند تصفحي لكتاب جامع الروايات الملقب بـ(الصحيح) لمسلم النيسابوري القشيري، وأنا أتصفح باب الإمارة عدداً من الروايات التي يتوقف عندها كُلّ عاقل ولا يتجاوزها حتى يدرك شيئاً من الحقيقة:

مدينة دمشق لابن عساكر ١٧: ٣٣٥، تهذيب الكمال ٥: ٧٩، السنن الواردة في الفتن ٤: ٨٣٨، مجموع الفتاوى الكبرى لابن تيمية ٤: ٣٠٢.

(١) تاريخ بغداد ٦: ٣٧٦، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٢٧: ٩٩، دفع الارتياب عن حديث الباب: ١٨، نظم درر السمطين: ١٢٦، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٢: ٢٠٢.

الرواية الأولى: التي صرح فيها رسول الله ﷺ بأنّ الأمّة سيكون عليها اثنا عشر خليفة أو إماماً[1].

الرواية الثانية: والتي قال فيها رسول الله ﷺ: « ستكون خلفاء فيكثروا.

فقالوا: فما تأمرنا؟

قال: فوا ببيعة الأول فالأول »[2].

الرواية الثالثة: التي قال فيها رسول الله ﷺ: « من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية »[3].

الروايتين الأولى والثانية اللتين في مسلم تحدثتا عن عدد محدد من الخلفاء الذين سيكونون في الأمّة ولم أجد تفسيراً لذلك العدد غير ما يعتقده المسلمون الشيعة الإمامية الاثني عشرية، ولعل وصية الرسول الأعظم ﷺ بأنّ نفي ببيعة الأول فالأول دالة على أن الاختيار خارج عن اطار الناس، وإنّما هو تعيين الهي بحت علينا فيه بالسمع والطاعة والبيعة لمن رتبهم الله ورسوله أولاً بأوّل، وهم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وآخرهم الحجة المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلما وجوراً.

أمّا الرواية الأخيرة مبيّنة لأهمية الإمامة في الأمّة، ومدى عظم شأنها، بحيث يموت فاقدها ميتة جاهلية وإن قام ببقية واجباته الدينية.

إنّ نظم أمر الحاكمية يستتبع نظم أمر الأمّة، وفقد الرأس يطيح ببقية الجسد، لأن الإمامة رأس الدين وروحه التي بها يحيا، ومن تتبع سيرة الرسول

---

(١) صحيح مسلم ٦: ٤، كتاب الإمارة، باب الاستخلاف وتركه.
(٢) صحيح مسلم ٦: ١٧، كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء.
(٣) صحيح مسلم ٦: ٢٢، كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين.

الأعظم ﷺ في هذا الخصوص لاحظ حرصاً شديداً منه على أن لا يترك أمراً جزئاً من الأمّة بلا قائد، فما بالك وهو يستعد لرحيل طويل؟!

العلامة الثالثة:

بعد البسملة التي أتينا على ذكرها، قال تعالى: ﴿ **قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى** ﴾[1].

مودة آل محمّد ﷺ راجين بمنطق الآية ولم أرَ فريقاً من المسلمين يودّ آل محمّد يتطابق والآية غير المسلمين الشيعة الذين جعلوها شعارهم وتقربوا بها إلى الله تعالى. هم من حافظوا على الصلاة الكاملة عليهم، وهم من يحيي إلى الآن آثارهم وسنتيهم ومواليدهم ووفياتهم، يفرحون لفرحهم، ويحزنون لحزنهم، وغيرهم إما غافل أو غير عابئ.

العلامة الرابعة:

الصلاة على النبيّ ﷺ خرج عن أدائها عامة المسلمين وأقام عليها المسلمون الشيعة، فعندما يذكر رسول الله ﷺ يصلي المخالفون عليه بقولهم صلى الله عليه وسلم أو عليه الصلاة والسلام، مخالفين النصّ الدال، ومجانبين نهيه ﷺ عن الصلاة عليه مفرداً ويمسك، في حين أنّ المسلمين الشيعة يصلون عليه الصلاة الكاملة التامة، وهي الصلاة عليه وآله بقولهم: صلى الله عليه واله وسلم، دونما كلل ولا ملل امتثالاً لأمره تعالى في أداء هذه الشعيرة تامة غير منقوصة، كما يريد هو، لا كما يصر على أدائه الظالمون واتباعهم ممن لم يستسغ إدراج آل محمّد في الصلاة.

---

(١) الشورى: ٢٣.

العلامة الخامسة:

والتي سرعان ما وضعت الصحابة على طرفي نقيض واختلاف في أبسط الشعائر وأكثرها وضوحا وبساطة وهي: عدد تكبيرات الصلاة على الميت، فهل يعقل ان يختلف هؤلاء في مسألة بسيطة في متناول كُلّ فرد يؤتي بها فرض كفاية؟!

ولو أنّك تسأل من يكبر أربعاً: لماذا تكبر أربعاً على الميت؟ لما أجابك!

ولو أنّك تعيد طرح السؤال نفسه على أبسط مسلم شيعي لقال لك: إنّها بعدد أركان العقيدة وعدد الصلوات اليومية، ولقال لك - أيضاً - إنّ رسول الله ﷺ كان يصلي على كُلّ المسلمين مؤمنين كانوا أم منافقين، غير أنّه كان يكبر على المؤمن خمساً باعتبارهم مسلمين ومؤمنين، ويكبر أربعاً على المنافقين، إلى أن نزلت الآية التي جعلت الصلاة عليهم مستحبة، فاختلط الأمر على المسلمين، مما دفع بالخليفة إلى جمع الناس على أربع تكبيرات، ولو أنّهم أرجعوا الحق لأصحابه لما التبس عليهم الأمر في مسألة كالصلاة على الميت.

العلامة السادسة:

من المسائل التي كان من المفترض أن لا يقع فيها خلاف بين المسلمين، ولكن السياسة دوليتها العصبية المذهبية وما اقتضيها من أسباب دعت إلى تعريف تلك العبادة، وتفريق المسلمين بين مطبّق للآية كما جاءت وبين معرف لها بدعوى واهية، وظنون لا تقوم على أساس، أمّا دعاوي النحو وعطف الأرجل فقد بخع لها الرازى بالاعتراف، وصرّح بأنّ القرائتين حكمها المسح، ولكنه في خاتمة اعترافه اتبع الظن بميله إلى ترجيح الجهل على العلم والشك على اليقين، فعاد إلى القول بالغسل في حكم الرجلين من خلال اعتماده على روايات نسبت إلى رسول الله ﷺ تقول: الويل للأعقاب من النار.

ظاهر تلك الروايات لا علاقة له بالموضوع ولا بالصلاة، بل لعل المقصد منها المتقلّب على عقبيه من المسلمين في مواجهة المشركين.

وبمقارنة بسيطة يتضح حكم الرجلين في الوضوء، لقد كان رسول الله يتوضأ بمد (والمد ثلاث أكف)، وهي لا تكفي لغسل رجل واحدة لو كان حكم الرجلين الغسل، في حين أن الأكف الثلاثة للأعضاء المغسولة وهي الوجه واليد اليمنى واليد اليسرى ومسح الرأس والرجلان ببلل اليدين

مقارنة التيمم بالوضوء على الروايات التي أخرجها الطبري وغيره عن ابن عباس والتي تقول: ألا ترى أنه ما كان مغسولا في الوضوء يمسح في التيمم، وما كان ممسوحاً في الوضوء يسقط في التيمم، فسقط الرأس والرجلان.

ذلك هو دين العلم وعبادة المعرفة لا دين الوراثة والاتباع الأعمى.

العلامة السابعة:

الجمع في الصلوات: هل كان رسول الله ﷺ يجمع في صلاته؟ وهل هناك دلالات على ذلك؟ ولماذا يتغافل عن ذلك عدد هام من المسلمين؟

لقد كتب الذين لا يجمعون في صلواتهم بالروايات التي تشير إلى كون رسول الله ﷺ جمع بين صلاتي الظهر والعصر وبين صلاتي المغرب والعشاء ومن ناحية صرّح بذلك القرآن الكريم حيث ذكر للصلوات الخمس ثلاثة أوقات وهي:

- ﴿ **أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ..** ﴾[1].
- ﴿ **أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ..** ﴾[2].

---

(١) الإسراء: ٧٨.
(٢) هود: ١١٤.

- ومع ذلك بقي شاهد آخر يقوي صحة الدعوى وهي: جمع الحجاج لصلاتي الظهر والعصر من ناحية، والمغرب والعشاء من ناحية أخرى.

العلامة الثامنة:

إسقاط الخمس رغم أنه حكم من أحكام الله في القرآن الكريم وحصره في غنائم الحرب، والحال أنّ الآية تشير إلى مطلق الغنم.

ليس هناك سبب يبرر ذلك سوى أنّ أهل البيت عليهم السلام يعود إليهم التصرف في الخمس، دون الزكاة التي حرمها على نفسه وعليهم، لذلك فإنّ بصمات أعدائهم جلية في إسقاط الخمس، لكي لا تصل تلك الأموال إليهم لتكون لهم عوناً على من ظلمهم.

العلامة التاسعة:

الدعاء أو القنوت في الصلاة: هذا السلاح الرهيب الذي جعله الله تعالى وسيلة للمناجاة بين العبد وبينه، وسبباً من أسباب ديمومة الرحمة والخير، قال تعالى: ﴿ **قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لا دُعاؤُكُمْ** ﴾[1].

أرجئت من موقعها في الصلاة فأضحت ببقية أجزائها جوفاء فارغة بلا روح، فمن جهة يقولون: بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقتصر القنوت على صلاة الصبح فقط، والحال أنّ الصلاة واحدة في مفهومها وروحها وأركانها وسنتها وصدق من قال في الجامع المسمى بـ(صحيح البخاري): يقول الزهري: « دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي فقلت: ما يبكيك؟ فقال: لا أعرف شيئاً مما أدركت إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضيعت »[2].

---

(١) الفرقان: ٧٧.

(٢) صحيح البخاري ١: ١٣٤، كتاب الصلاة، باب ستر المصلي.

فأين هؤلاء القوم من قوله ﷺ « الدعاء مخ العبادة »[1]، « الدعاء معراج المؤمن »[2] وغيرها من الروايات التي تحث على الدعاء في الصلاة وتدعو إلى التمسك به باعتباره مخاً ومعراجاً وأساساً ولباً للعبادة.

قيل للإمام علي عليه السلام: لِمَ نرفع أيدينا إلى السماء عند القنوت في الصلاة؟ فقال: « وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ » .

العلامة العاشرة:

توقيت الإفطار في يوم الصيام: يتملكك العجب عندما تقرأ الآية التي في سورة البقرة والتي تتحدث عن الصوم وهي: ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إِلَى اللَّيْلِ** ﴾[3].

عندما ترى السواد الأعظم من المسلمين كيف يتحرى في إمساكه للصيام ويبدأ صيامه ليلاً وقبل الفجر بوقت طويل.

فيقطع صيامه وضوء النهار مازال يعم الأرجاء، والله تعالى يؤكد على إتمام الصيام إلى الليل، أي إلى غسقه كما في آية توقيت الصلاة، أي على دخول الليل.

والمعبر عنه بذهاب الحمرة المشرقية وقت دخول صلاة المغرب، فهل لهذا تفسير سوى أنّ الناس أجمعت على التقليد الأعمى، وسلوك منهج غير علمي؟!

لا يخضع إلى قوة الدليل في اعتماد الأحكام والسنن الإلهية. ومقابل تلك

---

(١) سنن الترمذي ٥: ١٢٥، فتح الباري ١١: ٧٩، المعجم الأوسط للطبراني ٣: ٢٩٣.
(٢) تفسير الفخر الرازي ١: ٢٦٦، تفسير الآلوسي ١٢: ١٦٨.
(٣) البقرة: ١٨٧.

الدلالات الواضحة نجد في تصرف الكثير من هؤلاء إصراراً على المضي إلى الباطل قدماً، وتمسكاً بعكس سنن سيّد المسلمين ﷺ فمن ذلك مثلا وكنموذج على التعصب الأعمى والانغلاق المقيت الذي قوض صرح الإسلام العظيم وجعله في مقام متدن لا يليق به: إنّ هؤلاء المتعصبين يخالفون السنّة في كثير من الموارد بدعوى تسنين غيرهم بها.

على الرغم من انتسابهم لها، فالتختم في اليد اليمنى سنة يقرون بها ولا يتقيدون بها، بل ويذهبون إلى التختم باليسار مخالفة للمسلمين الشيعة، ونرى كذلك تسنيمهم للقبور في حين أنّ السنّة تسطيحها مخالفة للمسلمين الشيعة ... إلى غير ذلك من التجاوزات التي يرون فيها المساس بالنصّ ومخالفته أفضل من اتباعه والتشبه فيه بالمسلمين الشيعة، وإن كان فرضاً أو سنّة.

أخيراً هل أتاك خبر رضاعة الكبير؟ وهل مررت به في باب الفقه من كتب هؤلاء القوم، لعل موطأ مالك أولها ثُمّ ما يسمى بـ(الصحاح).

العلامة الحادية عشر:

أسماؤهم عليهم السلام: فإنّ الملتفت إلى هذه الإشارة يدرك جيداً مدى عمقها، ودلالتها على أحقية هؤلاء الصفوة في قيادة الأمّة، فعلي عليه السلام والحسن والحسين عليهما السلام أسماء لم تكن معروفة قبل في قريش ولا في بلاد العرب قبل ولادة هؤلاء، بل إنّنا قد نجد في الروايات والأحاديث التي تشير إلى أنّ تلك التسميات الإلهية بحتة، كُلّها مشتقة من الأسماء الحسنى، ففي الحديث القدسي الذي خاطب فيه المولى سبحانه وتعالى نبيه الأعظم ﷺ بقوله: « إنّي قد اطلعت على الأرض اطلاعة فاخترتك منها، واشتققت لك اسما من أسمائي، فأنا المحمود وأنت محمّد، ثُمّ اطلعت ثانية فاخترت علياً واشتققت له

اسما من أسمائي، فأنا الأعلى وهو علي »[1].

هذه اشارة لطيفة لمن ألقى السمع وهو شهيد، قد تعيد من لم تتلوث فطرته بآراء أشباه العلماء والفقهاء والمتكلمين، ممن باعوا ضمائرهم وآخرتهم، تزلفاً لملوكهم وسلاطينهم، أو استكباراً من عند أنفسهم.

العلامة الثانية عشرة:

وإنّ فاتك إدراك كُلّ هذه المعاني والإشارات فلا تفوتك سيرة هؤلاء الذين لم يسجل لهم التاريخ غير المكارم والفضائل التي لا يدانيها أحد من العالمين.

إن شئت هذا علي نفس الرسول الأعظم – صلى الله عليهما – قد أخذ بمجامع العلوم، فكان الأصل الذي عاد إليه كُلّ صغير وكبير حتى عدّ أصل كُلّ علم بعدما عده النبيّ باب مدينة علمه.

أما أخلاقه وسيرته فهي تنبئك على أنّ الذي وقعت عليه كان سفينة النجاة، وباب حطة، منه تعلم العارفون التعامل مع الدنيا والعيش فيها، فكان بحق سيد الزاهدين، وأفضل العابدين بعد الرسول الأكرم ﷺ، ونحا نحوه ذريته وصفوته الطاهرة، يسلكون نهجه وقلوبهم وجلة من خشية الله، لم تداخلهم الطمأنينة في جنب الله تعالى حتى يستأنسوا بالرضا، فكانت حياتهم كُلّها تضحية وعطاء.

العلامة الثالثة عشرة:

استمرار العمل بالاجتهاد من عصر الرسول الأكرم ﷺ والأئمة عليهم السلام لدى المسلمين الشيعة، فهو متّصل بعصر النبوّة والإمامة، متواصل في أداء دور بيان

---

(١) الغيبة للنعماني: ٩٥.

الأحكام الشرعية إلى عصرنا هذا لم ينقطع أبداً رغم محاربة الأعداء والظالمين لهم، بينما لم يكن فقه غيرهم ولا علومهم متصلة بعصر النبيّ ﷺ، فهذان أقدم فقهائهم: أبو حنيفة ومالك لم يعاصرا رسول الله ﷺ، ولا أخذا عمّن عاصره، ولولا تتلمذهما على يدي الإمام السادس لأهل البيت عليه السلام لما كان لهما ذكر يتردد بين الفقهاء.

ثُمّ جاء من الحكام من منع الاجتهاد وحرمه على الناس، فأوقفوا دينهم وفقههم على مذاهب أربعة، هي – إضافة إلى ما ذكرت –: الشافعي وابن حنبل، وكُلّ من جاء بعدهم لم يتجرأ على الاستقلال بفتواه، فكانت في غالبيتها مطابقة لأصول أصحابها الأربعة.

العلامة الرابعة عشرة:

الظهور على الحق: قال رسول الله ﷺ في حديث أخرجه حتى المخالفون كمسلم والبخاري: « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله »[1].

فأيّ فرقة من المسلمين ظلت ظاهرة على مدى التاريخ بعلومها ومواقفها وتاريخها وقلة عددها – لأنّ الكثرة غثاء مذموم عند الله وعند رسوله – غير هؤلاء الذين لهم في كُلّ زمن شاهد على حضورهم.

---

(١) صحيح مسلم ٦: ٥٢، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: « لا تزال طائفة من أمتي .. ».

الدعاء والعبادة عند أهل البيت عليهم السلام

دعا يدعو دعاء، والدعاء هو النداء لغة، أما شرعا فهو مخاطبة الخالق سبحانه وتعالى، ومناجاته في الصلاة، وفي سائر العبادات.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى عبيده بالإنابة إليه والدعاء بين يديه بإخلاص وتكفل بالإجابة فقال: ﴿ **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾[1]، وقال جلّ من قائل أيضاً: ﴿ **وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ** ﴾[2]، وقال كذلك: ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً** ﴾[3].

ولما كان الدعاء هو السبيل الوحيد إلى مخاطبة الخالق لتعاليه واستعلائه على مخلوقاته، لم تجز مخاطبته كما يتخاطب الناس فيما بينهم ولا محادثته؛ لأنّ المخاطبة والمحادثة لا يفيدان في طلب شيء من الذات الإلهية، كأن تقول خاطبت أو حادثت مستشعرا فيهما التساوي والندية، في حين أنك إذا قلت دعوت، أو ناجيت، أو توسلت، أو تضرعت، فهي لائقة بالمقام الإلهي ومنصرفة إليه.

وقد جاء في الحديث: « الدعاء مخ العبادة »[4].

---

(١) غافر: ٦٠.

(٢) البقرة: ١٨٦.

(٣) الأعراف: ٥٥.

(٤) الوسائل للحر العاملي ٧: ٢٧، ح٨٦١٥، فتح الباري لابن حجر ١١: ٧٩، كشف الخفاء للعجلوني ١: ٤٠٣.

لأنّ عبادة العبد من دون لجوء وتوجه إلى الله تعالى، ودعاء مرفوع منه إلى خالقه كي يستجيب له فيما يحتاجه في دنياه وآخرته؛ تعب وعناء بلا فائدة، واستخفاف بروح العبودية التي جعلها الباري تعالى عنوان كُلّ عاقل أدرك حقيقة العبودية لله تعالى.

والدعاء لب العبادة وجوهرها، فإذا كانت العبادة صَدَفة فالدعاء لؤلؤها، وإذا كانت جسداً فهو روحها، وإذا ما نزعت اللؤلؤة من موضعها صارت الصَدَفة بلا قيمة، كالجسد الذي إذا فارقته روحه صار بلا حركة وعرضة للتغّير والتحلّل والاندثار، كذلك فإنّ الصلاة التي هي معراج المؤمن إلى ربّه، إذا كانت خالية من لغة الوصال والقرب، عجفاء من الدعاء فإنّها لا تحقق العروج المؤمل، ولا القرب المراد ولا الزلفى المرتجاة، وقد تترك نتيجة عكسية. والحديث الذي جاء مشبها للدعاء بالمخ دالٌ في مضمونه على قيمة ذلك التوجه وأهميته في البناء العبادي، فلا تستقيم صلاة بلا دعاء، وحال المصلي الذي لا يتجه في صلاته بالدعاء إلى خالقه حال المستكبر الذي لا يعي من مقام العبودية غير حركات القراءة والركوع والتسبيح والسجود والتشهد دون الالتفات إلى العلة من الصلاة والعبادة.

وقد جاء عن الإمام أبي جعفر محمّد بن علي الباقر خامس أئمة أهل البيت عليهم السلام في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ** ﴾ قال: « هو الدعاء وأفضل العبادة الدعاء »[1].

و قال في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ إِبْراهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ** ﴾[2] الاوّاه هو الدّعّاء.

---

(١) الكافي للكليني ٢: ٤٦٦، ح١.
(٢) المصدر السابق ٢: ٤٦٦، ح١.

وسئل عليه السلام: أي العبادة أفضل؟

فقال: « ما من شيء أفضل عند الله من أن يسأل ويطلب ما عنده »[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: « أحبّ الإعمال إلى الله تعالى في الأرض الدعاء ، وكان عليه السلام رجلا دعّاء »[2].

وإذا أمعنت النظر في حال المسلمين اليوم على الاختلاف مشاربهم وفرقهم تلاحظ عزوفاً عند معظمهم عن دعاء القنوت في أغلب الصلوات المفروضة، وكُلّ الصلوات المسنونة، لتنكبهم عن مورده الأساسي وجهلهم به كلغة تخاطب مع الخالق تعالى.

أمّا عن تنكبهم عن مورده، وجهلهم به فإنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، شأنه في ذلك شأن بقية المرسلين عليهم السلام، لم يتركوا أمراً من أمور الدين إلاّ بيّنوه، ولم يألوا أقوامهم نصيحة، فادوا ما عليهم، وتركوا آثارهم وشرائعهم للهداة والمستحفظين من آلهم عليهم السلام، كذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وآله مع أمته ن ونصح لهم بما لم ينصحه أحد من قبله، والنصوص النقلية والعقلية التي بين أيدي المسلمين اليوم لا تدع مجالاً للشك في ذلك، كقوله صلى الله عليه وآله: « إنّي أوشك أن أدعى فأجيب وإنّي تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي وأنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما »[3] والعترة الطاهرة التي أذهب الله سبحانه وتعالى عنها الرجس وطهرها تطهيراً، لأجل تأهيلها لحمل عبء الشريعة، وحفظاً وتطبيقاً، دون أن يتطرق شك من حملتها، ولا تحريف في أدائها.

---

(١) المصدر السابق ٢: ٤٦٦، ح٢.

(٢) المصدر السابق ٢: ٤٦٧، ح٨.

(٣) حديث الثقلين من الأحاديث المتواترة ، وقد تقدم تخريجه .

وقوله ﷺ: « إنّما مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق »[1]. وهو من الأحاديث الواضحة في دلالتها على مقام الأئمة من أهل البيت عليهم السلام من الأمّة، وتشبيههم بسفينة نوح يؤكد على وجوب اللجوء إليهم نجاة من طوفان التحريف والنفاق، وأن المتخلف عنهم غارق لا محالة في ظلمات بعضها فوق بعض.

وتخلف الأمّة عن هداتها وأدلائها ومستحفظيها، واستعاضتها عنهم بالغاصبين لحقهم الإلهي، ومن قلب بعد ذلك ظهر المجنّ للدين كُلّه، جعلها عوض أن تتقدم في فهم شعائرها ومعتقداتها على الوجه الذي جاء به الرسول الأكرم ﷺ، تتولى متقهقرة عن مراجعها حتى تباعدت الشقة بينها وبينهم، فنسوا حظاً مما ذُكّروا به، وأسلموا أنفسهم لمجهولي الحال وقليلي العلم، يسوقونهم إلى سلاطين الجور وأئمة الضلال سوق النعاج، يحلون لهم اتباعهم ويحرمون الخروج عليهم وخلافهم، وكان فيما كان منهم أن نزعوا عنهم لُبّ عبادتهم وجوهرها، لكي لا يصل شيء منها إلى الله تعالى فيردون مواردهم.

قال تعالى: ﴿ **وَقالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ** ﴾[2] ولو كان في هؤلاء المنتسبين إلى الإسلام من يعقل لرجع إلى أعظم الآيات القرآنية بدل نبذها وتركها، والغريب والعجيب أنك تسمعهم لا يبسملون (بسم الله الرّحمان الرّحيم) في الفرائض الخمس بدعوى أنها مكروهة، ويبسملون في نوافل شهر رمضان، بدعوى أنها من السنة!! أفيكون في كلام الله تعالى

---

(١) المستدرك للحاكم ٢: ٣٤٣ وقال: » هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يحرجاه ، ٣: ١٥١، مجمع الزوائد للهيثمي ٩: ١٦٨، إمتاع الأسماع للمقريزي ١١: ١٧٨، سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي ١: ٤٩٠.

(٢) الأحزاب: ٦٧.

ما هو مكروه حتى ينعتون البسملة بذلك النعت، أم إن أسمائه تعالى الثلاثة (الله الرّحمان الرّحيم) هي مكروهة عندهم؟! ومن أكبر جحوداً ممن يستهين بكلام الله تعالى وينعته بالكراهة تطاولاً عليه. قال الله تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً** ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: « بسم الله الرّحمان الرّحيم أقرب إلى اسم الله الأعظم من بياض العين لسوادها »[2].

أما الحقيقة التي خفيت عن كثير من المسلمين، والعلّة التي تسبّبت في جريان ذلك المجرى التعيس في عبادتهم، فهي أن معاوية بن أبي سفيان وحزبه كانوا شديدي العداء لعلي بن أبي طالب وأهل بيته عليهم السلام، فسعوا إلى إبطال كُلّ ما هو متصل به حتى إنّه أزال البسملة التي كان أمير المؤمنين يجهر بها في كُلّ صلاة حتى السرّية منها، قد أعماه الحقد عن ثابتة أن صلاة علي هي عينها صلاة رسول الله ﷺ وكان ممّن أخرج هذا المعنى النيسابوري في هامش تفسير الطبري حيث قال: « وكان مذهبه الجهر بها يعني البسملة ومن اقتدى به لن يضل قال ﷺ: اللهم أدر الحق معه حيث دار...

فلمّا وصلت دولة بني أمية بالغوا في المنع من الجهر سعياً في إبطال آثار علي عليه السلام فلعل أنسا خاف منهم، فلهذا اضطربت أقواله فيه »[3].

ثُمّ يعمد هؤلاء أيضاً إلى دعاء القنوت في الصلاة فيزيلونه منها تبعا لما ورثوه، دون التفات أو تساؤل عن سبب استثناء صلاة الصبح من ذلك،

---

(١) الكهف: ١٠٣ – ١٠٤.
(٢) الأمالي للشيخ الصدوق: ٧٤٠.
(٣) تفسير الفخر الرازي ١: ٢٠٦.

والرسول الأكرم ﷺ يقول: « أفضل الصلاة طول القنوت »[1] من غير مفاضلة لصلاة على أخرى.

وقد ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، كثير من الأحاديث التي تؤكد على القيمة الروحية للدعاء، ودوره في البناء العقائدي، نورد منها الآتي:

- الدعاء هو العبادة، الدعاء سلاح المؤمن، ليس شيء أكرم على الله من الدعاء[2].

- لا يردّ البلاء إلا الدعاء، أعدّوا للبلاء الدعاء، الدعاء عماد الدين[3].

- الدعاء مفاتيح النجاح، ومقاليد الفلاح، وخير الدعاء ما صدر عن صدر تقي، وقلب نقي وفي المناجاة سبب النجاة، وبالإخلاص يكون الخلاص، وإذا اشتد الفزع فإلى الله المفزع[4].

والدعاء واجب لا تستقيم الصلاة إلاّ به، ولا تعرج من دونه، وكان من سنن سيد المرسلين ﷺ، ومتعهد لباب الدعاء الذي فتحه المولى سبحانه وتعالى بينه وبين خلقه، حاشاً لأمّته على الطلب منه، والرجاء لديه، ولم يؤثر عنه أنّه صلّى صلاة واحدة من دون قنوت.

وما أرى الذين تنكبوا عن القنوت في الصلاة، إلا اتباعاً لمن زين لهم إهمال ذلك الباب، واستهانة بقيمته العباديّة، ومن فقد الدعاء، حرم الإجابة، وكانت صلاته كأنها مكاء وتصدية، عوض أن تكون تخشعاً وقنوتاً، كما

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي ٧٤: ٧٠، ح١، مسند أحمد بن حنبل ٣: ٣١٤، صحيح مسلم ٢: ١٧٥، كتاب الأدعية، باب الترغيب في الدعاء والذكر .
(٢) الوسائل للحر العاملي ٧: ٢٧ ح٨٦١٥، الكافي للكليني ٢: ٤٦٨، ح١، بحار الأنوار للمجلسي ٩٠: ٣٠٠، ح٣٧.
(٣) عيون الحكم لليثي: ١٤١، بحار الأنوار ٩٠: ٣٠٠، ح٣٧.
(٤) المصباح للكفعمي: ٣٦٨.

يقول تعالى: ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ ﴾[1].

ومن أراد إحصاء الأحاديث والروايات التي تتحدث عن قنوت رسول الله ﷺ في جميع الصلوات المفروضة والمسنونة فليراجع كتب الحديث والسنن عند من تسموا بسنّة رسول الله ﷺ، ففيها ما يقيم الدليل على أنّ سيد المرسلين كان يقنت في كُلّ صلواته، لعله إذا فعل ذلك يتقيد بسنة الرسول ﷺ التي نسب لها مذهبه قولاً، وخرج منها فعلاً وعملاً، إلى تحريف وبدع ما انزل الله بها من سلطان، كبتر الصلاة عليه، واستثناء آله الأطهار، اتباعاً لآثار بني أمية ومن حذا حذوهم، وفي بتر الصلاة على النبيّ ﷺ دليل على تأصل جذور الحقد الأموي في أمة الإسلام، وبقاء هذا التحريف دليلاً على جرائم حكام بني أمية في حق الإسلام وأهله، فلماذا الإصرار على التمادي في مسالك أئمة الظلم والجور، والله تعالى دعانا إلى منابذتهم واتباع سبيل أوليائه الذين اصطفاهم على بقية مخلوقاته، فرضي بهم عبيداً خلصا له، ورضوا به رباً عظيماً ليس كمثله شيء، فأقر طريقهم، وبارك نهجهم، وجعله السبيل الوحيد إليه.

وإقامة صلاة التراويح في المسجد جماعة، ونسبة ذلك الفعل له، رغم شدة غضبه عليه، والتعبير عنه بقوله ﷺ: « ما زال بكم صنيعكم حتى ظننت أنه سيكتب عليكم، فعليكم بالصلاة في بيوتكم، فإنّ خير صلاة المرء في بيته إلاّ صلاة المكتوبة »[2]، واعترف مالك بن أنس في موطّأه، وروايته له عن عمر بن الخطاب أنه هو الذي جمع الناس في المسجد على قارئ واحدٍ، بعد أن

---

(١) البقرة: ٢٣٨.

(٢) صحيح البخاري ٧: ٩٩، كتاب الأدب، صحيح مسلم ٢: ١٨٨، كتاب الصلاة باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره.

وجدهم يصلّون أوزاعاً متفرقون، ولم يصلّ معهم، وإنّما مرّ عليهم بعد أن أمر أبي بن كعب أن يصلّي بهم، وقال: «نعمت البدعة هذه، والتي تنامون عنها أفضل من التي تقومون»[1].

وعمر شأنه شأن غيره من المسلمين، مكلف بتطبيق الشريعة، كما جاء بها رسول الله ﷺ، ليس من حقه أن يدخل شيئاً فيها؛ لأنّ ذلك من مختصّات الوحي والنبوّة.

ولم تقم بدعة صلاة التراويح جماعة إلا في فترة من خلافته، وفي الحديث الذي يقول إنّه ﷺ كان يرغّب في قيام رمضان من دون أن يأمرهم بعزيمة، فيقول: « من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه »، فتوفي رسول الله ﷺ والأمر على ذلك النحو، ولم يتجرّأ الخليفة الأول أن يرى برأيه فيها[2].

ولما قام أمير المؤمنين علي عليه السلام بأعباء الإمامة مكرها بعدما انفرط عقدها، وألجأه الناس إليها إلجاء، أرسل ابنه الحسن إلى المسجد لإخراج الناس منه، وإبطال تلك البدعة. وبعد استشهاد علي عليه السلام، واستتباب الأمر لمعاوية بالمكر والخديعة، أحيا كُلّ بدعة أماتها سيد الأوصياء، وأمات كُلّ سنة أقامها.

لقد أكد الرسول الأعظم ﷺ وآله الأطهار عليهم السلام على أن نتعهّد بيوتنا بالصلاة، خاصة المسنونة منها كنوافل الصلوات اليومية، ونوافل شهر رمضان بقوله: « لا تجعلوا بيوتكم قبورا »[3]، أي لا تصلون فيها، ومن وطن نفسه على

---

(١) موطأ الإمام مالك ١: ١١٥.

(٢) مسند أحمد ٢: ٢٨١، صحيح البخاري ١: ١٤، كتاب الإيمان، باب تطوع قيام رمضان، صحيح مسلم ٢: ١٧٦، كتاب الصلاة، باب الترغيب في قيام رمضان.

(٣) مسند أحمد بن حنبل ٢: ٣٦٧، سنن ابن ماجة ١: ٤٣٨، ح١٣٧٧، فتح الباري لابن حجر ٤: ٢٣٤.

أداء نوافل الصلاة في المسجد فقد جعل بيته قبراً، وخالف أمر نبيّه ﷺ، وتجنب نصيحته.

واعطف على تلك صلاة ما أنزل الله بها من سلطان سمّوها صلاة الضحى، قالوا: إنّ رسول الله ﷺ صلاّها، واليك روايتها المتناقضة المتناثرة والتي تدل على عكس ما ذهبوا إليه:

عن عائشة أنها سئلت هل كان رسول الله ﷺ يصلي الضحى؟ قالت: « لا، إلاّ أن يجيء من مغيبه »[1] فتبين من الحديث أنه ﷺ لم يكن يصلي الضحى، والاستثناء الذي جاء لا يمكن أن يلغي النفي الثابت، لأنّ السفر حالة شاذة، وصلاته ﷺ عند قدومه لا تتفق دوماً مع التوقيت الذي وضعوه، وإنّما هي صلاة شكر على سلامة السفر، أو هي تحية للمسجد لأنّها ركعتان فقط.

وقد سئلت عائشة عن صلاة الضحى فقالت: « ما رأيت رسول الله ﷺ يصلّي سبحة الضحى قط »[2].

وعن عبد الرحمان بن أبي ليلى قال: « ما أخبرني أحد أنّه رأى النبيّ ﷺ يصلّي الضحى إلاّ أُمّ هانئ فإنّها حدّثت أنّ النبيّ ﷺ دخل بيتها يوم فتح مكّة فصلى ثماني ركعات»[3].

وبما أنّه ﷺ لم يصلّ تلك الصلاة إلا يوم فتح مكة، فإنّها منصرفة إلى تفسير واحد يقول، إنّ رسول الله ﷺ صلّى شكراً لله على فتح مكّة

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٦: ١٧١، صحيح مسلم ٢: ١٥٦، كتاب الصلاة، باب استحباب صلاة الضحى.
(٢) موطأ الإمام مالك ١: ١٥٢، نيل الأوطار للشوكاني ٣: ٧٩.
(٣) مسند أحمد بن حنبل ٦: ٣٤٢، صحيح مسلم ٢: ١٥٧ كتاب الصلاة، باب استحباب صلاة الضحى، صحيح ابن خزيمة ٢: ٢٣٤.

تلك الصلاة الخاصّة به.

ولم يأمر أمّ هانئ مثلا بأدائها، ولا فاطمة الزّهراء عليها السلام التي سترته في غسله، ولا أمر المسلمين بالقيام بها بعد أن أداها، ولا تسالم المسلمون على تلك الصلاة حتى وفاته، لذلك فإنّ تلك الصلاة بدعة ظاهرها طاعة، وباطنها خمول وتواكل، وكيف تستقيم صلاة في ذلك الوقت الحسّاس من بداية يوم والناس أصحاب معائش؟ ولماذا أصر الناس على أداء شعيرة لم يفعلها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على النحو المعمول به عند السواد من اليوم، ولم يسمها بتلك التسمية ولا أمر بأدائها على ذلك الوجه؟ وحتى لو تأكد لدى هؤلاء المبتدعة خطأ ما هم فيه فإنهم سيعتذرون بأعذار لا تستقيم مع النصوص الصريحة ﴿ **إنْ يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شيئاً** ﴾[1].

لقد جاءت كثير من الآثار والروايات لتحدثنا عن عبادة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الطاهرين وتبين لنا معالمها وأسرارها لنقتبس من هديها ونستنير بأنوارها امتثالا لأمر الله تعالى إذ يقول جل من قائل: ﴿ **أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾[2].

لأنه تعالى قد أوكل مهمة بيان عبادته وتفصيل أركانها وسننها وحركاتها وآدابها لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم والمستحفظين من آله عليهم السلام. وعلى كُلّ مسلم امتثالاً لأمر الله أن يقتفي أثر الهداة الأبرار في تعبدهم، ولا يلتفت إلى من انحرف عن نهجهم القويم وصراطهم المستقيم، وخرج للناس بآثار وسنن مبتدعة في الشكل خاوية من المضمون، لم تزد قلوبهم وأرواحهم من الله إلا بعداً.

---

(١) النجم: ٢٨.
(٢) الأنعام: ٩٠.

وأنت أيّها المؤمن عندما تقيم شعائرك وتبني عبادتك، فإنّك ترجو القرب والزلفى من الله تعالى خالق الحياة ومنشئ الكائنات، وإذا لم يتم ذلك المؤمّل فالبحث عن الخلل من عدم نشوء تلك العلاقة، وتمتنها كالسّاقي الذي أرسل دلوه مع الدّلاء فعادت إليه فارغة.

ولمّا علمت أنّ الخالق تعالى عندما أمرنا بعبادته ودعائه، تكفّل بالقبول والإجابة، تبين بعد طول المدة وفقدان النتيجة، أنّ العلّة تكمن في نفسك وزادها، أمّا النفس فهي متمرّدة على مقام العبوديّة جموحة ميّالة إلى عاجل الدنيا، فإذا لم توطّنها في مقامها وتسلك بها طريق الآخرة شردت بك إلى المهالك. وأما الزاد فهو على أربعة أقسام:

الأوّل:

تحقيق معرفة الخالق والتيقن منه حتى تكون وجهتك في العبادة والدعاء والطلب معروفة ومعلومة.

الثاني:

موالاة أوليائه والبراءة من أعدائه لأن الدين جوهره الولاية والبراءة

الثالث:

تحقيق عبودية النفس بتوطينها على النفور من الإنية والاعتداد

الرابع:

لغة التواصل والمناجاة، لأن التقرب إلى الله لا يكون إلا بالطيبات.

و من المفارقات أن ترى شخصا ظفر بمقابلة سلطان، كيف هيّأ نفسه، وطهر بدنه، ولبس أحسن ثيابه، وتعطر بأحسن عطر، وجهز من مديح الكلام،

ما يظن استيفاءه للقبول وقضاء الحاجة، تراه هو بعينه لا يبدي استعداداً، ولا يولي أهمية للقاء خالقه وخالق ذلك السلطان.

ولما علمنا أن باب معرفة الله سبحانه وتعالى هو اتباع رسوله، وتولي أهل بيته الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فهم العارفون له والأدلاء عليه، والموصلون إلى حبه ورضوانه، فاتباعهم اتباعه، وحبهم وحبه اتجه الأخذ عنهم معالم الدين، والتسنن بسننهم في العبادة والدعاء، لأن ما جاؤوا به إلى الناس – ليس إلاّ ذلك الزاد، وتلك التربية والعلم الذي علمهم رسول الله ﷺ، ولقد نظرت نظر المتفحص في ما جاءنا من مأثور العبادة والدعاء، فلم أجد فيضا من الأسرار الإلهية والأنوار القدسية كفيض أهل البيت عليهم السلام في الدعاء والعبادة، لان استعدادهم للطاعة والعبادة كاستعداد سيدهم رسول الله ﷺ، ولا وجه لمقارنة صفوة الخلق ببقيته، وقد جاء في حديث أخرجه مسلم النيسابوري قوله ﷺ: « أيّها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون فإنّ الله لا يملّ حتى تملون، إنّ أحبّ الأعمال عند الله ما دووم عليه وان قلّ وكان آل محمّد ﷺ إذا عملوا عملاً أثبتوه »[1] إنّ المولى سبحانه وتعالى لا ينظر إلى أشكالنا ولا ألواننا، ولكنّه ينظر إلى أفئدتنا، فإنّ فيها مستقر اليقين، وبصائر الأخلاق في العبادة والدين، وكُلّ علم لم يكن متبوعاً بالعمل يخلف النفاق والافتراق عن الخالق تعالى.

وقد جاء عن الصادق عليه السلام قوله: « الخوف رقيب القلب، والرجاء شفيع النفس، ومن كان بالله عارفاً كان من الله خائفاً، وإليه راجياً، وهما جناحا الإيمان يطير بهما العبد المحقق إلى رضوان الله، وعينا عقله يبصر بهما وعد الله

---

(١) صحيح مسلم ٢: ١٨٨، كتاب الصلاة ، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره .

ووعيده، والخوف طالع عدل الله باتقاء وعيده، والرجاء داعي فضل الله، وهو يحيي القلب والخوف يميت النفس »[1]. عنه عليه السلام أيضاً أنه قرأ ﴿ **أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ** ﴾ ، فسئل: ما لنا ندعو فلا يستجيب لنا؟

فقال: « لأنّكم تدعون من لا تعرفون، وتسألون ما لا تفهمون »[2].

فالعبادة والدعاء مقامات القرب من الله تعالى، وملاذات اللجوء إليه في الأمن كما في الخوف وفي الرخاء كما في الشدة وفي الصحة كما في المرض، وإذا استقامت عبادة المرء ودعاؤه في أمنه، فإنها ستستقيم في خوفه، كذلك في باقي الحالات، ومن لم يستشعر في كُلّ صلاة ازدياد خوفه، وكثرة رجائه، وتضاؤل نفسه وتناهيها أمام عظمة الخالق وجلاله، فإنّه لم يحقق من عبادته ما يترجاه لنفسه، وما هو مطلوب منها، فهو كالمسافر الذي أخطأ الطريق، ولم يصب من سفره غير التعب والضيق، وعليه أن يراجع نفسه، ويتدارك ما بقي له حتى تكون مطيته موصلة إلى الغاية والمبتغى.

ولقد أدرك الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم من شدّة خوفه ورجائه أعلى درجات المحبة والأنس، فكان ينزوي عن الناس في غار حراء قبل البعثة، ليختلي بربه فيعبده ويناجيه ويدعوه، وبعد كفالته لعلي بن أبي طالب عليه السلام من عمّه صار يصطحبه معه، ليقتبس من هديه فنون العبادة والمناجاة والذكر والتأمل، وفي ذلك يقول الإمام علي عليه السلام: « صلّيت قبل الناس بسبع سنين »[3]، وفي حديث عن محمّد بن علي الباقر خامس أئمة أهل البيت عليهم السلام قال: « هكذا صلّى

(١) بحار الأنوار للمجلسي ٦٧: ٣٩٠، ح٥٨.

(٢) التوحيد للشيخ الصدوق: ٢٨٩.

(٣) سنن ابن ماجة ١: ٤٤، المستدرك للحاكم ٣: ١١٢، المصنف لابن أبي شيبة ٧: ٤٩٨، كتاب السنة لابن أبي عاصم: ٥٨٤، ح١٣٢٤، ميزان الاعتدال للذهبي ٣: ١٠٢.

أمير المؤمنين صلوات الله عليه بالناس الصبح بالعراق فلمّا انصرف وعظهم فبكى وأبكاهم من خوف الله ثُمّ قال: والله لقد عهدت أقواماً على عهد خليلي رسول الله ﷺ، وإنّهم ليصبحون ويمسون شعثاً غبراً خمصاً، بين أعينهم كركب المعزى، يبيتون لربهم سجداً وقياماً، يراوحون بين أقدامهم وجباههم، يناجون ربهم ويسألونه فكاك رقابهم من النار، والله لقد رايتهم مع ذلك وهم خائفون مشفقون »[1].

أمّا أمير المؤمنين علي عليه السلام، فقد قال في إحدى خطبه يوصي فيها أصحابه: « تعاهدوا أمر الصلاة، وحافظوا عليها، واستكثروا منها وتقربوا بها، فإنّها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً، ألا تسمعون إلى جواب أهل النار حين سئلوا: ﴿ **ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ** .. ﴾، وإنّها لتحتّ الذنوب حتّ الورق، وتطلقها إطلاق الربق، وشبهها رسول الله ﷺ بالحمة، تكون على باب الرجل، فهو يغتسل منها في اليوم والليلة خمس مرات، فما عسى أن يبقى عليه من الدرن. وقد عرف حقها رجال من المؤمنين، الذين لا تشغلهم عنها زينة متاع، ولا قرة عين من ولد ولا مال، يقول سبحانه: ﴿ **رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ** ﴾، وكان رسول الله ﷺ نصباً بالصلاة بعد التبشير له بالجنّة، يقول الله سبحانه: ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْها** ﴾ فكان يأمر أهله ويصبر عليها »[2].

وقد سأله ذعلب اليماني: « هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟

فقال عليه السلام: أفأعبد ما لا أرى؟

---

(١) الكافي للكليني ٢: ٢٣٦، الأمالي للطوسي: ١٠٢.
(٢) نهج البلاغة ٢: ١٧٨، خطبة ١٩٩.

فقال: وكيف تراه؟

فقال: لا تراه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان، قريب من الأشياء غير ملامس، بعيد عنها غير مباين، متكلم لا بروية، مريد لا بهمّة، صانع لا بجارحة، لطيف لا يوصف بالخفاء، كبير لا يوصف بالجفاء، بصير لا يوصف بالحاسّة، رحيم لا يوصف بالرّقة، تعنوا الوجوه لعظمته، وتجيب القلوب من مخافته »[1].

لقد كان أمير المؤمنين - عليه السلام وآله - كما كان رسول الله ﷺ دائم الفكرة، طويل الحزن، كثير التوجه والدعاء، عرف الله حق معرفته، فملك قلبه واستولى على عرى فؤاده، حلّ الأنس بنفسه حلول المقيم، فتمسّكت به تمسّك الغريق، ولولاه لطارت روحه من بدنه شوقاً إلى الله تعالى.

عن جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام في حديث له عن جدّه وآله الكرام يقول: « والله ما أكل علي بن أبي طالب من الدنيا حراماً قط حتى مضى لسبيله، وما عرض له أمران قط هما لله رضا، إلاّ أخذ بأشدهما عليه في دينه، وما نزلت برسول الله ﷺ نازلة قط إلا دعاه ثقة به، ما أطاق أحد عمل رسول الله ﷺ من هذه الأمّة غيره، وان كان ليعمل عمل رجل كان وجهه بين الجنة والنار، يرجو ثواب هذه، ويخاف عقاب هذه، ولقد أعتق من ماله ألف مملوك في طلب وجه الله عزّ وجلّ، والنجاة من النار مما كدّ بيديه، ورشح منه جبينه وإنه كان ليقوت أهله بالزيت والخل والعجوة، وما كان لباسه إلا الكرابيس، إذا فضل شيء عن يده من كمه دعا بالجلم فقصه، وما أشبهه من ولده ولا أهل بيته أحد أقرب شبهاً به في لباسه وفقهه من علي بن الحسين عليه السلام، ولقد دخل ابنه

---

(١) نهج البلاغة ٢: ٩٩، خطبة ١٧٩.

أبو جعفر عليه السلام عليه، فإذا هو قد بلغ من العبادة ما لم يبلغه أحد، فرآه قد اصفر لونه من السهر، ورمضت عيناه من البكاء، ودبرت جبهته، وانخرم أنفه من السجود، وورمت ساقاه وقدماه من القيام في الصلاة، قال أبو جعفر عليه السلام: فلم أملك حين رأيته بتلك الحال من البكاء، فبكيت رحمة له، وإذا هو يفكر، فالتفت إلي بعد هنيهة من دخولي وقال: يا بني أعطني بعض تلك الصحف التي فيها عبادة علي بن أبي طالب عليه السلام. فأعطيته فقرأ منها شيئاً يسيرا ثُمّ تركها من يده متضجرا وقال: من يقوى على عبادة علي بن أبي طالب عليه السلام »[1] وما أقر به أعيان تلك العصور من العارفين والمتعلمين من أهل البيت عليهم السلام في العبادة، وتطاولهم لها فاستطالوا عليها، حتى أصبحوا زينة لها، واستوثقوا منها أجنحة القبول، فطارت بهم إلى أعلى درجات المخلوقين، فهم كما قال فيهم سيد الوصيين، ونفس رسول ربِّ العالمين عليه السلام: « هم قوم هجم بهم العلم على الحقيقة الأمر، فباشروا روح اليقين، واستلانوا بما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا أبدانا أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه »[2].

ذلك حال الأئمة الأطهار من أهل بيت النبوّة، ومنزل الوحي، ومختلف الملائكة، استنسخوا الدين عن جدهم استنساخا، وأشرب في أفئدتهم وقلوبهم إشراباً، قبل أن يلبسوه جلباباً، ففاض من قممهم الشامخة علوماً إلهية، وهداية ربانية. لم يستفزهم سلطان حتى يرشدوا الناس إلى حضرته، غير سلطان الحضرة القدسية، ولم يدعو إلى بابهم متهم حتى يكونوا إلى التهمة أقرب، بل

---

(١) الإرشاد للشيخ المفيد ٢: ١٤٢، مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ١: ٣٩٠.
(٢) الأمالي للشيخ المفيد: ٢٥٠، نهج السعادة للمحمودي ١: ٤٩٦.

كانت سيرتهم في الناس بيضاء ناصعة للقاصي والداني، ومن حيث ما تناولت منها وجدت ضالتك، وأدركت حاجتك، بمنأى عن فقهاء السلاطين، ودعاة الجبابرة والظالمين، فبذلوا دماءهم ومهجهم من أجل أن تبقى شريعة الإسلام طاهرة نقية في بيوتهم ومقصد هديها، وأعطوا من أنفسهم ما لم يعط غيرهم، ليس من فراغ لأن فاقد الشيء لا يعطيه، بل عن علم وعمل ودراية، وما أخرجه ابن حجر في صواعقه تتمة لحديث الثقلين عن رسول الله ﷺ قوله: «فلا تقدموهم فتهلكوا ولا تقصروا عنهم فتهلكوا ولا تعلموهم فإنّهم أعلم منكم»[1] إلا دليل على مقامه العالي عن استطالة الناس واستشرافهم له، ومكانكم الداني من الله تعالى دنو قاب قوسين أو أدنى، كرهوا لأنفسهم وشيعتهم ما كرهه الله تعالى لهم، وأحبوا لأنفسهم وشيعتهم ما أحبه الله تعالى لهم، فجرى ذلك المجرى من العلاقة على كامل أوجه الحياة، ولم يبق شيء متعلّق بدين أو دنيا إلا بيّنوه وأظهروه، وأمروا مواليهم بالعمل به أو الامتناع عنه.

للدعاء نصيب من الإيضاح والبيان عند أهل البيت عليهم السلام ليس على سبيل التأليف والكتابة، وإنّما على سبيل التطبيق والممارسة، وقد ظهرت آثاره عليهم من وقوفهم بين يدي الباري تعالى، وممّا علّموه مواليهم وتلامذتهم من أفعال وأقوال، تسوق المتعبد إلى المعرفة والقرب والحب، فهذا أبو عبد الله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام يعلمنا أدب الدعاء فيقول: «احفظ أدب الدعاء وأنظر من تدعو، وحقق عظمة الله وكبريائه، وعاين بقلبك علمه بما في ضميرك، وإطلاعه على سرك، وما يكن فيه من الحق والباطل، وأعرف طريق

---

(١) ورد هذا في ذيل حديث الثقلين الذي تقدم تواتره وراجع: المسترشد لابن جرير الطبري الشيعي: ٤٦٧، بحار الأنوار للمجلسي ٢٨: ٢١٩.

نجاتك وهلاكك، كي لا تدعو الله بشيء فيه هلاكك، وأنت تظن إن فيه نجاتك، قال الله تعالى: ﴿ **وَيَدْعُ الإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكانَ الإِنْسانُ عَجُولاً** ﴾. وتفكر ماذا تسأل؟ ولماذا تسأل؟ والدعاء استجابة الكل منك للحق، وتذويب المهجة في مشاهدة الرب، وترك الاختيار جميعاً، وتسليم الأمور كُلّها ظاهرها وباطنها إلى الله، فإنّ لم تأت بشرط الدعاء، فلا تنتظر الإجابة، إنّه يعلم السر وأخفى، فلعلك تدعوه بشيء قد علم نيتك بخلاف ذلك، واعلم أنه لو لم يكن أمرنا الله بالدعاء، لكنا إذا أخلصنا الدعاء تفضل علينا بالإجابة، فكيف وقد تضمن ذلك لمن أتى بشرائط الدعاء، قال: فإذا أتيت بما ذكرت لك من شرائط الدعاء، وأخلصت سرك لوجهه، فأبشر بإحدى ثلاث، إما يعجل لك بما سالت، أو يدخر لك ما هو أعظم منه، وإما يصرف عنك من البلاء ما إن أرسله عليك لهلكت".[1]

والمتأمل في حال الصلاة وكيفيتها، والمتبصر لمعانيها وأسرارها، لا يراها إلا مقدمة لدعائه وندائه تعالى، وغلافا لقربه ورجائه، حتى يحقق القرب كُلّه، ويستأثر العبد بأغلب التوجه إلى الله تعالى.

جاء عنهم ﷺ في مقدمة الصلاة، وآداب التهيؤ لتحصيل التوجه والخشوع والانقطاع إليه تعالى الإتيان بسبع تكبيرات كالآتي:

تكبر ثلاثا وتقول: « اللهم أنت الملك الحق المبين، لا اله إلا أنت سبحانك وبحمدك، ظلمت نفسي فاغفر لي ذنبي، إنّه لا يغفر الذنوب إلا أنت ».

ثُمّ تكبر اثنتين وتقول: « لبيك وسعديك الخير بين يديك والشر ليس إليك المهدي من هديت عبدك ابن عبديك ذليل بين يديك منك وبك ولك واليك

(١) مستدرك الوسائل للشيخ النوري ٥: ٢٧٢.

لا ملجأ ولا منجى ولا مفر منك إلا إليك سبحانك وحنانيك تباركت وتعاليت سبحانك ربِّ البيت الحرام ».

ثُمّ تكبر اثنتين وتقول: « وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين إنّ صلاتي ومحياي ومماتي لله ربِّ العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين ». ثُمّ تدخل في صلاتك بالاستعاذة ثُمّ القراءة.

ويكون دعاء القنوت في الركعة الثانية من الصلاة بعد القراءة، بأن يرفع يديه حيال وجهه فيدعو الله بمطالبه، ويستحب من الدعاء فيها بما جاء في الكتاب العزيز، وما نطق به المعصوم، لأنه الأقرب إلى الله تعالى، وإحدى الوسائل إليه.

وكما جاء الدعاء تهيئة ومقدمة للصلاة التي هي مقدمة للقرب والمناجاة، جاءت بقية العبادات والحالات التي يتقلب فيها المؤمن بين الأمن والخوف، يتقدمها الدعاء والتوجه، وما ورد عن أهل البيت الأطهار من الأدعية، كنز لا يقدر بثمن، ومورد كاف وينبوع معرفة صاف، وكُلّ تلك النفحات رسول الله أصلها، وهم عروتها الوثقى التي لا انفصام لها، فعلمهم عليهم السلام علمه صلى الله عليه وآله، وعبادتهم عبادته، ودعاؤهم دعاؤه. أليس أبو الحسن علي بن أبي طالب عليه السلام باب مدينة علم رسول الله؟ فلماذا ينحرف عنه المنحرفون؟ أليس في دعائه ومناجاته وتضرعه وعبادته نفحات قدس من نفحات رسول الله صلى الله عليه وآله، والدعاء المسمى باسم صاحبه كميل بن زياد هو من علم النبيّ صلى الله عليه وآله، وكذلك بقية ادعيته وكلامه، وكُلّ ما خرج إلى الناس من ذلك البيت الذي أذهب الله تعالى عنه الرجس وطهره تطهيراً هو من معين النبيّ وفيضه الصافي، هم مستودعه

وحفاظه ووعاته ورعاته.

والصحيفة السجادية المنسوبة للإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام هي مهجة الدعاء وخلاصته، بين فيها الإمام عليه السلام معالم العقائد ومكارم الأخلاق، وآداب الدنيا والدين، وما حوته من بديع المعاني، وصفوة الكلم يغنيك عن اللجوء إلى غيرهم عليهم السلام في الدعاء لأنه لا وجه للمقارنة بين الثريا والثرى. وتعميماً لفائدة دعائهم عليهم السلام على الأمّة الإسلامية ننقل جملة منها مأخوذة من كتب الدعاء المخصوصة والمعتبرة كمصباح المتهجد، والبلد الأمين، وجمال الأسبوع، ومفاتيح الجنان، ومفتاح الجنات، وضياء الصالحين وغيرها من كتب علماء أهل البيت عليهم السلام.

أما اتباع الأئمة الهداة، وشيعة إسلام أهل البيت عليهم السلام الخلص الذين مضوا على بصيرة من أمرهم، فقد سجل التاريخ لهم صفحات عزّ ومجد، وكانوا على مداه مضرباً للمثل العليا، وعناوين كبيرة في العبادة والأخلاق والزهد والكرم والشجاعة والعلوم بأصنافها، ولو أطلقت العنان لذكر أسمائهم لما وسعني المقام، ولكني سأتشرف بذكر بعض أركانهم، ليكون حافزا لمن يبتغي المزيد لبذل الجهد في معرفة الحقيقة التي ظلت مخفية عن الكثيرين: كسلمان الفارسي، وعمار بن ياسر، والمقداد الأسود، وأبو ذر الغفاري، ومالك الأشتر، وميثم التمار، وحجر بن عدي الكندي قدس سرهم الشريف.

وإذا التفت إلى العلوم العرفانية التي هي محصل المعارف والتطبيقات العبادية الحقة وجدت أنّ الأئمة الهداة واتباعهم قد وضعوا أسسها، وشكلوا من أعماق توجهاتهم خيوط نسيجها، فبرع من أخذ عنهم، وأبحر في السلوك إلى الله تعالى من تتلمذ عليهم، والإمام الخميني – قدس سرّه الشريف – في

كتاباته الآداب المعنوية للصلاة، وبقية كتبه كمصباح الهداية وجنود العقل والجهل، والأربعون حديثاً، وكذا بقية المراجع العظام الذين كتبوا في العرفان والأخلاق، كان مرجعهم إلى الأئمة الهداة، ومدار تحقيقاتهم في ما توصلوا إليه من معين صاف، وينبئ عن جدارتهم بالإمامة وقيادتهم للأمة رغم أنوف الحاسدين، وعداوة الظالمين.

وفي الختام، أليس في هذا كُلّه أدلة تفضي إلى القول بأنّ المعين الصافي الذي بحوزة أهل البيت عليهم السلام من عبادة ودعاء وأخلاق هو الإسلام الحق الذي لم تشبه شائبة حكومات الظلم؟

إنّ منظومة الهداة من آل محمّد متكاملة من الجانبين النظري والتطبيقي، لا اختلاف في أحكامها، ولا تضارب في تشريعاتها، من أقبل عليها غنم دينه، ومن فارقها خسره، إذ لا سبيل إلى الله تعالى غير سبيلهم، ولا صراط ارتضاه للناس غير صراطهم المستقيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

هذا هو الصراط المستقيم

لما كان الدين مصدره الله تعالى خالق الكون، ومبتدع الحياة حصل لدينا يقين بأنّ منشئه قد أنزله كاملاً متجانساً ومتناسقاً، لا نقص فيه ولا شك في صحة وروده، ولا غبار يحجب عن قاصده الوضوح والإبصار، قال تعالى: ﴿ **ما فَرَّطنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ** ﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿ **وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ** ﴾[2]، قال كذلك: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً** ﴾[3].

وعلى ذلك فإنّ كُلّ الرسالات الإلهية نزلت إلى البشر كاملة، تامة غير منقوصة، ولا محتاجة إلى من يرفدها من المخلوقات بشيء من الأشياء.

وكُلّ من قال بأنّ الدين ناقص، أو أنّه مخصوص بمجال دون آخر، أو أنّه قاصر عن مواكبة تقدم البشر والزمن، أو أنّ الحكومة ليست من تفاصيله من الناحيتين التنصيصية والشرطية؛ فقد نسب إلى الله تعالى التقصير وسوء التقدير، وهو بالتالي قد اقتحم باب الكفر والعياذ بالله.

قد يعتقد القارئ عند هذا الحد أنني بصدد الحديث عن أعداء الإسلام والمحاربين له من خارج منظومته وما يكيدون له من مؤامرات، غير أنّ هذا الاعتقاد ليس طرفا من حديثنا بقدر ما نحن بصدد تناول بعض الخطوط التي

---

(١) **الأنعام: ٣٨.**
(٢) **النحل: ٨٩.**
(٣) **المائدة: ٣.**

نسبت نفسها للدين الخاتم، وتبوأت داخل أسواره مكاناً مرموقاً، ما كان لها أن تتبوأه لو انتبه المسلمون إلى محتوى أطروحاتها المتصلة بالعقيدة.

فعلى سبيل المثال: عندما تتبنى تلك الخطوط فكرة فصل الدين عن الحياة، بما روجته من أنّ النبيّ لا علم له بكثير من أمور الدنيا، كقصة تأبير النخل التي زخرت بها كتب المؤسسين لفكرة الفصل والتابعين لهم عليها، أو أنّ النبيّ ﷺ غير معصوم في ما عدا الوحي، بل قد يخطئ أحياناً أثناء تبليغه، والاستدلال بتلك الروايات المدسوسة على النبيّ ﷺ، لإنفاذ مبدأ الفصل، ندرك خطورة الموقف، وجسامة الأمر، وأن المسألة ليست في مقام الإحصاء والذكر التاريخي بقدر ما هي عقيدة تحولت من طور الوضع والدس إلى طور التبني والتجذير، وتواصل مدها بتحريك من القوى المعادية للدين الخاتم، ودعم مركز على جميع الأصعدة، وقد تكللت جهود أعداء الإسلام بالنجاح عندما أمكنها تأسيس أفكار تشبه الدين، لكنّها بعيدة عنه، ومشوهة له، وزرعها في عقول عملائها، وتقوية شوكتهم، ثُمّ فرضهم على المسلمين بالقوة، مثل: العميل البريطاني محمّد بن عبد الوهاب، صاحب المذهب الملقب به الذي كان كارثة على الحجاز والعراق، وأصبح فكره المشوه والذي اعتنقه عدد من السذج والجهلة وباءً ينخر في جسد الأمّة من أقصاها إلى أقصاها، عانت منه وتعاني باكستان وأفغانستان، وقد ظهرت فقاقيع آثاره في ما يسمى بـ(فرسان الصحابة) أو (جيش الصحابة)، و(تنظيم القاعدة)، الذين والحق يقال – إنّ ما اقترفوه في حقّ الإسلام والمسلمين والبشرية جمعاء تحت عنوان محاربة الشرك والمشركين، يؤكد أنّهم من طينة محترفي القتل المجاني والبارد، ولا علاقة لهم بالإنسانية فضلاً عن التدين، وهم إلى صنف الوحوش أقرب منهم

إلى الناس، والى العمالة لأعداء الإسلام أميل منهم إلى الدين الخاتم.

الاصطفاء الإلهي مبدأ قرآني ثابت لايتغير وسمة الصراط المستقيم الكبرى:

لقد جاء في عدد من الآيات القرآنية ما يفيد بأنّ الله تعالى بحكم علمه بمكنون سرّ خلقه وإطلاعه على بواطنهم قد اختار منهم من رأى فيه الكفاءة ليكون حجته على خلقه، فاختار الأنبياء، واصطفى منهم رسلاً وفضّل بعضهم على بعض، فجعل محمّداً ﷺ أقربهم إليه وأحبّهم لديه، فسماه حبيباً بعد أن سمّى إبراهيم عليه السلام خليلاً.

قال تعالى: ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ** ﴾[1].

وكان لابدّ من أن يستتبع ذلك الدور من التنزيل والبلاغ دوراً آخر يتعلق بحفظ الشريعة، وضمان استمرار أدائها في الناس، وهو متعلق قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ** ﴾[2]، فاختار من بيوتات الأنبياء صفوة أُخرى للقيام بأمر الحفظ، وجعل دور الإمامة ردئاً للنبوّة، ومقاماً آخر من مقامات اللطف الإلهي، أجراه وراثة في الصفوة الطاهرة من عباده قال تعالى: ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا** ﴾[3].

وقال أيضاً: ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنا آلَ**

---

(١) البقرة: ٢٥٣.
(٢) الحجر: ٩.
(٣) فاطر: ٣٢.

إِبْراهِيمَ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَآتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً ﴾[1].

ولم يكن ذلك الاختيار الإلهي بأيّ حال من الأحوال مقارناً أو موازياً لآراء البشر واختياراتهم؛ لأنّ الله تعالى أعلم بمخلوقاته، وأدرى بهم من أنفسهم، والدين دينه وهو المسؤول عن كُلّ متعلقاته، واختيار مَن يقوم مقام الإمام بعد النبيّ من مختصاته سبحانه وتعالى، إتماماً للشريعة السمحة.

والإمامة تأتي بعد النبوّة؛ لأجل الشريعة من عبث العابثين من أصحاب المصالح، وعبّاد الدنيا، وميزة اختص بها الصراط المستقيم، وكانت أثراً واضحاً، وعلامة جلية اتسم بها تراثه، وضماناً لبقاء الأحكام الإلهية في إطار الحفظ الذي هو من مشمولات الباري تعالى كالنبوة، ومقابل ذلك كان الكذب على الله ورسوله منتشراً في بقيّة الخطوط الأُخرى إلى درجة التشويه، وما عقب ذلك من نشوء عدد من الأفكار التي اختلقها أصحابها اعتماداً على تلك المفتريات.

إنّ منظومة الإسلام شأنها شأن من سبقها من ديانات، جاءت لتشكل نقطة تحول في حياة البشر، وترشدهم إلى طريق الله تعالى، بكل ما فيه من أبعاد مادية ومعنوية، روحيّة وحسيّة، اجتماعية وسياسية واقتصادية، وتصحيحاً لوجهة الناس في توجههم إلى صراط الله المستقيم.

ومن الخطأ الاعتقاد بأنّ الله تعالى قد أوكل مهمّة جمع شريعته وحفظها، وتتبع سنّة نبيّه ﷺ وتدوينها إلى الناس، من دون قيد ولا شرط، ولا سبيل إلى افتراض وقوع ذلك؛ لأنّ المانع الذي يمكن للعقلاء تقديمه هو خاتمية الرسالات والمرسلين، يؤكدان على أنّ سنن الله تعالى في التبليغ والحفظ

---

(١) النساء: ٥٤.

لشرائعه لا يتغيران، منذ آدم إلى نبينا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وعلى آله الطاهرين، قال تعالى: ﴿ **ما كانَ عَلَى النبيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً** ﴾[1].

فلا يوجد خلل في منظومته تعالى كُلّها تنظيراً وتطبيقاً، وإنما طرأ الخلل من تحريف الناس وعصيانهم وارتدادهم عن دينه ومنهاج أوليائه صلواته عليهم أجمعين، وادعائهم بأنّ لهم نصيباً في القيمومة على الدين، وطرفاً في الحفظ والتبليغ، فخاضوا في دين الله تعالى أيما خوض، وضربوا عرض الحائط بكثير من أحكامه، ترصداً وسفهاً.

للصراط المستقيم الذي أشار إليه المولى تعالى في كتابه العزيز علامات تشير إليه ودلالات ترمز إليه، منها: ما هو متعلق بالمبدأ العام لذلك الصراط كالتشريع الذي طال كُلّ أوجه الحياة البشريّة، واستمراريته في الظهور والتميز من آثاره التي لا تنمحي أبداً.

ومنها: ما هو متعلق بالتفاصيل المحتوية عليه، كضرورة وجود مثال يهتدي به الناس فوق ما أعطوا على المستوى النظري؛ لأنّ المثال والنموذج يبقى الأقرب للفهم، والأقوى في الحجة، والأصوب في الهداية.

لقد كانت حياة النبيّ ﷺ متعددة النشاط والاهتمام، فهو في نفس الوقت النبيّ المرسل، والقائد العسكري الفذ، والإمام القدوة، والمربي والمعلم والفرد المعطاء، المبادر إلى كُلّ خير قبل غيره، أعطى من نفسه المثل والنموذج، ومع ذلك لم يفهمه أكثر المحيطين به، فجاءت علاقاتهم معه تذروها رياح الشك والريبة وسوء التقدير.

---

(١) الأحزاب: ٣٨.

كان على النبيّ ﷺ أن يتدبّر أمر القيادة من بعده؛ لأنّ الفراغ الذي سيتركه لا يمكن لأيّ شخص أن يملؤه، وما كان ذلك ليكون من تلقاء نفسه، كما تصوره كثير من الصحابة في ذلك العصر، ومنع من كتابة وصيته الهامة والمصيرية للأمة في أواخر حياته، ولقي أهل بيته عليهم السلام بعد وفاته ما لم يلقه أهل الذمة، فقتلوا، وشردوا، وألقي بهم في سجون رهيبة لا يخرج منها المعتقل حياً، ووضع من وضع منهم في أسطوانات وبني عليهم، فماتوا بداخلها جوعاً وعطشاً وعذاباً، وصارت لهم قبوراً[1].

كما أنّ النزعة القبلية المتأصّلة في أكثر الناس كان لها دور سلبي في اختيار من يقوم مقامه،

وبما أنّ الله سبحانه وتعالى مطّلع على سرائر مخلوقاته، فيتحتم عليه تعالى أن يسبغ لطفه على الأمّة، بزيادة إيضاح المؤهل بالدور بعد النبيّ ﷺ، وإن كان ذلك الشخص ظاهراً غير خفي في الأمّة، بما كان يقدّمه للإسلام وأهله من تضحيات وأعمال، امتدحها الله ورسوله في غير موضع.

لست في هذه البسطة من الحديث في مقام الاستدلال على أحقية أهل البيت عليهم السلام في إمامة الأمّة، واستعراض ما جاء في خصوصهم من آيات بيّنات وروايات بلغت حدّ التواتر في صحة ورودها عن النبيّ ﷺ، بل إنّني سارد لبعض النصوص وواضع نفسي هنا موضع المتسائل عن سبب منطقي يبرر إعراض الأمّة عن قيادتها الشرعية، واللائم على تفريط ما كان له أن يكون لولا تقصير الأغلبية في حق الأولى بقيادة الأمّة.

---

(١) انظر مثلاً مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٢٦، البداية والنهاية لابن كثير ٩: ٣٥٨ وغيرها من المصادر التاريخية.

هذا والآيات بيّنات والدلالات الواضحة تشير إلى أنّ من أعرض عنهم بلغوا منازل الكمال، وتنسموا علياء الرفعة، ورسخت أقدامهم في علوم الدين والحياة، وكان لهم ما لم يتأت لغيرهم، وشهد الشهود من كُلّ جانب على أحقيتهم، وتميزهم، وعلو قدرهم، وعظم شخصياتهم التي كانت تشكل تتابع حلقات الذرية التي بعضها من بعض.

والعجب هنا في أمّة أدارت ظهرها للأحق بقيادتها، ورضيت قيادة من كانوا تحت لوائه، ولم يكن لهم من ذكر يرفع مقامهم سوى ما أغدقه عليهم حزب النفاق من أكاذيب وتآويل لا تقف مع الحق، مع علمها التام ويقينها بأنّ لا وجه للمقارنة بين من اختاره الله تعالى وأتم فيه مواصفات وخصائص القيادة، وبين من اختارته حفنة من الناس في مكان لم يكن مؤهلاً لذلك الدور.

ولم يكتف المنافقون بما حصلوا عليه من مكاسب على حساب أهل الحق من ثلة المؤمنين، بل نجحوا أيضاً في تغييب قائمة المنافقين التي كانت عند حذيفة، وقلب أصحابها فيما بعد إلى مؤمنين صالحين.

وللمعترض على ما نقول نهمس في أذنه: أين أسماء المنافقين الذين حاولوا قتل النبيّ ﷺ في العقبة؟

ولماذا لم يقع تصنيف المبغضين لعلي بن أبي طالب عليه السلام ضمن المنافقين، وقد ثبت عن النبيّ ﷺ قوله لعلي عليه السلام: « لا يحبّك إلاّ مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق »[1]، فكان مؤمنو الصحابة يعرفون المنافقين ببغضهم لعلي عليه السلام ؟!

لم تمر مسألة اختيار الأولى بالقيادة بعد مرحلة النبوّة، في الأمم السابقة في

---

(١) مسند أحمد ١: ٩٥، صحيح مسلم ١: ٦٠، كتاب الإيمان، باب الدليل على حبّ الأنصار وعلي رضي الله عنه من الإيمان وعلاماته. سنن الترمذي ٥: ٣٠٦، سنن النسائي ٨: ١١٦، مجمع الزوائد ٩: ١٣٣، فتح الباري ١: ٦٠ وغيرها من المصادر.

الخفاء، وإنّما كان لها مجال علني، وإعلام اتسم بحضور الجماهير ومواكبتها لكُلّ تفاصيل تلك الإعلانات، وفي القرآن شواهد من تلك.

الشواهد القديمة التي تحدثت عن حقيقة التعيين الإلهي :

الشاهد الأول: قصة طالوت عليه السلام :

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى إِذْ قالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنا مَلِكاً نُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ أَلاَّ تُقاتِلُوا قالُوا وَما لَنا أَلاَّ نُقاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِيارِنا وَأَبْنائِنا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَ قالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طالُوتَ مَلِكاً قالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ قالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ وَزادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيم * وَ قالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى وَآلُ هارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[1].

الشاهد الثاني: قصة آصف عليه السلام :

قال تعالى: ﴿ قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ

---

(١) البقرة: ٢٤٦ – ٢٤٨.

فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾[1].

الشاهد الأخير على التعيين الإلهي:

قال تعالى: ﴿ إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ ﴾[2].

حادثة الغدير:

قال الله تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾[3].

لئن أخرج أكثر المؤرخين تفاصيل حادثة الغدير كُلّ حسب هواه وفهمه وتمذهبه، فإنّهم أجمعوا على أنّ النبيّ ﷺ قد أوقف الناس في هاجرة من النهار ليخطب فيهم، ويبلّغهم أمراً لا يستوجب التأخير في تبليغه، وهو من الجسامة والخطورة بحيث حدثت وقائعه في ذلك المكان والزمان الشديدين، فخطب فيه رسول الله ﷺ خطبة بليغة قال فيها من جملة ما قال: « من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللهمّ والِ من والاه وعادِ من عاداه وأنصر من نصره وأخذل من خذله وأدر الحق معه حيث دار»[4].

---

(١) النمل: ٣٨- ٤٠.

(٢) المائدة: ٥٥.

(٣) المائدة: ٦٧.

(٤) حديث من كنت مولاه بلغ حدّ التواتر بل فات كل مقياس لو لم تفعل سياسة الظلم والبغي والفساد في أمّة الإسلام فعلها، اعترف بتواتره عدد من علماء العامة منهم الزبيدي والكناني ومن جملة من أخرجه: سنن الترمذي ٥: ٢٩٧، سنن ابن ماجة ١:

ثُمّ أمر الناس بمبايعة علي عليه السلام أميراً للمؤمنين وإماماً للناس من بعده، ولا تزال كلمات عمر بن الخطاب تتردد بين صفحات كتب التاريخ والسيرة والتفسير عندما أقبل مبايعا: « بخ بخ لك يابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كُلّ مؤمن ومؤمنة ». ولا يزال صداها يتردد في ذلك المكان، شاهداً على النكث والانقلاب والخديعة والمكر[1]، ولم تشفع كثرة الحاضرين للحادثة في انتقال ولاية الأمر إلى علي عليه السلام بعد النبيّ صلى الله عليه وآله، حيث عدّ المؤرخون من كانوا معه في منصرفه من حجة الوداع ما بين ثمانين ألفاً إلى مائة وعشرين ألفاً من المسلمين (وكلّهم طبعاً من الصحابة)، لأن الترتيبات التي وضعها المتربصون بالسلطة وتعاقدهم عليها، وتحينهم لفرصة موت النبيّ صلى الله عليه وآله، وانشغال أولياءه بتجهيزه، وأخذ البيعة لمغتصب الحكم بالقوة والإكراه، ومحاولة إخفاء جانب من الحقيقة تحت عنوان حروب الردة.

سبب الانحراف عن أمر الله تعالى:

ومن تدبّر القرآن الكريم أدرك أنّ مسألة الاختلاف في الدين منشأها الظلم والبغي بين بني البشر، حصل لديه يقين بأنّ الأصل والحقيقة يمتلكها خط واحد، وما سواه خليط من حقّ وباطل مموه.

٤٥، مسند أحمد ١: ٨٤ و ١١٨ و ١١٩ و ١٥٢ و ٣٣١ ، ٤: ٢٨١ و ٣٦٨ و ٣٧٠ و ٣٧٢، ٥: ٣٤٧، ٣٦٦ و ٣٧٠ و ٤١٩، فتح الباري لابن حجر ٧: ٦١ وقال: »حديث من كنت مولاه فعلي مولاه فقد أخرجه الترمذي والنسائي، وهو كثير الطرق جداً، استوعبها ابن عقدة في كتاب مفرد، وكثير من أسانيدها صحاح وحسان. وقد روينا عن الإمام أحمد قال: ما بلغنا عن أحد من الصحابة ما بلغنا عن علي بن أبي خالب .

(١) تفسير الرازي ١٢: ٥، تاريخ بغداد ٨: ٢٨٤، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٢٢١ وغيرها من المصادر.

لقد أخبرنا الله تعالى عن سبب اختلاف من كان قبلنا من أهل الكتب التي نزلت قبل القرآن.

قال تعالى: ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾[١].

وحذر من مغبّة الانزلاق في منحدر عصيان الأوامر الإلهية، المؤدي بدوره إلى البغي والظلم، فقال جلّ من قائل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[٢].

ولما كان البغي والظلم من دعاوى الشيطان وأوليائه فإنّ من مقدّماته الكذب وقلب الحقائق وتحريف الكلم، وهو ما استتبع ظهور موجات من المحرّفين من أجل إطفاء نور الله تعالى، حرصاً على الرئاسة وطلب السلطة، التي كانت هاجساً يراود عدداً من الذين دخلوا الدين طمعاً في نيل رتبة أو مقام.

قال تعالى: ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ﴾[٣].

وحكى القرآن عن هارون كيف أزيح عن الحكومة الإلهية واستضعف حتى كاد أن يقتل: ﴿ قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكادُوا يَقْتُلُونَنِي ﴾[٤].

رغم أنّ موسى عليه السلام قد نصبه على الملأ بأمر من ربه، ورغم أنّ هارون كان

---

(١) آل عمران: ١٩.
(٢) الأنعام: ١٥٩.
(٣) البقرة: ٢٤٧.
(٤) الأعراف: ١٥٠.

- أيضاً - نبياً مع أخيه.

فيظهر من خلال ذلك أنّ الدنيا كانت ولا تزال المعبود الأكبر عند أوليائها، وكثير ما هم في المجتمعات منذ القدم إلى الآن.

ثُمّ دعا جلّ اسمه إلى الاعتصام بركنه، والتمسك بنهجه في عدد من الآيات:

قال تعالى: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا** ﴾[1].

وقال كذلك: ﴿ **وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ** ﴾[2].

وقال أيضاً: ﴿ **وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾[3].

لم يكن خافياً على النبيّ ﷺ ولا غائبا عن أذهان المعاصرين له من صحابته أن يسألوا عن بعض المصطلحات التي جاء بها الوحي، منها: الصراط المستقيم، والعروة الوثقى التي لا انفصام لها، وحبل الله المتين، والتي تُشكّل في مجموعها مقام الولاية ومنزلة القدوة بعد النبيّ ﷺ.

ولم يمضِ خاتم الأنبياء والمرسلين حتى بيّن للناس كُلّ ما يحتاجونه من أمور دِينهم ودنياهم، باذلاً من أجل ذلك كُلّ وسعه، ومحذراً في نفس الوقت من مغبة اتباع سير من خَلوا من قبلنا من الأمم الضالة، فقال ﷺ تفسيراً وبيانا لما نزل من الوحي في قوله تعالى: ﴿ **وَما مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ**

---

(١) آل عمران: ١٠٣.
(٢) المائدة: ٥٦.
(٣) الأنعام: ١٥٣.

خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شيئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾[1]، ومخبراً بجريان حالة الاختلاف في أمة الإسلام واتباع سنن المحرفين من يهود ونصارى: « لتحذونّ حذو من خَلوا من قبلكم حذو القذّة بالقذّة والنعل بالنعل حتّى إذا لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه »[2].

وبمعنى آخر: جاء حديثه ﷺ عن الانحراف في عموم الأمّة، وابتعادها عن الصراط المستقيم الذي أراده الله تعالى سبيلاً وحيداً إلى طاعته ومرضاته، مشيراً إلى أنّ الانحراف سيطال أغلب الأمّة، وأنّه لا يمكن أن تستثنى منه غير طائفة منها بقوله: « لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله »[3].

ومظهراً معالم السبيل الواجب اتباعه، في كثير من الأحاديث التي ربى أكثرها على التواتر لولا إصرار أعداء الإمامة الإلهية على منع تدوين الأحاديث للتغطية على جرمهم الخطير المتمثل في غصبهم لمنصب الإمامة.

السير على طريق الهداة من أهل البيت عليهم السلام هو الصراط المستقيم:

---

(١) آل عمران: ١٤٤.

(٢) صحيح البخاري ٨: ١٥١، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم ، مستدرك الحاكم ١: ٣٧ وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يحرجاه بهذا اللفظ، مجمع الزوائد للهيثمي ٧: ٢٠٦، سنن ابن ماجة ٢: ١٣٢٢.

(٣) مسند أحمد ٤: ٩٩، صحيح البخاري ١: ٢٦، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً ، صحيح مسلم ٦: ٥٤، كتاب الإمارة، باب مراعاة مصلحة الدولة في السير، سنن ابن ماجة ١: ٦.

وعلى الرغم من تصدي عدد من الصحابة لمنع النبيّ ﷺ يوم الخميس الذي سبق وفاته من كتابة وصيته، فإنّه لم يمضِ حتى ترك لنا فحواها قبل رحيله، وكان خطابه في حجرته ودعوته بأن يقربوا له دواة وكتفاً، ليملي عليهم أمراً مهمّاً ومصيرياً بقوله: « هلمّ أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعدي أبداً »[1].

المتأمّل في حديث الثقلين يرى فيه تطابقاً لما كان النبيّ ﷺ يريد كتابته للأمّة، وإفصاحاً عن مستمسك نجاتها، تمثل في أنّه خلّف في الأمّة الثقلين، وهما: كتاب الله تعالى، وعترته أهل بيته، حيث قال: « تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي وأنّهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض »[2].

كتاب الله تعالى الأداة التشريعية التي تحتوي على كُلّ ما يحتاجه الناس من تفاصيل حياتهم الدنيوية والأخروية، والعترة الطاهرة من أئمة أهل بيت النبوة عليهم الصلاة والسلام، الأداة التنفيذية المكلفة بحفظ التشريع، ومواصلة بثه في الناس، والقدوة والمثال الحي المجسد لتفاصيل الشريعة من قِيَم عليا وأخلاق عظيمة.

وحيث إنّ الكتاب – أيضاً – لا يفارق العترة الطاهرة عليهم السلام ولا يفترق عنها، فإنّ للحديث إشارة إلى وجوب اتباع أئمة أهل البيت عليهم السلام، هم وحدهم من

---

(1) مسند أحمد ١: ٣٢٤، صحيح البخاري ٧: ٩، كتاب المرضى والطيب، باب قول المريض: قوموا عنّي، صحيح مسلم ٥: ٧٦، كتاب النذر، باب الأمر بقضاء النذر، السنن الكبرى للنسائي ٣: ٤٣٣.

(2) حديث الثقلين ورد بألفاظ مختلفة، فارجع إلى: صحيح مسلم ٧: ١٢٢، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي رضي الله عنه ، مسند أحمد ٤: ٣٦٧، السنن الكبرى للنسائي ٢: ١٤٨، الجامع الصغير للسيوطي ١: ٢٤٤، مجمع الزوائد للهيثمي ٩: ١٦٢، فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ١: ١٧٢ وغيرها من المصادر.

عندهم علم الكتاب كما أنزل على النبيّ ﷺ، وغيرهم عيال عليهم، وهذا ما أثبته التاريخ رغم كتاباته الأحادية، والتي لا تخلو من ميل مذهبي أو سياسي، حجب كثيراً من الحقائق.

كما أنّ مسألة تطبيق الأحكام الإلهية موكلة إلى الصفوة الطاهرة في كُلّ عصر، وتبعاً لكُلّ رسالة سبقت رسالة الإسلام، فقد آل الأمر في نهاية المطاف وخاتمة الرسالات إلى الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، لهداية الناس وإرشادهم إلى طريق الله تعالى، قال تعالى: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾[1].

والناظر في سيرة الهداة من أهل البيت عليهم السلام وفق ما دوّنه عنهم المخالفون لهم قبل الموالين يقف على حقيقة دور الهداية المناط بهم، والذي تلخصه وظيفة الإمامة المنصوص عليها من الله تعالى ورسوله، ولا عبرة لمن أثقل كاهله بالادعاء أنّ المنصب متروك للأمة تختار من تشاء؛ لأنّ الأمّة خليط من أُناس غير متجانس ومتفاوت في الفهم والاعتقاد، ويشترك فيه كُلّ من المؤمن والمنافق والذي في قلبه مرض، فلا يصح تبعاً لذلك أن تكون في عهدتها مسألة الإمامة اختياراً وتقلداً.

هذا من ناحية.

والتاريخ المكتوب على علاته لم يعطنا انطباعاً حسناً عن مسألة الاختيار والشورى المزعومة؛ لأنّ كُلّ فصولها انبنت على الغصب والقمع والغدر، والأمّة لم تختر في حقيقة الأمر حاكمها، بل إنّ فئة من الناس هي التي أجرت اتفاقها مجرى التنفيذ في سقيفة بني ساعدة، في غياب أهل الذكر، وفي مكان

---

(١) الأنعام: ٩٠.

لم يكن مؤهلاً لذلك الدور، ولا جرى من النبيّ ﷺ مجرى التربية لمعاصريه من ناحية أخرى.

إنّ تحامل أعداء نظرية الإمامة الإلهية على مسألة الاختيار الإلهي، ووصفه بالوراثة الغير مقبولة، قد أفضى – في نهاية المطاف – بالناس إلى القبول والإذعان باختيارات الناس وإمضاء وراثاتهم في الحكم، فبعد الملك الوراثي العضوض نتهيأ في العصر الحديث إلى تجربة فريدة من نوعها، تتمثل في استعارة النظم الجمهورية لمبدأ الوراثة في تداول الحكم فيها، بحيث قد تعمم الفكرة لتصبح الجمهوريات – أيضاً – ذات نُظم وراثية، وقد يطال ذلك مبدأ الانتخاب الذي لم يطح يوماً بحاكم عربي، وتدور الأمّة في حلَقة مفرغة من الفعل، وتكون دائماً نفس النتيجة انتخب أو لا تنتخب فالحاصل واحد، والى متى الاستنكار على التعيين الإلهي، ونحن نتذوق مرارة شورى وديمقراطية البشر؟!

جاء في فاتحة الكتاب المسماة بالسبع المثاني، والتي افردها المولى تعالى بالذكر مقابل القرآن العظيم، نظراً لأهميتها الكبرى، قوله تعالى: ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾[1]. ثُمّ عرف ذلك الصراط بقوله جل من قائل: ﴿ **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ** ﴾[2]. ولنا أن نتساءل كما نتوقع تساءل كُلّ من يهمه أمر هذا الدين عن طبيعة ومعنى قوله تعالى؟

لقد كان الوحي في خصوص بعض موارده المتعلقة بالاقتداء والهداية منصرفاً إلى تركيز منهاج وأسلوب ييسران على المسلم مسألة الفهم، وتقريب الفكرة بشكل عملي واضح، يضمن عملية التواصل بين مرحلة التبليغ والإرشاد التي تختص بها مرحلة النبوة، وبين مرحلة الهداية والحفظ التي تختص بها

---

(١) **الفاتحة**:٦.
(٢) **الفاتحة**:٧.

مرحلة الإمامة، وتقي الفرد المؤمن مغبّة الانحراف والسقوط في مزالق الشيطان، والانغماس في تشعبات طُرقه، فلم يكن الكتاب العزيز وحده وسيلة نجاة بالنسبة لمن تعلق به؛ لأنّ النقص والخلل فينا نحن وليس في كلمات الله تعالى، وعليه كان لا بدّ من وجود ناطق عنه، ومبلّغ لتفاصيل أحكامه، يكون مثالاً يستطيع السالك إلى الله تعالى أن يفهمه بيسر، وفي نفس الوقت يكون المرجع الذي أحصى فيه الله تعالى كُلّ تراث الوحي وميراث النبوة، قدوة يشتمل على كُلّ الكمالات الممكنة، وله كُلّ الإمكانات المتاحة لتنسم دفّة قيادة الأمّة بكل يسر.

لذلك جعل الله تعالى مسلك أهل بيت نبيه عليهم الصلاة والسلام صراطه المستقيم، وحدد معالمه بأشخاصهم وأمثلتهم ونسبه إليه بكُلّ أبعاده، من غير نبذ لشيء فيه، دالاً في نفس الوقت على عصمتهم، وتميّزهم علماً وعملاً، وهو ما توافق على الإقرار به القاصي والداني.

وليس في بيوت الإسلام بيت أفضل من بيت فاطمة وعلي والحسن والحسين والتسعة من أبناء الحسين - عليهم الصلاة والسلام -، هم من أنعم الله تعالى عليهم بأن أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وهم من سبقت لهم منه الحسنى، وهم من سماهم أبراراً، وجازاهم بما صبروا جنّة وحريراً، المتأمّل في سيرهم العطرة يدرك حقيقتهم، ويعي فلسفة وجودهم، ويقرّ لله تعالى بلطفه بالأخذ عنهم والرجوع إليهم والتمسك بهم، جزع الظالمون منهم فاستقدموهم إلى عواصم سلطانهم، ليكونوا على مرأى ومسمع، تحت رقابة مشددة، وقد تملكهم هاجس فقدان السلطة، كلما تناهى إلى أسماعهم انصراف المسلمين لأئمة أهل البيت عليهم السلام، فقتل من قتل منهم مسموماً، بدافع الخوف من استفاقة المسلمين وصحوتهم من جراء ذلك الاتباع والتسليم،

وإجبار الهداة من أهل البيت عليهم السلام على الانتقال بأمر من الخلفاء العباسيين إلى عواصم ملكهم، ومحاولة التقرب منهم، وتقوية سلطانهم بالاستعانة بهم، عارضين شتى الإغراءات ومن بينها ولاية العهد، غير أنّ الأئمة الهداة كانوا أبعد تفكيراً وأرجح رأياً، فلم يسقطوا في فخ الظالمين، وكان دأبهم دائماً معارضة الظالمين ومقارعتهم بكُلّ وسيلة، وتاريخهم حافل بمواقف العزّة والإباء مقابل الباطل وأهله، ولما يئس أولياء الشيطان في استمالة الصفوة الطاهرة من أهل البيت عليهم السلام، وضعوهم تحت الإقامة الجبريّة، وضيّقوا عليهم كُلّ سبيل، كُلّ ذلك لا يمكن أن يمر في الخفاء، لأنّه في حدّ ذاته دليل على أحقيّة هؤلاء الأطهار في قيادة الأمّة، وبقاءهم في المدينة المنورة قد يعجل بسقوط الظلم، فكانت بغداد وسامراء وطوس (مشهد حالياً) مثوى خمسة منهم، شاهدة على أنّ التعسف والظلم الذي مورس على ذرية النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، فاقا كُلّ المقاييس، وتجاوزا كُلّ الحدود.

كُلّ من وقف على سيرة الأئمة الأطهار من بيت خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم، ورأى مختصراتها في كتب الرجال عند المخالفين لخط الإمامة الإلهية عرف بكُلّ يسر ودون عناء أنّ نور الله تعالى ودينه ومنهاجه واحد لا يتعدد، وتيقن من أنّ صفة الرجال، وأهل الذكر، ومن عندهم علم الكتاب، وغيرها من الصفات التي وردت في كتاب الله لا تتعداهم إلى غيرهم، ولا تأنس إلاّ بهم، ولا تحط رحالها إلاّ في أفنيتهم، ولا تليق حقائق معانيها إلاّ عليهم.

إدراك الحقيقة في متناولك أيّها المسلم يكفي أن تبحث في كتب مذهبك الروائية:

الذهبي - على سبيل المثال - عندما تحدث عن الإمام أبي عبد الله جعفر

ابن محمّد الصادق سادس أئمة أهل البيت ﷺ، والمؤسس لجامعة العلوم الإسلامية في مسجد جدّه ﷺ والتي تخرّج منها آلاف الفقهاء والمتكلمين، من بينهم مالك بن أنس وأبي حنيفة، يقول عنه: أحد الأئمة الأعلام، بَرّ صادق، كبير الشأن، لم يحتج به البخاري، ونقل عن أبي حاتم قوله: لا يسأل عن مثله، وعن يحيى بن معين قوله: ثقة مأمون ثُمّ قال: خرج حفص بن غياث إلى عبادان (وهو موضع رباط) فاجتمع إليه البصريون فقالوا: لا تحدّثنا عن ثلاثة، أشعث بن عبد الملك، وعمرو بن عبيد، وجعفر بن محمّد.

فقال: أما أشعث فهو لكم، وأنا تاركه لكم، وأما عمرو بن عبيد فأنتم أعلم – وكان بصرياً معتزلياً –، وأمّا جعفر بن محمّد فلو كنتم بالكوفة لأخذتكم النعال المطرقة. في إشارة إلى مقام الإمام الصادق العالي في الأمّة، وكثرة تردد الناس عليه، والأخذ عنه، وانتشار حديثه في الآفاق، وكانت الكوفة آنذاك عاصمة العلم والعلماء، فلا تكاد تجد عالماً وليس في آخر اسمه نسبته إلى الكوفة[1].

لم يضر الإمام الصادق ﷺ أن يتجنبه البخاري وأمثاله ممن جعل لهم

---

(١) ميزان الاعتدال للذهبي ١: ٤١٤.
وقال ابن حجر العسقلاني في تهذيب التهذيب ٢: ٨٧: سئل يحيى بن سعيد عنه فقال في نفسي منه شيء، ومجالد أحب إليّ..
قال إسحاق بن حكيم عن يحيى بن سعيد: ما كان كذوباً، وقال سعيد بن أبي مريم: قيل لأبي بكر بن عياش مالك لم تسمع من جعفر، وقد أدركته؟ قال: سألناه عمّا يتحدث به من الأحاديث أشيء سمعته؟ قال: لا، ولكنها رواية رويناها عن آبائنا. وقال إسحاق بن راهويه: قلت للشافعي: كيف جعفر بن محمد عندك؟ فقال: ثقة.. وعن يحيى بن معين ثقة – ورد ابن حجر على من ضعفه فقال: قلت: يحتمل أن يكون السؤالان وقعا عن أحاديث مختلفة فذكر فيما سمعه أنه سمعه وفيما لم يسمعه أنه وجده، وهذا يدل على تثبته.. .

الظالمون قدراً بين المسلمين، وهيئ له أدعيائهم مكاناً متميّزاً عن بقية الحفاظ، ليس في حقيقة الأمر أهلاً لتقلده، ولا كان ليحلم بمعشار قيمته، بقدر ما أضرّ البخاري نفسه ووضع كتابه موضع النقد والشبهة لمن أشاح عن وجهه غشاوة التعصّب؛ لأنّ الساحة الإسلامية زاخرة بالكتب الروائية التي تفوق كتاب البخاري مكانة، ولكنها لم تتفيأ ظلال كتابه.

وهنا لا بدّ لي من أن أنبه كُلّ مؤمن ومؤمنة ممّن لم يتوفق بعد لإدراك الحقيقة أن يكون حذراً في التعامّل مع الكتب المسماة بالصحاح؛ لأنّها تحتوي على كثير من السموم التي أنهكت الفكر الإسلامي عقيدة وشريعة، وطفحت بروايات اتخذها أعداء الدين مغمزاً وطعناً فيه.

وعليه وجبت موازنة الروايات بعرضها على كتاب الله تعالى، ومقارنة ما صحّ بما لم يصحّ، وما أجمع عليه المسلمون بما لم يجمعوا عليه والنظر في الشاذّ والمخالف للكتاب والعترة الطاهرة التي تمتلك السنّة الصحيحة، والعلوم القائمة على أسس سليمة، وترك ما ثبت تأليفه ووضعه من طرف الظالمين وأدعيائهم.

قد يعتقد البعض أنني في إطار استنباط أمر جديد، بل أنا في هذا الخصوص مقرّ ومعترف بالنصوص التي تضافرت وتكاثرت، بحيث قطعت علي وجهتي، وألزمتني الإقرار بحقيقة عنصر الهداية في الدين، وحجية مقام الولاية الربّاني بعد النبيّ ﷺ، وهو مسلك الصالحين من قبل، أمثال سلمان الفارسي الذي قال فيه النبيّ ﷺ: « سلمان منّا أهل البيت »[1]، وعمّار بن ياسر

(١) مستدرك الحاكم ٣: ٥٩٨، مجمع الزوائد للهيثمي ٦: ١٣٠، عمدة القارئ للعيني ٢٠: ١٦٧، المنصف لابن أبي شيبة ٧: ٦١٧، وغيرها من المصادر.

الذي قال فيه أيضاً وفي أهله: « أبشروا آل ياسر فإنّ موعدكم الجنة »[1]، وأبو ذر الغفاري الذي قال فيه: « ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر »[2].

والمقداد بن الأسود القائل يوم بدر مقالته التي فرح بها النبيّ خلاف مقالة الخليفة الأول والثاني اللتين أعرض عنهما غضباً وتأففا من منطق الانهزامية وإكبار الباطل، ومالك الأشتر، وحجر بن عدي، وكُلّ من كان لا يخاف في الله لومة لائم، كانوا كُلّهم اتباع الأئمة الأطهار منذ عهد النبوّة، وملتزمون بنهج علي عليه السلام بإرشاد وتشجيع ومباركة وإعداد من النبيّ صلى الله عليه وآله، بأمر من المولى سبحانه وتعالى، فشكّلوا بحق نواة الإيمان وفئة حزب الرحمان، جمعنا الله تعالى وإياهم على حوض نبيه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم.

علامات الصراط المستقيم:

علامات صحة خط الإمامة الذي طرحه أهل البيت عليهم السلام، وتبعه عليه شيعتهم الخلّص كثيرة ومتنوعة، منها: ما هو متصل بصحة العقيدة، وامتناع اختراقها من طرف أعداء الإسلام من يهود ومنافقين، مقابل هشاشة معتقدات بقية الخطوط المنتسبة للإسلام.

---

(١) مستدرك الحاكم ٣: ٣٨٨ وقال: » صحيح على شرط مسلم ولم يحرجاه ، عمدة القارئ ١: ١٩٧، الإصابة لابن حجر ٤: ٢٢٦، و٦: ٥٠٠، البداية والنهاية لابن كثير ٣: ٧٦ وغيرها من المصادر.

(٢) مسند أحمد ٢: ١٦٣، ٥: ١٩٧، ٦: ٤٤٢، سنن الترمذي ٥: ٣٣٤ وقال" »هذا حديث حسن ، مستدرك الحاكم ٣: ٣٤٢، مجمع الزوائد للهيثمي ٩: ٣٢٩، المصنف لابن أبي شيبة ٧: ٥٢٦ وغيرها من المصادر.

ومنها: ما هو متعلّق بالشريعة وسلامة بنيانها وتوافق أركانها، مقابل اختلاف وتضارب بقية الخطوط، حتى في المحكمات التي لا تحتمل التأويل.

ومنها: ما يتّصل بالمعاني التي كانت تجري على ألسنة الطاهرين، من أحاديث وأدعية وعلوم وإجابات، لها مضامين عالية التراكيب والمعاني.

ومنها: ما يرقى إلى أخلاقهم ويتصل بحياتهم العملية، وما نقله الناس عنهم من تجردهم عن الدنيا وهي في أيديهم، فأعطوها للناس إعطاء من لا يخشى الفقر والفوت، ساقوها إليهم، وساقوا أنفسهم إلى الله الواحد القهّار، نذروا أنفسهم له وحده، ولم يكن لهم من همّ سوى رضاه، ولم يأسفوا على شيء من حطام الدنيا، حتى الحكومة التي غصبت منهم وتلاقفها الأدعياء والطلقاء، كانوا في واقع الأمر ربابنة الأمّة الحقيقيون، بما كانوا يفيضونه على الأمّة من علوم ومعارف وتوجيهات، عجز الخلفاء آنذاك عنها، ولا تزال اعترافات الخليفة الثاني تتناقلها الكتب بعد أن تناقلتها الركبان « لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن »، « لولا علي لهلك عمر » مؤكدة على قوله تعالى: ﴿ **أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** ﴾[1].

ولعل أكبر ما تميز به خط الولاية هو: اعتماده في إثبات صحة مواقفه على الدليل الذي لا يقبل الشكّ، من كتاب الله تعالى وسنة الطاهرين عليهم السلام، وربط الوظائف والأحكام الإلهية بالنصوص وليس بآراء الناس، فالفقيه عندهم فقيه في الخط لا يخرج عنه، ولا يكون كبقية الخطوط التي تسمت بأسماء مبتدعيها الذين تلتهم موجة من الكذب والتزوير لنصرة هذا المذهب على

---

(1) يونس: ٣٥.

ذاك، واستمر التعصب للباطل داء يفتت قدرة الأمّة على النهوض، ويباعد بين المسلمين ووجهتهم الصحيحة، وهي التمسك بالعترة الطاهرة ﷺ، لم ينقطع نفس الاجتهاد، ولا سد بابه عندهم، بينما أغلق عند الآخرين، وتباعدت الشقة بينهم وبين عصر تحصيل العلم والاجتهاد، بحيث لم يعد هناك إمكان لربئ الصدع ورتق الهوة السحيقة التي فصلت زمن التسامح العلمي عن زمن التعصب المذهبي المريض، وبقي الفريقان؛ فريق الإمامة الربانية يتزود من معين الوحي الذي لم يداخله شيء من هوى البشر، وبين فريق الخلافة الذي ركبه الطلقاء والمنافقون بلا تمييز، فالمشكلة الكبرى عند معتنقي ذلك الخط هو اعتبارهم لصحة مسار خط الخلافة بما حواه لاعتقادهم بأنّ سقوطها كان في أوائل القرن العشرين، وتحديداً عند سقوط الخلافة العثمانية، وهذا رأي تبنّاه أكثر المثقفين عندهم كجماعة حزب التحرير النبهاني، كان متبني هذا الرأي لم يقرأ تاريخ ما ظهر من أفعال وسلوك الخلفاء.

ما يميّزه التشيع لأهل بيت النبيّ ﷺ بما في الكلمة من معنى، هو نتيجة الامتثال لجميع الأوامر والنواهي التي جاءت من الله تعالى، وبينها النبيّ ﷺ، وبقيت في عهدة الأئمة الأطهار ﷺ؛ لأنّ الدين الخاتم الذي جاء به الرسول الأعظم ﷺ جاء ليتوج مسيرة مائة وأربع وعشرون ألف نبي، وليلخص وينسخ جميع الشرائع ويجعلها في شريعته الخاتمة التي بشر بها هؤلاء جميعاً.

ولأنّ التشيع لأهل البيت ﷺ لم يمر في الخفاء طيلة القرون الخمسة عشر الماضية، فقد كان متوجاً دائماً بالرفض للباطل، ومقارعته بالسيف واللسان والقلم، حتى لقب الشيعة بالروافض، وكانوا دائماً عنوان التفاني والإخلاص للإسلام وأهله، قدّموا أرواحهم في سبيل الله، وكانت ثوراتهم التي هزّت عروش الظلم الأموي، وارتاعت لامتداها أنظمة البغي العباسي، القبس الذي

أوصل إلينا الإسلام المحمّدي صافياً بلا كدر ونقياً لا تشوبه شائبة، ولولا تضحيات أولئك المؤمنين ولإحاطة الأئمة الهداة بهم لما قام لدعائم الدين الأصيل قائمة.

لقد كان اتباع الأئمة عليهم السلام مثالاً حياً ونموذجاً ناطقاً عن مخزون المعصومين عليهم السلام، إنّ نسبتهم إلى الدين وجدتهم رؤوسه، وإن نسبتهم إلى العلوم كانوا تيجانها ودعائمها، منهم وعنهم أخذ الناس زبدتها، وشربوا مروي رحيقها، وتفيئوا ظلال أمنها، وإن نسبتهم إلى الشعراء والمتكلمين والفلاسفة وأهل اللغة، لم تخطئ في نسبتك، وإن أشرت إلى مكارم الأخلاق وحسن المعاشرة لم تخطئ قصد سبيلهم، وإن سألت عن عرفاء التوحيد، وأرباب الورع والتقوى، فلا إجابة تأتيك من غير بيوتهم، ولئن حاول أعداء خط الإمامة والإسلام المحمّدي الأصيل الذي لم يخالطه هوى طاغية، ولا رأي ظالم، التكتم على حقيقة هذا الخط، وطبيعة معتنقيه فإنّهم عجزوا في النهاية عن كبح جماح الحقيقة من أن تصل بركاتها إلى كُلّ طالب، وينتشر عبقها وعبيرها في بساتين الراجين للقاء الله تعالى، وبقية أهل الورع في كُلّ مكان.

بقي على مرّ التاريخ هذا الصراط المستقيم سمة أئمة أهل البيت عليهم السلام، ينتج ويعطي الخير لكُلّ الكائنات، في حين كان غيره من السبل لا يفيض على الناس إلاّ شراً وعجزاً وبعداً عن الله تعالى ودينه القويم، وكُلّ إناء بما فيه يرشح. إنّ شئت تعلقت بسبب من أسباب التمسك به، كان الفوز حليفك حتماً، وإن شئت تماديت في التجاهل والاستنكار واتباع سبل الشيطان وأوليائه، عندها لا تلومنّ إلا نفسك.

ولاية الله تعالى

قال تعالى: ﴿ **إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ** ﴾[1].

وقال أيضاً: ﴿ **وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ** ﴾[2].

وقال كذلك: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ** ﴾[3].

ترددت كلمة (ولي) و(مولى) و(ولاية)، في عدد من الآيات القرآنية، لتحمل في مضامينها معنى واحداً وهو الحكومة والقيادة. وقد أسست كُلّها تقريباً لمعالم وأساس نظام الحكم في الإسلام، وكُلّ من حاول الفرار من هذا الفهم إلى تعديد المعاني المحتملة للولي والولاية سقط في المحظور، ووقع في مستنقع الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ولم يقدم بديلاً يمكن الاعتماد عليه والتوجه له.

ومسألة الولاية - بالمعنى الذي نقصده - لا يمكن للوحي ولا النبيّ ﷺ السكوت عنها؛ لأنّها أساس الشريعة، وجوهرة يجب الحفاظ عليها، وهي سبب لاستمرار الفيض الإلهي.

ولئن كان توجهنا في هذه الورقات منصب على الآثار المترتبة على الانضواء تحت غطاء الولاية، بما يضع الفرد المؤمن على كفة ميزان الطاعة،

---

(١) المائدة: ٥٥.
(٢) المائدة: ٥٦.
(٣) التوبة: ٧١.

ويبين أنّ للولاية بعد أداء الواجب نحوها - وهو البيعة - مؤشران عليهما مدار عمق إيمانه؛ الحب والبغض، والولاء والبراءة، والمودة والعداء، أحاسيس تنمو في البشر، وتتفاعل زيادة أو نقصانا، كُلّما طرأ على القلب طارئ، فأنت عندما تحب أحداً، يكون لحبك سبب دفع بقلبك إلى أن يفسح المجال لذلك الإحساس، كي يستقر فيه وينمو.

وأسباب الحب والود عديدة، تتراوح بين التفاهة والأهمية، بين أن يكون لك قلب ورد عليه إحساس غرائزي بالحب فيحب شيئاً ما، بما انطبع فيه من صور وردت عليه من العين، أو الأذن، وبين أن يكون لك قلب ورد عليه إحساس عقلي روحي بقيمة من القيم، فيهفو لها، ويذوب في حبها، وينهل من رحيقها الصافي، وشتان بين منخدع بظاهر جسد فانٍ، ليس له من ورائه غير المصلحة الذاتية، وبين متيقن أحبَّ جوهر روح بما انطبع فيها من رفعة وسمو أخلاق، وما بين جامع للجوهر وجامع للأصداف، تتفاوت طبقات الناس.

معرفة الحبيب بالعقل، أنفذ وأعظم من إدراكه بالعين؛ لأنّ العين جارحة محدودة المدى بظاهر ما تقع عليه، في حين أنّ العقل مجاله أوسع وأشمل وأعمق، وان كان كلاهما نافذتان مفتوحتان على القلب، كما أنّ للقلب بصيرة تميز ما خطر عليه وتردد من مدركات، وصلاح القلب مرتبط بصفاء بصيرته وجلائها، ولا يتحقق ذلك إلاّ بالنظر في ملكوت الله تعالى، والتأمل في آياته، والتقدير لكتابه وشريعته؛ لأنّ في ذلك تمام معرفته، قال رسول الله ﷺ: « ألا إنّ في الجسد لمضغة، إن صلحت صلح الجسد كُلّه، وإن فسدت فسد الجسد كُلّه »[1].

---

(١) بحار الأنوار ٦٧: ١٩٢، تحفة الأحوذي للمباركفوري ٧: ٧٥، فيض القدير في شرح الجامع الصغير ١: ٣٦٩، غريب الحديث لابن سلام ٢: ١١٧.

وقال ﷺ أيضاً: « المرء بأصغريه: قلبه ولسانه »[1].

والقلب دليل الإنسان في كُلّ ما يعرض له ويتوارد عليه، بل هو إمام البدن، وقائده إلى الخير أو الشر، بما انطبع فيه من قيم، لذلك ترى المولى سبحانه يثني على ذوي القلوب والألباب، أولي البصائر وأرباب العلم والحلم، وأصحاب الحبّ في عدد من الآيات كقوله: ﴿ **إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبابِ** ﴾[2].

لأنّ ذلك الوعاء المركب في أبدانهم صلح وصفا وطهر ونما، ليتقبل بذرة الحبّ الحقيقي وما ستثمره شجرتها.

عن أبي جعفر (محمّد بن علي الباقر) عليه السلام قال: « إنّ القلوب ثلاثة: قلب منكوس لا يعي شيئاً من الخير، وهو قلب الكافر، وقلب فيه نكتة سوداء والخير والشر فيه يعتلجان، فأيّهما كانت منه غلب عليه، وقلب فيه مصباح يزهر لا تطفئ نوره إلى يوم القيامة، وهو قلب المؤمن »[3].

وفي نظري ليس في الوجود حب ثابت غير حب الله تبارك وتعالى، كُلّ حب لا يكون هو أصله وأساسه ومرجعه وهم منقطع زائل.

قال الله تعالى: ﴿ **الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ** ﴾[4].

وقال أيضاً: ﴿**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيه * وَأُمِّهِ وَأَبِيه * وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ**﴾[5].

ذلك لأنّ أحاسيسهم التي وصفوها بالحبّ، وعلاقاتهم التي كانت بالصّحبة

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة للشيخ الصدوق: ٥٦٩، بحار الأنوار للمجلسي ٥١: ٢٤٢، تحفة الأحوذي للمباركفوري ٧: ٧٥، كشف الخفاء للعجلوني ٢: ٢٩٦، ح٢٧٠٥، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٤٩: ٤٧٤، الكامل في التاريخ لابن الأثير ١: ٦٥٨.

(٢) الرعد: ١٩، الزمر: ٩.

(٣) معاني الأخبار للشيخ الصدوق: ٣٩٥، عنه بحار الأنوار للمجلسي ٦٧: ٥١، ح٩.

(٤) الزخرف: ٦٧.

(٥) الزخرف: ٣٤-٣٦.

الوثيقة والقرابة القريبة، محكومة بالعاطفة الزّائفة والمصلحة الآنية، منتهية بفتور العاطفة وانتفاء المصلحة.

ويتملكك العجب من الذين يقطعون البراري والبحار، ويعتلّون ويأرقون من أجل جسد فانٍ ولذّة زائلة! وتزداد عجباً من الذين يضعون حداً لحياتهم بشتى الوسائل، حزناً وجزعاً على فراق حبيب بموت أو بغيره، ولا يلتفتون ولا يأبهون لمعرفة الأحقّ بالحبّ، والأولى بالعشق والاهتمام، ولو أنّهم رجعوا إلى أنفسهم، وثابوا إلى رُشدهم وطرقوا بابه، لوجوده عندهم ولبادلهم شعورهم، كما فعل مع كُلّ من انغمس في أنوار حبّه وتعلّق بلطائف ودّه وقربه، قال جلّ من قائل: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾[1].

وهو مصداق قول رسول الله ﷺ في غزوة خيبر لعلي عليه السلام «لأبعثنّ رجلاً يحبّه الله ورسوله ويحبّ الله ورسوله، كرار غير فرار، يفتح الله على يديه»[2].

---

(١) المائدة: ٥٤.

(٢) ورد حديث الراية بصيغ مختلفة يمكن الرجوع إليه في المصادر التالية: مسند أحمد بن حنبل ١: ١٣٣ و٤: ٥٢ و ٥: ٣٥٣، صحيح البخاري ٤: ١٢، كتاب الأدعية، باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة. و٢٠٧، كتاب المناقب، باب مناقب المهاجرين، و٥: ٧٦، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، صحيح مسلم ٥: ١٩٥، كتاب المغازي، باب قوله تعالى: ﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم ﴾، و ٧: ١٢٢، كتاب الفضائل، باب فضائل علي عليه السلام، فضائل الصحابة للنسائي: ١٦، السنن الكبرى للبيهقي ٦: ٣٦٢، مجمع الزوائد للهيثمي ٦: ١٥، ٧: ١٦٥ و٩: ٨٨ و٣٠٥، فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٦: ٩٠، ٧: ٦٠ و٣٦٥، المصنف للصنعاني ٥: ٢٨٧ و١١: ٨ و٢٢٨، المصنف لابن أبي شيبة الكوفي ٨: ٥٢٠ و٥٢٥، مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا: ٨٨، كتاب السنة: ٥٨٩ و ٥٩٤، السنن الكبرى للنسائي ٥: ٤٦ و ١١١ و ١١٢ و ١٧٩، خصائص النسائي: ٦٠، المعجم الكبير الطبراني ١: ٢٨٩ و٧: ٣١ و ٣٦، المعجم الأوسط للطبراني ٢: ٢١٢، مسند الشاميين للطبراني ١: ١٠٠، وغيرها من مصادر الرجال والتفسير.

وذلك بعدما انهزم المسلمون في حملات عدّة على الحصن الأكبر لليهود.

وفي كلامه ﷺ إشارة إلى أنّ العلاقة بين الله تعالى وعبده لا تكون كاملة وتامة، إلاّ إذا انغمس العبد من مقام العبودية في جوهر الربوبية، لأنّ معرفة النفس طريق إلى معرفة الرب، ومعرفة الرب نتيجتها القرب والوصال والحبّ الذي ليس فوقه شيء يؤثر.

فما هو الطريق للوصول بالقلب إلى حبّ الله، وتبادل الودّ معه تعالى؟

أول خطوة على طريق الحب الإلهي هي: معرفة المحبوب، فلا يعقل أن نحبّ بلا معرفة، وإن وجد في قلوب الناس حبّ بلا معرفة فهو لا يتعدى كونه إحساس سطحي متقلب غير ثابت، لأنّه يصطدم دائماً بعائق جهل المحبوب.

ثاني خطوة تأتي إثر المعرفة هي: الاتباع والملازمة، لأنّ الوصال يقتضي مداومة على الاتباع، واستمرارا في الملازمة، ونتيجة لذلك يأنس القلب ويهنأ بمحبوبه، وتعتريه في الأثناء نفحات العشق، ولفحات الشوق كُلّما أحس بالبعد عنه، فيسقط كُلّ شيء دون ذلك غير مرتبط به من قلبه، ولا يبقى شيء من أمر الدنيا وحطامها ذا قيمة عنده، إلاّ ما كان موصولاً به، أو موصلاً إلى رضاه وحبّه تعالى.

جاء عن الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام قال: «المشتاق لا يشتهي طعاماً، ولا يلتذ بشراب، ولا يستطيب رقاداً، ولا يأنس حميماً، ولا يأوي داراً، ولا يسكن عمراناً، ولا يلبس ليناً، ولا يقر قراراً، ويعبد الله ليلاً نهاراً، راجياً أن يصير ما اشتاق إليه، ويناجيه بلسان شوقه، معبّراً عمّا في سريرته، كما أخبر الله عزّ وجلّ عن موسى عليه السلام، في ميعاد ربّه بقوله: ﴿**وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى**﴾ ... »[1].

---

(1) **بحار الأنوار للمجلسي ٦٧: ٢٤، ح٢٤، عن مصباح الشريعة.**

وعلامة حبّ الله تعالى نفرتك عمّا يبعدك عنه، وألفك منه، وتعهّد قلبك لجوارحه بمناجاته والثناء له، والتّذلل عنده، والتعهّد لعبادته، والانشغال به عمّن سواه، والخوف منه والرجاء له، والصبر على بلواه، والبكاء على ما أذنبت في حقه، والبكاء على ما فرطت في جنبه، ثُمّ البكاء تعبداً وتلطفاً وتخشعاً وتبتلاً، بحيث لا يكون هناك أثر ظاهر للحبّ على المُحبّ غير البكاء، وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنّه قال: « إنّ شعيب عليه السلام بكى من حبّ الله عزّ وجلّ حتى عمي، فردّ الله عليه بصره، ثُمّ بكى حتى عمي، فردّ الله عليه بصره، ثُمّ بكى حتى عمي فردّ عليه بصره، فلمّا كانت الرابعة أوحى الله إليه: يا شعيب، إلى متى يكون هذا أبداً منك؟ إن يكن خوفاً من النار فقد أجرتك، وإن يكن شوقاً إلى الجنة، فقد أبحتك.

فقال: إلهي وسيدي، أنت تعلم أني ما بكيت خوفاً من نارك، ولا شوقاً إلى جنتك، ولكن عقد حبّك على قلبي، فلست أصبر حتى أراك.

فأوحى الله جل جلاله: أما إذا كان هذا هكذا، فمن أجل هذا سأخدمك كليمي موسى بن عمران »[1].

وكذلك سلك أصفياء الله وأخلاؤه وأحباؤه مسلك المعرفة والحبّ، فوصلوا محبوبهم بما بذلوه من وقت وجهد لطاعته، وأداء حقوقه وتعجل الخير والإكثار منه، والفرار من الشر والتباعد عنه، والغافل في هذه الدنيا الدنيّة من يعتقد أنه محب لله تعالى ومخلص له، ولم يخل قلبه من غيره ويفرغه له. أشرك حب من دونه، وجفا مواعيد لقائه، ولم يتعاهد أسحار ليله لقربه ومناجاته، قال تعالى: ﴿ **فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ** ﴾[2].

---

(١) علل الشرائع للشيخ الصدوق ١: ٥٧، عنه في بحار الأنوار للمجلسي ١٢: ٣٨١.

(٢) الذاريات : ٥٠.

وقال أيضاً على لسان موسى بن عمران عليه السلام: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى﴾[1].

وكُلّ فرار مذمة ونقيصة وجبن، غير الفرار إليه تعالى من أنفسنا الأمارة بالسوء، وجرأتها عليه باقتحامها مواطن غضبه، وارتكابها من الذنوب ما يحول بينها وبينه، وكُلّ عجلة غير محمودة غير العجلة إليه تعالى ليرضى، وما الحبّ إلاّ فرار إلى الحبيب، وعجلة وتعجل لنيل وصاله ورضاه.

أوّل باب محبّة الله تعالى: حبّ الأدلاء عليه، وهم وسائطه بينه وبين خلقه، لأنّ حبهم وموالاتهم واتباعهم عائد إليه تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[2].

ولمّا كان الله متعالياً عن خلقه كانت العلّة من إرسال وتعيين الأئمة وإيتاء الحكمة وفصل الخطاب لمن ارتضى من أوليائه؛ أمر لسائر البشر باتباع الهداة واقتفاء أثر التقاة بواسطة السفير الأعظم، والرسول الأكرم.

ومن خلال الاقتداء والاتباع والطاعة، تنفتح على القلب فسح المعرفة والحب، وتنتشر في أرجائه عبق العشق الإلهي، كُلّما انغمس السالك في بحر إدراكه، فهو أول العارفين لذاته المقدّسة، وقربه منها وانجذابه لها يبين الحظوة، ويبرز المكانة التي لا يدانيها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولو لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله أوّل العارفين بالله لما تمكن من العروج إليه والقرب منه، بذل الحبّ له حتى خلص لذاته المقدّسة، فصار حبيبا لها.

إنّ الذين يقولون: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله بشر كسائر الناس، تأويلاً خاطئا لظاهر

---

(1) طه: ٨٤.
(2) آل عمران: ٣١.

الآية الكريمة: ﴿ **قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ** ﴾[1]. قد استدلوا بكلمة حقّ أرادوا بها باطلاً من حيث لا يعلمون، ذلك أنّ المعنى الذي قصدته الآية يتجه إلى جنس النبيّ ﷺ، وكونه من البشر، وفي ذلك إشارة إلى المرتبة الرفيعة التي تسنمها، وليس إلى الاعتقاد بأنّه بشر يخطئ ويصيب، ممّا يستوجب نفي العصمة عنه وعن سائر الرسل عليهم السلام.

ولعلّ الاستنكارات التي جاءت بها الآيات على لسان المشركين والمنافقين والكافرين، والتي نقول إنّهم لم يستسيغوا أن يرسل الله سبحانه وتعالى بشراً مثلهم ليهديهم إليه؛ لما يروه في أنفسهم من مفارقات واحتياجات بشرية تضعف الجانب الرسالي للدور الموكل إليه في تصورهم، لجهلهم بالإعداد الإلهي لذلك البشر، وتهيئته تعليماً وإرشاداً وتسديداً وتأييداً وحفظاً، ليقوم بدوره على أكمل وجه، لذلك فإنّك تراهم يعجبون ويستنكرون ويصدون عنه صدوداً.

قال الله تعالى: ﴿ **ذلِكَ بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالُوا أَ بَشَرٌ يَهْدُونَنا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا** ﴾[2].

وقال أيضاً: ﴿ **وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلاَّ أَنْ قالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً * قُلْ لَوْ كانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً** ﴾[3].

وقال أيضاً: "﴿ وقالوا **وَقالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ**

---

(١) الكهف: ١١٠.
(٢) التغابن: ٦.
(٣) الإسراء: ٩٤ – ٩٥.

لا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ ﴾[1].

فلا معنى إذاً من ذلك التصنيف، غير قصور المشركين ومن يعتقد فكرتهم، عن فهم مقام النبوّة، ولم يكن الرّد القرآني على ذلك إلاّ زيادة في الإعجاز، وسنّة إلهية في إرسال الرسل إلى المخلوقات بحسب أجناسهم.

صحيح أنّ رسول الله ﷺ بشر مثلنا، يأكل كما نأكل، وينام كما ننام، ويُولد، ويتزوج، ويلد، ويمرض، ويموت، ولكنّه غيرنا في السريرة والسلوك، حتّى الطينة التي خلق منها المولى سبحانه وتعالى رسوله الأعظم وآله الطاهرين عليهم السلام مخصوصة مخزونة عن طين بقيّة الخلق.

عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: « كنت أنا وعلي نوراً بين يدي الله عزّ وجلّ مطيعاً، يسبح لله ذلك النور ويقدسه قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام، فلمّا خلق الله آدم ركب ذلك النور في صُلبه، فلم يزل في شيء واحد حتى افترقا في صلب عبد الطلب، فجزءاً أنا وجزءاً علي »[2].

فكيف يستوي هذا النداء وذلك الادعاء، قال تعالى: ﴿ **وَما يَسْتَوِي الأَعْمى وَالْبَصِيرُ * وَلاَ الظُّلُماتُ وَلاَ النُّورُ * وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ * وَما يَسْتَوِي الأَحْياءُ وَلاَ الأَمْواتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُور ﴾**[3].

ومحبّة الرسول الأعظم ﷺ توجب بل تحتم علينا تنزيهه عن كُلّ شبهة

---

(١) الأنعام: ٨ – ٩.

(٢) وردت الرواية بألفاظ متقاربة في كُلّ من: العمدة لابن البطريق: ٨٩، الروضة لابن شاذان: ٨١، عن العمدة بحار الأنوار للمجلسي ٣٨: ١٤٧، ح١١٤، ٤٠: ٧٧: ح ١١٣ عن الديلمي في فردوس الأخبار، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٤٢: ٦٧، المناقب للخوارزمي: ١٤٥، كشف الغمة للاربلي ١: ٣٠١، ينابيع المودة للقندوزي ١: ٤٧.

(٣) فاطر: ١٩ – ٢٢.

ونقيصة، كدعوى من ينتسب إلى سنته بنسبة بعض النقائص له، كذباً وبهتاناً وجهلاً وهذياناً، ويرفعون بعد ذلك لافتة حبه وشعار مودته، وهما بعيدتان عنهم بعد المشرقين، وإلاّ كيف تنسجم محبتهم له ﷺ مع ما أخرجوه في كتب رواياتهم من كون خاتم الأنبياء والمرسلين يصدر عنه ما يستحيي منه أقل المخلوقات، كالتبوّل واقفاً، وارتكاب المحرمات كإتيان الحائض، وقول الكفر؟! وغير ذلك ممّا يطول بنا المقام فيه، وآخرها نسبة العبوس والتولي إليه في سورة عبس، رغم أنّ الآية لم تكن موجهة للرسول ﷺ بأيّ حال؛ لأنّ ضميرها مبنيٌّ للمجهول، ولم تجر عادة خطاب المولى سبحانه وتعالى، لرسوله الأكرم ﷺ على ذلك النحو، بل كان يوجه إليه كلامه دائماً بضمير المخاطب، ولم يخاطبه باسمه، بل كان يناديه بصفته إكراماً له.

أما العبوس والتولي، فلم تكن من صفاته ﷺ، ولم يؤثر عنه أنّه عبس في وجه أحد أو تولّى عنه، حتى لو لم يحدث أمر بتجنب ذلك، لأنّ الله تعالى أدبه فأحسن تأديبه، كما يقول ﷺ، ولأنّ المولى سبحانه وتعالى أمره قبل نزول سورة عبس أن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وبالإعراض عن المشركين، ولو قدر أن فعل كما قالوا، لكان ذلك مخالفة لأوامر مولاه، مع ما اتصف به أخلاق رفيعة، وعفّة نفس وتزكية القرآن الكريم لذلك بقوله: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾[1] وقوله: ﴿ **لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** ﴾[2].

فتعظيم خلقه ﷺ من قبل المولى سبحانه وتعالى في الآية الأولى، وحرصه

---

(١) القلم: ٤.
(٢) التوبة: ١٢٨.

ورأفته ورحمته بالمؤمنين في الآية الثانية؛ يدحض دعوى العبوس والتولي اللذان هما من مساوئ الأخلاق، بل من صفات المنحرفين والجهلة، مثلما حدّث القرآن بشأن الوليد بن المغيرة فقال: ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾(1).

ويستمر خط إلصاق الموبقات بالنبيّ الأكرم ﷺ في المضي قدماً بما يحتفظ به من روايات موضوعة، رافضاً التخلي عنها بدعوى أنّ من نقلها قد ميزها من آلاف الأحاديث الصحيحة، حتّى تولدت فيهم عقلية قبول صدور الذنب من النبيّ ﷺ ورفضه من الصحابي، لذلك تراهم يقبلون إلصاق هذه التهمة دون بينة برسول الله ﷺ، ولا يقبلون النصّ الصريح في نزول الآية بعثمان بن عفان، الذي عبس وتولى عندما جلس بجنبه ابن أم مكتوم، تقذراً وتأففاً منه، وإلصاق النقيصة بالمصطفى ﷺ ليست من علامات المعرفة والحب؛ لأنّ المُحب عادة ما يكون غيوراً على حبيبه.

وتنزيه الأنبياء والرسول والأوصياء عن ارتكاب المعاصي، واقتراف الجرائر كبيرها أو صغيرها، عمدها أو سهوها، واجب على كُلّ موحد؛ لأنّ النبوّة والإمامة مقامين جعلهما المولى سبحانه وتعالى ليكونا دليلين عليه أوّلاً، وليقتبس الناس منهما أنوار المعرفة والقرب، وإشراق الحب والأنس، من دون شك فيما يصدر عنهم ثانياً، وأخيراً لأنّ الشك تعطيل لقبول الأوامر والنواهي، وانقطاع عن الاقتداء والاتباع، وإذا تعطلت الغاية من إرسال الحجج على الخلق - وهي البلاغ والإنذار والهداية - لم يستقم الدور، وذلك محال في حكمة المولى سبحانه وتعالى.

ثاني أبواب محبة الله سبحانه وتعالى: حب أهل بيت النبوة، ومهبط الرسالة،

---

(1) المدثر: 22.

ومنزل الوحي، ومختلف الملائكة عليهم أفضل صلاة وأزكى تسليم، فلا دين لمن لم يتدين بحبّهم، ولا ملاذ لمن غفل عن بيوتهم، ففي بيوتهم نزل وحي الله على جدهم عليه وعليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وفي أفنيتها كان صوت جبريل عليه السلام ينطق بآيات ربهم. هم الذين نزل بينهم الذكر، وهم المستحفظون عليه، سنّة الله تعالى في الاصطفاء، ولن تجد لسنّته تبديلاً.

وعندما استعاض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أجر رسالته بمحبّة أهل بيته، كما أمره المولى سبحانه وتعالى في الآية الكريمة: ﴿ **قُلْ لا أسألكم عَلَيْهِ أَجْراً إلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى** ﴾[1]، لقد اجمع المفسرون أنّه لما نزلت هذه الآية تساءل من كان حاضراً من الصحابة، من الذين وجبت علينا مودتهم من أهل بيتك يا رسول الله؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: « علي وفاطمة وأبنائها »[2].

لقد كان منتظراً من الأمّة الإسلامية في كُلّ عصر أن تمتثل لأمر الله تعالى في محبّة أهل البيت عليهم السلام؛ لأنّهم أهل لذلك، ولأنّ ذلك من الدين.

وهذه المودّة ليس كما يعتقده ويتدين به كثير من الناس، ويعتبرونها شفقة ورأفة، وإنّما هي معرفة وحب والتزام واقتداء، يتلخص ذلك كُلّه في طاعتهم عليهم السلام.

وقد حضّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم على محبة آله الكرام في أحاديث كثيرة، نختصر منها ما تقوم به البينة، وتستبين به سبيل الولاء لهم، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم:

---

(١) الشورى: ٢٣.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٤: ٧٦٢، تفسير أبي السعود ٨: ٣٠، تفسير النسفي ٤: ١٠١، الصواعق المحرقة ٢: ٤٨٧ و ٦٥٠.

« أربعة أنا شفيع لهم يوم القيامة، المكرم لذريتي، والقاضي لهم حوائجهم، والساعي في أُمورهم، والمحبّ لهم بقلبه ولسانه »[1].

وقال ﷺ أيضاً: « الحسنة حبّنا أهل البيت، والسيئة بغضنا أهل البيت »[2].

وقال ﷺ أيضاً: « فاطمة بهجة قلبي، وأبنائها ثمرة فؤادي، وبعلها نور بصري، والأئمة من ولدها أمناء ربّي، وحبل ممدود بينه وبين خلقه، من اعتصم بهم نجا، ومن تخلف عنهم هوى »[3].

وقال ﷺ أيضاً: « من أحبّني وأحبّ هاذين وأباهما، كان معي في درجتي يوم القيامة »[4].

---

(١) عيون أخبار الرضا ١: ٢٨، كفاية الأثر للقمي: ٢٩٩، الأمالي للشيخ الطوسي: ٣٦٦، كنز العمال ١٢: ١٠٠ و١٥: ٨٨٦ وقال: » الديلمي من طريق عبد الله بن أحمد بن عامر عن أبيه عن علي بن موسى الرضا عن آبائه رضي الله عنهم ، كشف الغمة للأربلي ١: ٥٢ و٢: ٢٥ و ٣: ٨٤، الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي: ١٤٤، سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي ١١: ٧ و ١١.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي ٧: ١٥٤ و ٢٣: ٢٤٦ و٢٤: ٤٢ و ٢٦، ١٨٦ و ٣٦: ١٨٦، شواهد التنزيل للحسكاني ١: ٥٤٩، كشف الغمة للأربلي ١: ٣٢٨، ينابيع المودة للقندوزي الحنفي ١: ٢٩٣.

(٣) الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف لابن طاووس: ١١٨، الفضائل لابن شاذان: ١٤٦، بحار الأنوار للمجلسي ٢٣: ١١٠ و ٢٩: ٦٤٩.

(٤) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٥٣، العمدة لابن البطريق: ٢٧٤ و ٣٢٠ و ٣٩٥ و ٤٠٣، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف لابن طاووس: ١١١، مسند أحمد بن حنبل ١: ٧٧، سنن الترمذي ٥: ٣٠٥، الذرية الطاهرة: ١٦٧، دفع الارتياب عن حديث الباب: ٣٠، الإكمال في أسماء الرجال: ١٧٣ وقال: »الحديث صحيح بشواهد.. ، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٣: ٢٨٩ وقال: » قال أبو عبد الرحمن عبد الله: لمّا حدث بهذا الحديث نصر بن علي أمر المتوكل بضربه ألف سوط، وكلمه جعفر بن عبد الواحد وجعل يقول: هذا الرجل من أهل السنة، ولم يزل به حتى تركه ، ومنه يعرف أن السنة يعني ترك أهل البيت وروايــة فضائلهم، أسد الغابة لابن الأثير ٤: ٣٠، تهذيب

وقال ﷺ أيضاً: « إنّما يُحَبّ محمّد لله، وإنّما يحَبّ آل محمّد لمحمّد، فمن شاء فليقلل ومن شاء فليكثر »[1].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: « لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على إن يبغضني ما ابغضني، ولو صببت الدنيا بجملتها على منافق يحبّني ما أحبّني، ذلك أنّه قُضي فانقضى على لسان النبيّ الأمي ﷺ أنّه لا يبغضك مؤمن، ولا يحبّك منافق »[2].

الدين كُلّ الدين ليس إلاّ تولّياً وتبّرياً، تولّياً لأولياء الله، وما يستوجبه ذلك من المعرفة والحب والاقتداء والاتباع والنصرة والمؤازرة، وتبرّياً من أعدائه وما يستوجبه ذلك من معرفتهم وبغضهم ومقاطعتهم ومناوئتهم وحربهم. وإن كنت من أهل الدين، فابحث داخل قلبك عن التولي والتبري، فإن وجدت لهما مكاناً فإنّك على خير، وإن لم تجد أحدهما فإنّك تتأرجح بين طريقي الهداية والغواية، وإن لم تجد كليهما فكبّر على دينك وعمرك الذين ضيعتهما خمساً.

واعلم أنّه ليس في بيوتات الإسلام، ولا في بيوتات الأنبياء والمرسلين عليهم السلام أفضل من بيت رسول الله ﷺ، وبيت علي عليه السلام.

الكمال للمزي ٦: ٢٢٨، ٢٠: ٣٥٤ و ٢٩: ٣٦٠، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٢: ١٣٥، وقال عقب حديث ضرب المتوكل: »قلت: والمتوكل سني لكن فيه نصب فانظر واعجب، تاريخ الإسلام للذهبي ٥: ٩٥ و ١٨: ٥٠٨، تهذيب التهذيب لابن حجر ٢: ٢٥٨ و ١٠: ٣٨٤، الوافي بالوفيات للصفدي ٢٧: ٤٨ .

(١) دعائم الإسلام ٢: ٣٥٠، نهج السعادة ٨: ٣١٣.

(٢) نهج البلاغة ٤: ١٣، باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، رقم ٤٥، الكافي ٨: ٢٦٨، ح ٣٩٦، روضة الواعظين للنيسابوري: ٢٩٥، تفسير الألوسي ١٦: ١٤٣، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٤٢: ٢٧٧، بشارة المصطفى: ١٥٣، ينابيع المودة للقندوزي الحنفي ١: ١٥٢، العتب الجميل على أهل الجرح والتعديل: ٢٤.

وحادثة سدّ أبواب الصحابة إلا باب علي عليه السلام، إشارة لطيفة إلى أنّه الباب الوحيد الذي لا بدّ للمسلم أن يرد للدين منه بعد النبيّ صلى الله عليه وآله، وبيان لقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1].

وكُلّ من لم يرد باب الإمام علي عليه السلام بعد النبيّ صلى الله عليه وآله، فقد أتى الإسلام من ظهره، ومن أتاه من غير وجهته فلن يصيب شيئاً.

ولو لم تكن محبتهم فريضة جاء بها الدين لكان من باب المروءة ورد الجميل أن نحبّهم ونذوب في ودّهم، لأنّهم معدن الرسول وأصله، وبقيته في أمته، والمستحفظون على رسالته، تقدموا علينا إسلاماً وإيماناً، وعلماً وعملاً، ونسباً وكرامة، وخَلقاً وخُلقاً، والتاريخ والسيرة النبوية يشهدان أنّ علياً عليه السلام لم يتقدّم عليه أحد من الصحابة، بل كان قائدهم ورئيسهم، ولم يكن لواء الحمد إلاّ معه. ومن أخبرنا النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه صاحب لوائه يوم القيامة، أفلا يكون تأخيره عن مكانته انقلاباً وعنوان كراهية وبغض؟

وإن عجبت يوماً من شيء، فأعجب من أمة تركت قائدها الشرعي، وحاكمها الأولي لتسير وراء جندي فاشل من جنوده، فرّ من حنين وأحد، وانهزم في خيبر شر هزيمة، ولم يذكر له ولصاحبه قتيلاً واحداً في المعارك التي خاضها النبيّ صلى الله عليه وآله.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: « أنا سيّد من خلق الله عزّ وجلّ، وأنا خير من جبريل وميكائيل وإسرافيل وحملة العرش، وجميع ملائكة الله المقربين، وأنبياء الله المرسلين، وأنا صاحب الشفاعة والحوض الشريف، وأنا وعلي أبوا هذه الأمّة،

---

(١) البقرة: ١٨٩.

من عرفنا فقد عرف الله، ومن أنكرنا فقد أنكر الله، ومن علي سبطا أمتي سيدا شباب أهل الجنّة الحسن والحسين، ومن ولد الحسين أئمة تسعة، طاعتهم طاعتي ومعصيتهم معصيتي تاسعهم قائدهم ومهديهم »[1]، وعن الصادق عليه السلام قال: « إنّ الله خلقنا من نور عظمته، ثُمّ صوّر خلقنا من طينة مخزونة مكنونة تحت العرش، فأسكن ذلك النور فيه، فكنّا نحن خلقاً وبشراً نورانيين، لم يجعل لأحد في مثل الذي خلقنا منه نصيبا »[2].

وكما كنت أسلفت القول في بداية بحثي بأنّ الحبّ يستوجب تناغماً بين المحبّ وحبيبه، ونتيجة يرجوها عاجلاً أو آجلاً، كما في الحديث الشريف: « يحشر المرء مع من أحب »[3].

وقد قال أحدهم في مدح أهل البيت عليهم السلام:

يا أهل بيت رسول اللّه حبكم ... فرض من اللّه في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم القدر أنّكم ... من لم يصلِّ عليكم لا صلاة له[4]

فكيف يدعي مدّع حب أهل البيت عليهم السلام ولا يظهر منه ما يدل على ذلك؟ أم كيف ينتسب للإسلام من قال: أنا أولى بأهل البيت ثُمّ تراه لا يرد حياضهم حتى على سبيل التطلع إلى آثار الحبيب، إذا كان هناك حبيب من الأساس؟ بل لعله يستقي دينه عمّن ناصب لهم العداء، وحاربهم وقتلهم من حيث يدري

---

(١) غاية المرام ٣: ٧٠ و ٧: ١٢٨.
(٢) الكافي ١: ٣٨٩، ح٢، بحار الأنوار للمجلسي ٢٥: ١٣ عن بصائر الدرجات.
(٣) الثاقب في المناقب لابن حمزة: ٢٦٠، بحار الأنوار للمجلسي ٦٦-٨١، جامع البيان للطبري ٣٠: ٨٨.
(٤) نظم درر السمطين للزرندي: ١٨، سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي ١١: ١١، ينابيع المودة للقندوزي الحنفي ٢: ٤٣٤، الغدير للأميني ٣: ١٧٣.

أو لا يدري. ولو قدر للحيّز الزمني الذي يفصله عن صفين، أو الجمل، أو النهروان، أو كربلاء، أو غيرها من حروب ومحن أهل البيت - عليهم الصلاة والسلام - أن ينحسر، لوجد الواهم نفسه مع أصحاب السقيفة، الأساس الأول للظلم المسلّط على أهل البيت عليهم السلام، وما أفرز من انحرافات وانتهاكات كادت تذهب بالدين من جذوره، ولكان كُلّما تقدم في الزمن متنقلاً بين طاعة ظالم، أو طليق منافق، أو خارجي منحرف عن الحق.

المحبّة ليس لها معانٍ أو مفاهيم عديدة حتى نتردد في أدائها، فأنت عندما تحب الله سبحانه وتعالى لا بدّ أن تستجيب لكُلّ أوامره ونواهيه، وتطيع أهل بره، وأنت عندما تحبّ رسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لا بدّ أن تقدمه على كُلّ شيء حتى نفسك، كما قال المولى تعالى: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**﴾[1].

وقد جاء في كتب الحديث المعتمدة، أن عمر بن الخطاب جاء للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال: « والذي نفسي بيده لأنت أحبّ إليَّ من كُلّ شيء إلاّ من نفسي التي بين جنبي .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا يؤمنن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من نفسه.

فقال عمر: لأنت أحبّ إليّ من نفسي .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الآن يا عمر؟ »[2] استنكاراً ولوماً، وليس إلى ما ذهب إليه من أعماه حب ذلك الرجل إلى تفسير قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أي: الآن كمل إيمانك. ولا أرى عاقلاً مدركاً للحبّ ومعانيه وآثاره يؤمن بأنّ قناعة عمر بتقديم نفسه على النبيّ لا يمكن أن تتغير فجأة وبدون مقدمات.

---

(١) الأحزاب: ٦.

(٢) مسند أحمد ٤: ٣٣٦، صحيح البخاري ٧: ٢١٨، كتاب الإيمان والنذور، المعجم الأوسط للطبراني ١: ١٠٣، امتاع الأسماع للمقريزي ١٣: ١٧٣.

وقد كشفت الرواية عن نزعة الرجل الميالة إلى الاستكبار حتى على رسول الله ﷺ، ولو كان تغيره الذي ذهب إليه هؤلاء العميان صحيحاً لكان له موقف آخر في بيت رسول الله ﷺ، في أُخريات حياته الشريفة، وفي مرضه الذي توفي فيه، عوض التعرض له ومنعه من كتابة وصيته، وادعاؤه بأنّ النبيّ ﷺ يهجر!! وموقفه من موت النبيّ ﷺ كان مريباً، بحيث زعم بأنّه لم يمت، وحتى بعد أن استقدم صاحبه في السقيفة لم يتغير في شيء، ولم يظهر منه حزن ولا ذرف دمعة، ولا شهد دفنه ﷺ[1]، ثُمّ كان منه ما كان بشأن ميراث النبيّ، ومداهمته لبيت فاطمة سيدة نساء العالمين عليها السلام[2]، فعن أيّ حبّ يتحدث هؤلاء؟

تلك نماذج من أصحابهم، تكشف عن زيف ما يفترونه.

---

(١) عن عائشة قالت: » ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتّى سمعت صوت المساحي من آخر الليل، ليلة الأربعاء ، راجع: مسند أحمد ٦: ٦٢، السنن الكبرى للبيهقي ٣: ٤٠٩، المصنف لابن أبي شيبة الكوفي ٣: ٢٢٧، ح١٦، الاستذكار لابن عبد البر٣: ٥٦، الاستيعاب لابن عبد البر١: ٤٧، الطبقات الكبرى لابن سعد ٢: ٣٠٥، أسد الغابة لابن الأثير١: ٣٤، وهذا يعني أنّ أصحاب السقيفة تركوا رسول الله ﷺ مسجىً مع أهل بيته علي وولده عليهم السلام، وذهبوا للتنازع حول السلطات، مع مخالفتهم لحديث النبي ﷺ: «إكرام الميت دفنه» والأحاديث الواردة في استحباب تعجيل الدفن للميت .

(٢) راجع المصنّف لابن أبي شيبة ٨: ٥٧٢، ح٤.
قال الباحث السلفي حسن فرحان المالكي في كتابه (قراءة في كتب العقائد المذهب الحنبلي نموذجاً) : ٥٢: »ولكن حزب علي كان أقل عند بيعة عمر منه عند بيعة أبي بكر الصديق، نظراً لتفرقهم الأول عن علي بسبب مداهمة بيت فاخمة في أول عهد أبي بكر، وإكراه بعض الصحابة الذين كانوا مع علي على بيعة أبي بكر، فكانت لهذه الخصومة والمداهمة .وهي ثابتة بأسانيد صحيحة .وذكرى مؤملة لا يحبون تكرارها».

أنت عندما تحبّ رسول الله ﷺ، تسعى جهدك للتأسي به والاقتداء بشخصه، فضلاً عن توقيره، ووضعه موضعا أسمى من النفس، وأنت عندما تحب علياً وفاطمة والحسن والحسين فإنّ ذلك الحبّ فيض من حبّ رسول الله ﷺ وامتداد له، يحتم عليك أن تتبع آثارهم، وتتخلّق بأخلاقهم، وتنهل من علومهم، لأنّها من آثار وأخلاق وعلوم رسول الله ﷺ.

ثُمّ لا بدّ للمحبّ أن يكون مع محبوبه في الخير والشر، والحزن والفرح؛ لأنّ من نحبهم أولياء الله وأحباءه أحياء عند الله تعالى يرزقون، الشهداء على الخلق يوم القيامة، وفرحك أيام مواليدهم وأيام أفراحهم التي هي أيام الله تعالى من مستلزمات حبهم ومودتهم، وحزنك عند شهاداتهم ووفياتهم وفي كُلّ حزن أصابهم هو أيضاً من مستلزمات ذلك الحب، والطرف الذي لا يشارك الطرف الآخر أحاسيسه - أيّا كانت - فإنّه لا يعتبر مُحباً كما لا يكون الطرف الآخر قابلاً للحب.

ولا يكون الحبّ ذا قيمة ومعنى إلاّ إذا فاض على الجوارح من القلب ولاء وتعلقاً، ففرح شيعة آل محمّد لفرح آل محمّد، وحزنهم لأحزان ومصائب آل محمّد من مستلزمات الحب الحقيقي، ونتيجة طبيعية لذلك التعلق والولاء، والمحبّ الذي لا يأبه لذلك لا يعتبر محباً، وإنّما هو متوّهم للحال، أو كاذب مدّع لما لا وجود له في قلبه.

والدعوى التي تظهر من حين لآخر، مستنكرة ظاهرة الحزن والعزاء على مقتل الأبرار من آل محمّد - صلى الله عليهم - والاستمرار على ذلك التنديد والاستهجان لا يخلو من جهل بحال تلك الظاهرة وعدم إدراك لها، وهي من الخطورة بمكان، ومدعاة لانسلاخ المسلم عن عقيدته، تماماً كما تنسلخ

المحبة عند جفائها من قلوب أصحابها.

وشخص في مقام الإمام الحسين ﷺ، ومن معه من الأطهار من أهل بيته والنجباء من صحابته غير خافٍ على كُلّ موحدٍ، وكيف يخفى سيد شباب أهل الجنّة، وريحانة الرسول الأعظم ﷺ وابنه، وقرّة عينه، وشبيهه، وجرأة المسلمين من أبناء الصحابة في ذلك العصر، وإقدامهم على قتل الطاهرين ﷺ، من نزل في خصوصهم أمر محبتهم ومودتهم، هو في حقيقته قتل للنبي ﷺ، ومحق للدين، وجرأة على الله تعالى لا توازيها جرأة.

إنّ أي مسلم لم يسترجع ألم تلك المحن، وخصوصاً فاجعة كربلاء ومقتل الأطهار فيها، ولم تحزنه تلك الفاجعة حزناً يفيض من القلب إلى العين دموعا؛ فليراجع نفسه، لأنّ في قلبه خلل لا بدّ من تداركه قبل فوات الأوان.

ومن المسلمين اليوم من يتعلّل بأنّ الحادثة قد مرّ عليها أربعة عشر قرناً، عفا الدهر عنها، ومن المبالغة الاستمرار على ذلك النحو وتلك الوتيرة من إحياء لمراسمها، هروباً وتنصلاً وجهلاً، دون الالتفات إلى أن كُلّ جيل من المسلمين مرتهن بتكليفه، ومحبة آل الرسول ﷺ ومودتهم تقتضي ذلك. وقد وجب عليَّ وأنا واحد من هذا الجيل أن أقدم لله تعالى امتثالا لأمره في مودّة قربى النبيّ ﷺ ، وأن أستجيب للرسول فيما دعاني إليه من محبّة عليّ وفاطمة والحسن والحسين وبقية ذريته الطاهرة ﷺ، فأفرح لفرحهم وأحزن لحزنهم طالما أنّ ذلك هو تكليفي الآن ودليلي الذي أقدمه لسلسلة الولاية بأنّني من أحباء الله تعالى وأحباء أوليائه، ولو قدر أن أكون في عصره لما تخلفت عنه ولكنت من المستشهدين بين يديه.

ويأتي أُناس ممن ينتسب للإسلام، ويدعون حب أهل البيت ﷺ،

يستكثرون البكاء على الإمام الحسين ﵇، والرسول الأكرم ﷺ يقول: « من بكى على الحسين أو أبكى أو تباكى فله الجنّة »[1]، وقد كان النبيّ ﷺ أوّل الباكين، عندما أنبأه جبريل ﵇ بأنّ أمّته ستقتل ابنه الحسين، وكان بكاؤه شديداً، وتكرّر كُلّما رأى الحسين ﵇.

وإذا كان رسول الله ﷺ قد بكى عليه قبل شهادته ﵇ بعشرات السنين، وهو أمامه حي يرزق ينعم بملاطفته ومداعبته، فكيف لا نبكي عليه نحن بعد شهادته، استيفاء للمودة التي تعدل أجر الرسالة؟!

كما أنّنا نبكي في الحسين المثال المجسد للإسلام بكُلّ أبعاده وتفاصيله، والقدوة العظيمة التي غيّبها الظلم عن مجتمع إسلامي، ومن لا يدرك معنى المثال والقدوة رضي أن ينخرط في حزب عبيد الدنيا، وانطفأت المثل عنده، فلم يبق لديه غير موالاة الظالمين.

والإمام الحسين ﵇ غير محتاج لبكائنا عليه، بل نحن المحتاجون لمزيد من الدموع والعاطفة حتى تتطهر قلوبنا، وتصفو وتنزوي عن الدنيا، لأنّ قاتلي الحسين ﵇ وأهل بيته وأصحابه كانوا عبيداً للدنيا، وأصحاب مصلحة آنية، لا نظر لهم غير البهارج والزخارف والمتاع الفاني، في حين كان أبو عبد الله الحسين بن علي ﵉ يريد إصلاح ما أفسده المفسدون في دين جده المصطفى ﷺ.

وإذا لم نبك على مثال كريم وإمام عظيم مثل الإمام الحسين ﵇، فهل ترى قلوبنا تبكي على الحق وهو ينقطع، والدين الخاتم وهو ينحسر مفاهيماً وقيماً صافية من تفاصيل حياة المسلمين؟!

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي ٤٤: ٢٩٣.

البكاء على الإمام الحسين عليه السلام تربية وتوطين للقلب والنفس على الشعور والإحساس بما تربطنا به أواصر الدين ووشائج القربى، وباقي بني البشر الذين لا حول لهم ولا قوة لا بالله، حتى الحيوان الذي لا يعي من الدنيا شيئاً غير ما يحصله في بطنه وفرجه وما أودعه الله تعالى فيه من ذكر وتوحيد مطالبون بالإحساس به والشعور بما يعتريه كما قال الشاعر:

عش بالشعور وللشعور فإنّما ... دنياكَ كَون عواطفٍ وشعورِ

شيدت على العَطفِ العميقِ وإنّها ... لتجف لو شيدت على التفكير

وإذا كان يعقوب نبي الله عليه السلام قد بكى على فراق ابنه يوسف عليه السلام حتى ابيضت عيناه (عمي)، وهو يعلم يقيناً أنّه لم يمت، أفلا نبكي على جريمة بشعة في حق ذرّية الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ومواساة له، وحزنا معه، وتعزية ومساندة لأهل البيت عليهم السلام؟! بأبسط ما يمكن أن يقدمه موال لهم وهو الحزن والدموع، ولو كان في اليد حيلة لفديناهم بأرواحنا، فمعكم سادتي معكم، لا مع أعدائكم ولا مع الجاهلين لحقكم ومكانتكم، وإذا كانت هناك كرامة من الله علينا نحن محبو وشيعة أهل البيت عليهم السلام فهي محبتكم ومودّتكم.

ثالث أبواب محبة الله تعالى هو: حب العلماء، وطاعة المراجع والفقهاء، واتباع نصائحهم وإرشاداتهم، لأنّهم أمناء الله تعالى على شريعته، والأدلاء على هدي وسائطه، أنزلهم منزلتهم، وأعطاهم المكانة التي تؤهلهم للإشراف وقيادة الأمّة في غيبة المعصوم عليه السلام. ضربوا لنا أمثلة عدّة على مرّ التاريخ في الحزم والعلم والتقوى، وكانوا بحق نماذج يؤخذ بها ويرجع إليها، تمسكاً من الثلة المؤمنة بناصية الحق، وتطبيقاً لأمره عليه السلام الذي قال فيه: « فأمّا من كان من فقهائنا صائنا لنفسه، حافظا لدينه، مخالفا لهواه، متبعاً لأمر مولاه فللعوام أن

يقلّدوه »[1]، فكان من الواجب على كُلّ مؤمن ومؤمنة أن يسارع إلى الأخذ بفتاوى من يرونه الأعلم والأعدل من مراجع الأمّة الكرام.

على أنّه ظهر في العصر الحديث ما قد يغير من ذلك التصور الصحيح، إلى واقع آخر أصح منه، وأكثر حجة، وهو اتباع ولاية الفقيه، التي جاء بها الإمام روح الله الموسوي الخميني – قدّس سره الشريف –، استناداً إلى مضامين الروايات التي تؤكد على ضرورة تقليد واتباع الفقيه العادل، وبانتصار الثورة الإسلامية المباركة في إيران على يد ذلك المصلح العظيم، وجد المؤمنون أنفسهم أمام واقع جديد، وحقيقة تقول: إنّ خط الفقاهة لا بدّ له من أن يأخذ بتفاصيل الحياة من الناحيتين التشريعية والتنفيذية، ويضع يده على زمام القيادة التي كانت بعيدة عن متناوله في العصور القديمة، فكان لمفجر أعظم ثورة إسلامية عرفها التاريخ أن أعاد الاعتبار للفقيه الأولى والأعلم والأقدر على قيادة الأمّة، في أن يباشر مهمته التي أبعد عنها قرون طويلة، كما أبعد أصحابها الحقيقيون من أئمة أهل البيت عليهم السلام، تكريساً لدعوى فصل الدين عن الحياة.

وقد ذكر الله تعالى العلماء في كتابه فأثنى على الصالحين منهم، قال تعالى: ﴿ **وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ** ﴾[2]، وقال أيضاً: ﴿ **هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾[3]، وقال كذلك: ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾[4].

وأمة بلا علماء يميزهم العمل بما علموا، ليكونوا للناس مثلاً وقدوة يحتذي

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي ٢: ٨٨.
(٢) العنكبوت: ٤٣.
(٣) الزمر: ٩.
(٤) المجادلة: ١١.

بها لا تساوي شيئاً في معادلة تمييز الأمم، وحري بها أن تبقى أبد الدهر بعيدة عن الفهم والمعرفة والتطور، تتقاذفها أمواج الفتن والجهل، وتفتك بأوصالها صيحات العصبية ونعيق الجاهلية. فلا شيء أعود على الأمم من اتباع العلماء العدول وأخذ الفقه عنهم، وطاعتهم وموالاتهم، لأنّهم ورثة الحقّ جلّ جلاله، وحملة شريعته من بعد أهل العصمة من أنبياء وأئمة هداة.

قال الإمام الباقر عليه السلام: « عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد »[1].

وقد حث الأئمة الهداة عليهم السلام على اتباع عدد من تلامذتهم لما لمسوه من كفاءتهم، وتأسيساً للمرجعية في المستقبل، فكانوا يأمرون اتباعهم بالعودة في المسائل إلى شخصيات ذكروها بالاسم، فحكم أولئك وفق تعاليم الأئمة عليهم السلام، ورضوا بما كانوا يفتون به.

وروي عن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه قال: « طلب العلم فريضة على كُلّ مسلم، فاطلبوا العلم في مظانه، واقتبسوه من أهله، فإنّ تعلمه لله حسنة، وطلبه عبادة، والمذاكرة به تسبيح، والعمل به جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة إلى الله، لأنّه معالم الحلال والحرام، ومنار سبيل الجنّة، والمؤنس في الوحشة، والصاحب في الغربة والوحدة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة، تقتبس آثارهم، ويقتدى بأفعالهم، وينتهى إلى آرائهم، ترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، وفي صلاتها تبارك عليهم، ويستغفر لهم كُلّ رطب ويابس، حتى

---

(١) الكافي للكليني ١: ٣٣، ح٨، بحار الأنوار للمجلسي ٢: ١٨، ح٤٥ عن بصائر الدرجات، جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١: ٢٧، الجامع الصغير للسيوطي ٢: ١٤٦، ح٥٣٦٩.

حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه »[1].

فمقام العالم خطير في الأمّة إذ به يعرف الحقّ، ويجتنب الباطل، ويعبد الله تعالى بواسطته حقّ عبادته، به تتم خصائص الحكومة، وإليه ينتهي مقامها، لأنّ كُلّ شريعة لا تقرأ حساباً لقيادة تكون من جنسها لا يمكنها أن تحافظ على نقاء تفاصيلها، ولا تجذره في الناس.

إذن يمكن الخلوص إلى أن خط ولاية الفقيه ليس بدعاً من القول، وإنّما هو تجسيد للإمامة العادلة من ناحية، وامتداد لحركة الإمامة المعصومة من ناحية أُخرى، به يجمع أمر الأمّة، ويتوحد صفها، وهي أحزم في أمر الأمن من الفرقة والاختلاف.

رابع أبواب محبة الله تعالى هو: حب أوليائه وشيعته، لأنّ أساس الدين الحب في الله والبغض في الله، كما في حديث أبي عبد الله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: « كُلّ من لم يحبّ على الدين، ولم يبغض على الدين، فلا دين له »[2].

لذلك بني الدين، وعلى ذلك الأساس قامت دعائمه، فأنت عندما تسعى لنيل حبّ الله تعالى، قد حددت وجهتك، لأنّه أصل كُلّ حب، وأهل كُلّ حبّ، واليه ينتهي مصير كُلّ حبّ، ولأنّ حبّك إيّاه انغماس في رضاه، ولجوء إلى كهف عظمته، وتمسك بأواصر سرمديته، وتفعل كُلّ ما في وسعك من أجل أن تأخذ بودّه وقربه، ولا يكون ذلك إلاّ باقتفاء سبيل أحبائه من أنبياء ورسل وأوصياء وعلماء ومؤمنين، لذلك عليك أن تسلك مسلك محمّد وعلي،

---

(١) الأمالي للشيخ الطوسي: ٤٨٨، مسند الإمام الرضا: ٧.
(٢) الكافي للكليني ٢: ١٢٧، ح١٦، عنه بحار الأنوار للمجلسي ٦٦: ٢٥٠، ح٢٧.

أو مسلك علي ومحمّد لا فرق في التقديم والتأخير، لأنّهما نفس واحدة، ونور واحد، وأن لا ترى شيئاً إلاّ ويكون الله تعالى قبله وفيه وبعده، كما صرّح بذلك أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام.

عن أبي عبد الله عليه السلام، قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه: « أيّ عرى الإيمان أوثق؟

فقالوا: الله ورسوله أعلم، وقال بعضهم: الصلاة، وقال بعضهم: الزكاة، وقال بعضهم: الصيام، وقال بعضهم: الحج لله والعمرة، وقال بعضهم: الجهاد.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: « لكل ما قلتم فضل، وليس به، ولكن أوثق عرى الإيمان، الحبّ في الله والبغض في الله، وتولّي أولياء الله، والتبري من أعداء الله »[1].

وعن علي بن الحسين عليه السلام قال: « إذا جمع الله الأولين والآخرين، قام مناد فنادى يسمع الناس، فيقول: أين المتحابون في الله؟

قال: فيقوم عنق من الناس، فيقال لهم أدخلوا إلى الجنّة بغير حساب، فتتلقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟

فيقولون: إلى الجنّة بغير حساب.

قال: فيقولون: فأيّ حزب أنتم من الناس؟

فيقولون: نحن المتحابون في الله.

قال: فيقولون: وأيّ شيء كانت أعمالكم؟

---

(١) الكافي للكليني ٢: ١٢٦، ح٧، عنه بحار الأنوار للمجلسي ٦٦: ٢٤٣، ح١٧، مسند أبي داود الطيالسي: ١٠١، ومختصراً في المصنّف لابن أبي شيبة الكوفي ٧: ٢٢٦، ح٧٠.

قالوا: كنّا نُحبّ في الله، ونبغض في الله.

قال: فيقولون: نعم أجر العاملين »[1].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: « ما التقى مؤمنان قط إلاّ كان أفضلهما، أشدهما حبّاً لأخيه »[2].

فلا تغرّنك كثرة صلاة المرء، ولا صيامه ولا بقية مناسكه، طالما لم ينعكس ذلك على سلوكه ليفيض على المؤمنين تواضعاً وذلة وصلة ولو بالقليل، وعلى الناس سماحة ورحمة، لأنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله رحمة الله تعالى المهداة إلى البشرية، كان أوّل المبادرين إلى مكارم الأخلاق، والساعين إلى خدمة المؤمنين وتأليف الناس، ورسالته الخاتمة جاءت لتؤكد على معاني الرحمة والأخوة في الله تعالى، لأنّنا وبكُلّ بساطة منه وله وإليه. ومن لم تسكن في نفسه الرحمة، ولم تزين أعطاف حركاته مكارم الأخلاق فليس من الدين في شيء، ولن تقوم للدين قائمة طالما أن أهله متباعدون عن حقوق بعضهم، متنافرون عن المحبّة والود الذي يميز الظاهرة الإسلامية الحقة.

وقد روى معلى بن خنيس عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له: « ما حقّ المسلم على المسلم؟ قال: سبع حقوق وواجبات، ما منهن حقّ إلاّ وهو عليه واجب، إن ضيع منها حقاً خرج من ولاية الله تعالى وطاعته، ولم يكن لله فيه نصيب.

قلت: جُعلت فداك ما هي؟

---

(١) الكافي للكليني ٢: ١٢٦، ح٨، المحاسن للبرقي ١: ٢٦٤، ح٣٣٦، بحار الأنوار للمجلسي ٦٦: ٢٤٦، ح١٩ عن الكافي.

(٢) المحاسن للبرقي ١: ٢٦٤، الكافي للكليني ٢: ١٢٧، ح١٧، وعنه بحار الأنوار للمجلسي ٦٦: ٢٥، ح٢٦.

قال: يا معلى إنّي عليك شفيق، أخاف أن تضيع ولا تحفظ، وتعلم ولا تعمل.

قال: قلت له: لا قوة إلا بالله.

قال: أيسر حقّ منها أن تحبّ له ما تحبّ لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك.

والحق الثاني: أن تتجنب سخطه، وتتبع مرضاته وتطيع أمره.

والحق الثالث: أن تعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك.

والحق الرابع: أن تكون يمينه ودليله ومرآته.

والحق الخامس: أن لا تشبع ويجوع، ولا تروى ويظمأ، ولا تلبس ويعرى.

والحق السادس: أن يكون لك خادم، وليس لأخيك خادم، فواجب أن تبعث خادمك فيغسل ثيابه، ويصنع طعامه، ويمهد فراشه.

والحق السابع: أن تبر قسمه، وتجيب دعوته، وتعود مريضه، وتشهد جنازته، وإذا علمت أنّ له حاجة، تبادره إلى قضائها، ولا تلجئه إلى أن يسألكها، ولكن تبادره مبادرة.

فإن فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايته، وولايته بولايتك »[1].

وعن أبان بن تغلب قال: « كنت أطوف مع أبي عبد الله عليه السلام، فعرض لي رجل من أصحابنا، كان سألني الذهاب معه في حاجة، فأشار إليّ، فكرهت أن أدع أبا عبد الله عليه السلام وأذهب إليه، فبين أنا أطوف إذ أشار إليّ أيضاً، فرآه أبو عبد الله عليه السلام، فقال: يا أبان إياك يريد هذا؟

قلت: نعم.

قال: فمن هو؟

---

(١) الكافي للكليني ٢: ١٦٩، ح٢، عنه بحار الأنوار للمجلسي ٧١: ٢٣٨، ح٤.

قلت: رجل من أصحابنا.

قال: هو على ما أنت عليه؟

قلت: نعم.

قال: فاذهب إليه.

قلت: وأقطع الطواف؟

قال: نعم.

قلت: وإن كان طواف الفريضة؟

قال: نعم.

فذهبت معه، ثُمّ دخلت عليه فسألته فقلت: أخبرني عن حقّ المؤمن على المؤمن؟

فقال عليه السلام: يا أبان دعه لا ترده.

قلت: بلى جعلت فداك.

قال: يا أبان لا ترده.

قلت: بلى جعلت فداك، فلم أزل أرده عليه، فقال: يا أبان تقاسمه شطر مالك، ثُمّ نظر إلي فرأى ما دخلني، فقال: يا أبان أما تعلم أنّ الله تعالى قد ذكر المؤثرين على أنفسهم؟

قلت: بلى جعلت فداك .

فقال: أما إذا أنت قاسمته فلم تؤثره بعد، إنّما أنت وهو سواء، إنّما تؤثره إذا أنت أعطيته من النصف الآخر »[1].

لقد دأب الأئمة الأطهار من أهل البيت عليهم السلام، على تربية شيعتهم وفق

(١) الكافي للكليني ٢: ١٧٢، وعنه بحار الأنوار للمجلسي ٧١: ٢٤٩، ح٤٦.

المنهاج المحمّدي، فجاءت علومهم عنه مستشرفة قمم الآداب، مرفرفة في أجواء مكارم الأخلاق، غائصة في عمق تعاليم القرآن الكريم، لم تنطق ألسنتهم إلاّ صواباً وحكمة، ولم تأت آثارهم إلاّ يمنا وبركة، ولم تفض علومهم على الخلق إلاّ هدى ورحمة، لذلك فإنّهم لم يصحبوا في حياتهم غير الزهاد والعباد، من تلامذتهم الذين تخرجوا على أيديهم، علموهم فتعلموا وبصروهم فأبصروا، لم يركنوا إلى ظالم أبداً، وكانت سرائرهم كعلانيتهم بيضاء نقية، طاهرة زكية، وكان يزينهم ويفرحهم أن يألفهم الموالي ويألفوه، ويتبع خطاهم ويقتدي بهداهم، ويحزنهم أن ينتسب إليهم من يشينهم ويضعهم موضعاً لا يرغبونه، فكانوا بعد اليأس منه يتبرؤون، والى الله تعالى يلجأون، فتألفهم الموالي والمخالف، وتقرب منهم القاصي والداني، طمعاً في الحكمة والنصيحة، وأخذا بالأحاديث الصحيحة عن النبيّ الخاتم ﷺ، وطاعة لله يوم لا ينفع مال ولا بنون.

وقد وصف علم الهدى ومصباح الدجى، السيد المرتضى عليه السلام، أولياء الله وأحباءه في خطبة بليغة قال فيها: « أما بعد، فإنّ الله سبحانه خلق الخلق حين خلقهم غنياً عن طاعتهم، آمنا من معصيتهم، لأنّه لا تضره معصية من عصاه، ولا تنفعه طاعة من أطاعه، فقسم بينهم معيشتهم، ووضعهم من الدنيا مواضعهم، فالمتقون فيها هم أهل الفضائل، منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع، غضوا أبصارهم عمّا حرم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم، نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء، ولولا الأجل الذي كتب لهم، لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب، عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما

دونه في أعينهم، فهم والجنة كمن قد رآها، فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها، فهم فيها معذبون، قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أياما قصيرة، أعقبتهم راحة طويلة، تجارة مربحة يسرها لهم ربهم، أرادتهم الدنيا، فلم يريدوها، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها، أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن، يرتلونه ترتيلاً، ويحزنون به أنفسهم، ويستثيرون به دواء دائهم، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلعت أنفسهم إليها شوقاً وظنوا أنّها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أنّ زفير جهنّم وشهيقها في أصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم، واكفهم وركبهم، وأطراف أقدامهم، يطلبون من الله تعالى فكاك رقابهم، وأمّا النهار فحلماء علماء أبرار أتقياء، قد براهم الخوف بري القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، وما بالقوم من مرض، ويقول قد خولطوا، ولقد خالطهم أمر عظيم، لا يرضون من أعمالهم القليل، ولا يستكثرون الكثير فهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون، إذا زكى أحدهم خاف مما يقال له، فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري، وربي أعلم بي من نفسي، اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون.

فمن علامة أحدهم أنّك ترى له قوة في دين، وحزماً في لين، وإيماناً في يقين، وحرصاً في علم، وعلماً في حلم، وقصداً في غنى، وخشوعاً في عبادة، وتجملاً في فاقة، وصبراً في شدة، وطلباً في حلال، ونشاطاً في هدى، وتحرجاً عن طمع، يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل، يمسي وهمه الشكر، ويصبح

وهمه الذكر، يبيت حذراً، ويصبح فرحاً، حذراً لما حذر من الغفلة، وفرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة، إن استعصت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤلها فيما تحب، قرة عينه فيما لا يزول وزهادته فيما لا يبقى، يمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل، تراه قريبا أمله، قليلاً زلَلَهُ خاشعاً قلبه، قانعة نفسه، منزوراً أكُلّه، سهلاً أمره، حريزاً دينه، ميتة شهوته، مكظوماً غيظه، الخير منه مأمول، والشر منه مأمون، إن كان في الغافلين كتب في الذاكرين، وإن كان في الذاكرين لم يكتب من الغافلين، يعفو عمّن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، بعيداً فحشه، ليناً قوله، غائباً منكره، حاضراً معروفه، مقبلاً خيره، مدبراً شره، في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور، لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم فيمن يحب، يعترف بالحقّ قبل أن يشهد عليه، لا يضيع ما استحفظ، ولا ينسى ما ذكر، ولا ينابز بالألقاب، ولا يضار بالجار، ولا يشمت بالمصائب، ولا يدخل في الباطل، ولا يخرج من الحق، إن صمت لم يغمه صمته، وإن ضحك لم يعل صوته، وإن بغي عليه صبر، حتى يكون الله هو الذي ينتقم له، نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة، أتعب نفسه لآخرته، أراح الناس من نفسه، بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة، ليس تباعده بكبر وعظمة، ولا دنوه بمكر وخديعة »[1].

أولئك هم المؤمنون حقاً، والمقربون إلى الله تعالى صدقاً، قرنوا أنفسهم بأوامره وأحكامه، والتزموا بمنهج كتابه، بلغوا من القرب والزلفى ما أعطاهم لديه الكرامة والتقوى، يطلبون فيعطون ويسألون فيجابون، مصداق حديثهم - عليهم الصلاة والسلام -: « إنّ الله خلق خلقاً برحمته لرحمته، فجعلهم

---

(١) نهج البلاغة، شرح الشيخ محمّد عبده ٢: ١٦٠، خطبة ١٩٣.

للمعروف أهلاً، وللخير موضعاً، وللناس وجهاً يسعى إليهم، لكي يحيوها كما يحيي المطر الأرض المجدبة، أولئك هم المؤمنون الآمنون يوم القيامة »[1].

ومحبة الله تعالى، ومحبة أحبائه وأوليائه ليست شعاراً أجوفاً، ولا سراباً زائفاً، وإنّما هي اقتداء واتباع وتأس، عمل طبق العلم، فلا ينفع من ادعى حبّ علي عليه السلام، أهل بيته ما لم يكن سالكاً نهجهم، ومستنيراً بآثارهم، كما لا ينفع من ادعى حبّ رسول الله صلى الله عليه وآله ما لم يأت أهل بيته عليهم السلام ويتولاهم، ويأخذ دينه وسننه عنهم، كما في الحديث الذي رواه جابر عن أبي جعفر محمّد بن علي الباقر عليه السلام حيث قال: « يا جابر أيكتفي من انتحل التشيع أن يقول بحبّنا أهل البيت! فوالله ما شيعتنا إلاّ من اتقى الله وأطاعه، وما كانوا يعرفون - يا جابر - إلاّ بالتواضع والتخشع والأمانة، وكثرة ذكر الله، والصوم، والصلاة، والبر بالوالدين، والتعهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام، وصدق الحديث، وتلاوة القرآن، وكف الألسن عن الناس إلا من خير، وكانوا أمناء عشائرهم في الأشياء.

فقال جابر: فقلت: يا بن رسول الله، ما نعرف اليوم أحداً بهذه الصفة.

فقال عليه السلام: يا جابر لا تذهبنّ بك المذاهب، حسب الرجل أن يقول أحب علياً وأتولاه، ثُمّ لا يكون مع ذلك فعالاً؟! فلو قال إنّي أحب رسول الله صلى الله عليه وآله، فرسول الله خير من علي، ثُمّ لا يتبع سيرته، ولا يعمل بسنّته ما نفعه حبه إياه شيئاً، فاتقوا الله واعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحب العباد إلى الله تعالى وأكرمهم عليه أتقاهم وأعملهم بطاعته.

يا جابر، ما نتقرّب إلى الله تعالى إلاّ بالطاعة، ما معنا براءة من النار، ولا على

---

(١) الكافي للكليني ٤: ٤١، ح١٢.

الله لأحد من حجّة، من كان لله مطيعاً فهو لنا ولي، ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدو، ما تنال ولايتنا إلا بالعمل والورع »[1].

وفي حديث آخر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « شيعتنا ثلاثة أصناف: صنف يتزينون بنا، وصنف يستأكلون بنا، وصنف منا والينا، يأمنون بأمننا، ويخافون بخوفنا، ليسوا بالبذر المذيعين، ولا بالجفاة المرائين، إن غابوا لم يفقدوا، وإن شهدوا لم يؤبه لهم، أولئك هم مصابيح الهدى »[2].

وفي قوله تعالى علامات دالة عليهم:

﴿ وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً * إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً * وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً * وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً * يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً * إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً * وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً * وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً * وَالَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْياناً * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً * أُوْلئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيها

---

(١) الامالي للشيخ الصدوق: ٧٢٥، روضة الواعظين للنيسابوري: ٢٩٤.
(٢) مشكاة الأنوار: ١٢٨.

تَحِيَّةً وَسَلاماً * خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً ﴾[1].

وبقدر ما جاءت النصوص دالة ومبينة لكل تفاصيل وخصائص الفرد المؤمن، بقدر ما تبين بعد طول لأي وبحث عن من يملك تلك المواصفات أو بعضها.

أنّ الباحث عن هؤلاء قد يطول به النوى فلا يحصل على مرغوبه، لأنّ الدنيا قد أسرت جلّ الناس، ولم يفتد منها غير القليل، فلنحرص على أن نكون نحن من أصحاب هذه الخصائص؛ لأنّ في التزامنا مدعاة إلى الله تعالى كي يحقق وعده، ويتم كلمته، ويعلي رايته.

ختاماً نسأل الله تعالى أن يوفقنا لأداء ما علينا من الطاعات، ومراعاة حقوقه وحقوق وسائطه وأوليائه، وأن يطهّر قلوبنا، ويزهر ربيعها بحبّه وحبّ من يحبّه، حتى لا يكون لنا من الدنيا شيء إلاّ وهو متعلّق به متيّم بحبّه، ومخصوص له، وأن يباعد بيننا وبين أعدائه، ولا يجمعنا بهم في دنيا ولا آخرة، إلا إذا كانت جهادا لهم تحت راية هدى، إنه ولي التوفيق، وصلّى الله على أفضل الخلق أجمعين محمّد الأمين، وآله الأبرار الطاهرين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الفرقان: ٦٣ – ٧٦.

الفهرس



ولد عام ١٩٥٣م في «فطناسة» بولاية «قبلي» في « تونس» .
ترعرع في أسرة محافظة تنتمي إلى المذهب المالكي .
توفرت له فرصة البحث مع ابن عمّه للوصول إلى العقائد الحقّة والتحرّر من التقليد الأعمى للموروث الديني.
استبصر عام ١٩٨١م بعد أن أملت عليه الأدلة تغييرانتمائه المذهبي.
واجه العديد من المضايقات بعد إعلانه الاستبصار ولكنه صمد بوجه كافة الموانع والعقبات التي جُعلت أمام طريق تمسّكه ونشره مذهب أهل البيت عليهم السلام.
من مؤلفاته :
نعم لقد تشيعت وهذا هو السبب.
له العديد من المقالات المنشورة في الصحف العربية ومواقع الانترنت، ومجال تخصصه البحث في علم الكلام والتاريخ الإسلامي.
مركز الأبحاث العقائدية